سيد قطب

أيها العرب...

استيقظوا واحذروا



دار الإسراء للنشر والتوزيع

سيد قطب

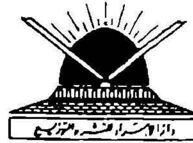
أيها العرب...

استيقظوا

واحذروا

الطبعة الثانية ٢٠٠٤

٣٢٠،٩٤ع
سيد سيد قطب
ايها العرب استيقظوا او احذروا / سيد قطب
تجميع جمال مدغمش .- عمان : دار الاسراء ، ١٩٩٠
(٢٢١) ص
ر.أ (١٩٩٠/٩/٦٠٧)
١ ـ العالم العربي ـ اوضاع سياسية أ ـ جمال مدغمش
جامع ب ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)



دار الإسراء للنشر والتوزيع

عمان/ الأردن

جبل عمان ، ت: ٤٦١٤٥٩١

العبـــدلي ، ت: ٤٦٢٠٧١١

ص.ب: ١٨٢٤٤١

Email: Esraa Jordan@Hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

في ١٥ يناير ١٩٣٣، صدر العدد الأول من مجلة (الرسالة) لتكون مجلة عالم الأدب العربي.

وكان من بين أبرز أعضائها عباس محمود العقاد، وأحمد أمين، والدكتور عبدالوهاب عزام، وعلي الطنطاوي، والدكتور زكي مبارك، والدكتور محمود مندور، والشاعر محمود حسن اسماعيل، وابراهيم عبدالقادر المازني، ومصطفى صادق الرافعي، وتوفيق الحكيم، وكاتب المقالات التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه «سيد قطب»... وغيرهم من أئمة البيان، وأعلام الفكر والأدب كثير.

وقد تطرقت مجلة (الرسالة) في ثناياها لمعظم الموضوعات الاجتماعية والسياسية والدينية والفلسفية والعلمية والأدبية والتاريخية والفنية.. فلم تترك باباً إلا ولجته.. تصدر في ذلك عن نظرة عميقة، ومضمون ناضج، وشمولية... فكان لها بذلك بالغ الأثر في ميادين الاجتماع والدين والأدب..

ولقد نشر كثير من الكتاب مقالاتهم على صفحات مجلة (الرسالة) ثم عادوا فجمعوها، أو جُمعت من بعدهم في كتب مستقلة، كمقالات الأستاذ علي الطنطاوي، وقصة الدكتور زكي مبارك (ليلىٰ المريضة في العراق)..

واليوم أضع بين يديك أيها القارىء، كتاباً جمعت فيه كل المقالات السياسية* التي نشرتها مجلة (الرسالة) لسيد قطب.. أضعها كما هي، بتسلسلها

---

* باستثناء تسعة مقالات، آثرت أن لا أعيد نشرها، حيث وجدتها في بعض كتب سيد قطب المنشورة، وهذه المقالات التسعة هي:

١ ـ طريق وحيد س ١٩٥٢/٢٠ ع ٩٧٢ ص ١٨١ منشورة في كتاب (كتب وشخصيات).

٢ ـ هذا هو الطريق س ١٩٥٢/٢٠ ع ٩٨٣ ص ٤٨٩ منشورة في كتاب (معالم في الطريق).

٣ ـ ضريبة الذل س ١٩٥٢/٢٠ ع ٩٨٩ ص ٦٥٧.

التـاريخي ، وبـروحها الدافقة الحية، وبطابعها المتميز، وبتعبيرها عن معظم مراحل حياة سيد قطب الفكرية . .

إنها مقالات ـ كما سترى ـ تتناول الأحداث السياسية والاجتماعية التي مرت بها مصر والأمة العربية والاسلامية في الفترة ما بين عامي (١٩٣٣ ـ ١٩٥٣) تناولاً عميقاً، مؤثراً، دقيقاً . . يهاجم فيها سيد قطب ـ بلا هوادة ـ كل أشكال الاستعمار ووسـائله، وينـادي بالتحرير والاستقلال، وبقيام الكتلة الاسلامية في مواجهة التكتلات الاخرى و. . . ولن أطيل . . فالمقالات ـ أيها القارىء ـ بين يديك، أسأل الله أن ينفعني وإياك بها، وأن يتغمد برحمته كاتبها.

المحامي جمال مدغمش

---

٤ ـ إسلام أمريكاني س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩١ ص ٧١٣
٥ ـ العبيد س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩٨ ص ٨٨١
٦ ـ أدب الانحلال س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩٠ ص ٩٣٧
٧ ـ قوة الكلمة س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠٠٧ ص ١١٦١
٨ ـ يا لجراحات الوطن الاسلامي س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠١١ ص ١٢٧٣
٩ ـ فرنسـا أم الحرية س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠١٥ ص ١٣٨٥ .
وكلها منشورة في كتاب (دراسات اسلامية).

العالم يجري!!

س ١/١٩٣٣ ع ١٧ ص ١٢

كل شيء يجري في هذا العصر، وكل شيء يسرع. والعالم في إسراعه للأمام، لا يكاد يتلفت يمنة ولا يسرة، وان كان يتجه الى الخلف في أحيان قليلة، ليرى كم قطع من المسافات فالبخار لم يعد يستطيع تلبية هذه الحاجة الملحة للسرعة فخلفه الطيران، والطائرات نفسها تكاد تعجز عن تلبيتها، فتزيد كل يوم في سرعتها، وتقوم المسابقات العالمية لهذا الغرض.

والتليفون والبرق لم يعودا كافيين، فاذا بالراديو واذا بالتلفزيون لنقل الاصوات ولنقل الصور، بل لنقل المناظر ذاتها لا صورتها. وإذا بالأفلام الناطقة تعرض الصوت والحركة، وتغني بالعين والسمع عن الوهم والخيال!.

هذه الظاهرة السيكلوجية الغريبة، قد جرفت معها الأدب أيضاً، وجرفت الفنون جميعا، وكان ذلك طبيعيا، لأن الفنون هي الظاهرة للنفس الباطنة.

فالفن اليوم لمحات خاطفة، وملاحظات سريعة، لا يقف للدرس العميق، والتحليل الدقيق، لأن طبيعة العصر لا تمهله للوقوف، وإلا سبقته الحياة بآلاف الأميال.

والمجلات العلمية اليوم تكاد تنعدم، والباقي منها أخذته نشوة السرعة أيضا فلم تعد بحوثه مركزة، ومع ذلك فهي لا تجد العدد الكافي من القراء فتضمحل وتذوي، وتدرج في زوايا النسيان.

---

* نشرت في (الرسالة) س ١/١٩٣٣، ع ١٧، ص ١٢

وأنا على يقين من تبدل هذه الحال، فالعالم الذي يجري الآن بكل قوته، لا بد أن يدركه الكلال، ولا بد أن تنقطع به هذه النشوة الطائشة، فيتمهل ليعرف ما يحيط به.

وسيضحك العالم من نفسه يومئذ على تلك الحماقة التي ارتكبها، كما يرتكب الأطفال حماقاتهم، ركضا وجريا ووثبا ثم يفيقون من هذه الغمرة عندما يكتمل نضجهم، ويتوبون الى الرشاد.

النشاط شيء، والعجلة شيء آخر، واذا كان النشاط من مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فليس للعجلة هذه المزية مطلقاً، بل أن لها أضرارا، قد لا تعرف اليوم في أبان هذه النزوة الطائشة، وقد تعرف ولكنها لا ترد إلى أسبابها الحقيقية، ولا تعلم علاتها الأصلية!.

ويقيني أن هذه الأزمات التي يعانيها العالم اليوم من مالية وسياسية وأدبية واجتماعية، انما منشؤها هذه السرعة، هذا التسابق، هذا الجنون، الذي يعمي الانسان عما حواليه، فلا يرى إلا الامام دون ما على الايمان والشمائل.. وحتى حين يصطدم بما حواليه، فهو لا يقف ليتأمل، أو ليصلح ما أصابه من الاصطدام، بل ينطلق إلى الأمام أيضاً، محتملا أثر الصدمة تلو الصدمة حتى يلحقه العطب الكامل.. فتكون هذه الأزمات!.

إن السائق الذي يعرف كيف يسوق ولا يعرف كيف يقف: أو يدري كيف يسرع، ولا يدري كيف يبطىء، إنما هو سائق جاهل، غير مأمون على نفسه ولا على الركاب. وإذا كان للقيادة السريعة لذة في النفس ونشوة، فليس معنى هذا أنها أحسن القيادات وأولاها بالاتباع.

وبعد ففي مصر اليوم دعوة حارة ومخطرة معا، الى تقليد الغرب، والجري وراء الغرب، وإن كان الغرب نفسه لا يعرف اليوم وجهته، وهو شارد كالضال في متاهات الحياة، فكأننا سنجري وراء من يجري وهو لا يعرف مبتغاه!!.

وهذه الدعوة مفهومة من الوجهة «السيكلوجية» وقد عرف «ابن خلدون»

أسبابها منذ قرون حينما عللها. بأن المغلوب يميل بطبيعته لتقليد الغالب لأعتقاده أن غلبته له إنما كانت لخصائص فيه.

والسيكلوجية الحديثة تقر ما ذكره ابن خلدون، وتضيف اليه نظرية العقل الباطن، إذ يندفع الانسان في بعض الأحيان، الى أمور لا دخل لارادته فيها، ولا لتفكيره، بحكم إندساسها في العقل الباطن، من مخلفات مشاهداته، أو ملاحظاته أو تفكيره التي يغمرها النسيان.

وهذه الدعوة مع أنها مفهومة وطبيعية، ليست مُسَلَّمة، ومن الواجب التحذير منها، وابرازها للنور، بعيداً عن المؤثرات النفسية الغامضة، واذا كانت الحرب العظمى قد أفقدت العالم الغربي اتزانه وطمأنينته، وبعثته من المكامن والخنادق وحفر الموت، مأخوذا، مشدوها، مجنونا.. فليس من الواجب أن يفقد الشرق طمأنينته كذلك، ويجري وراء الغرب المأخوذ المشدوه، دون ما تأمل ولا تفكير!.

إن للشرق رسالة قد يكون الآن موعدها، ورسالته هذه ستقوم على خصائصه الأصلية فيه، وستصبح واجبة بل ـ اصبحت ـ لأن الغرب يكاد يتهالك ضعفاً وإعياء لفرط جريه، وكثرة اصطداماته.

نحن لا نكره النشاط كما قلنا. ولكن نكره العجلة. ونريد أن يحتفظ الشرق بشيء من يقينه، ومن عمقه واتساعه، ومن سحره أيضاً!، وألا يفرط في تقليد الغرب، ولا سيما والغرب يتخبط، ويئن، ويشكو من الصدمات ولم يوفق بعد لاتقائها، لأن النشوة لا تزال تطيف برأسه فيجري، وينهكه الجري، ولكنه لا يكف عن الجريان!

بيت المغرب في مصر

س ١٩٣٨/٦ ع ٢٨٢ ص ١٩٣٧

هيأ عقد المعاهدة بين مصر وانجلترا للدولة المصرية الحديثة، أن تنتهج سياسة شرقية عربية كانت تطمح إليها من قبل، فيحول دون انتهابها أولا مشاغل الوطنية باستكمال الاستقلال، وثانيا تيارات السياسة الاستعمارية المضادة للوحدة العربية الشرقية، وتطرد مظاهر هذه السياسة الجديدة في التفكير المصري الآن، وتتحقق بوسائل عملية لم تكن بارزة من قبل.

فالأزهر اليوم يرحب بالبعثات الشرقية عامة، وهو وإن كان من قبل مثابة طلاب هذه البلاد، إلا أنه في هذه الأيام يشملهم برعاية خاصة، والجامعة تزخر بالكثيرين من أبناء البلاد الشقيقة، وتسهل لهم الطرق لاستكمال دراستهم بها.

ودار العلوم تهتم بانشاء قسم داخلي للاخوان الشرقيين بها، مبالغة في توفير أسباب الراحة والدراسة المنظمة لهم.

وفي الوقت ذاته تتجه مصر إلى جاراتها العربية للنظر في توحيد البرامج أو تقريبها على الأقل، ويعقد مؤتمر في تونس للثقافة العربية قوامه الأساتذة المصريون.

وكذلك تمد مصر يدها بخيرة أبنائها لهؤلاء الجيران الكرام، يحملون إليها العلم والنور والخبرة في شتى الشئون.

هذا كله في عالم الثقافة، فأما في عالم السياسة فان قضية فلسطين كانت محكا لتوثيق الروابط بين مصروالبلاد العربية كلها، وقد نالت هذه القضية عطف كل مصري واهتمامه، وآخر مظاهر الاهتمام كانت في المؤتمر البرلماني ومؤتمر

الجامعة. كما أنني أعلم من مصادر وثيقة أن الحكومة المصرية قدمت لحكومة لندن مذكرة خاصة بهذا الموضوع، ضمنتها رأيها قوياً حازماً صريحاً، وإذا كانت لم تشأ نشر هذه المذكرة، فقد اختارت بهذا أن تتبع الطرق الدبلوماسية المناسبة للمعاهدة.

في خلال هذه اليقظة التي تعمر الضمير المصري تجاه البلاد العربية، افتتح «بيت المغرب في مصر» فكان افتتاحه في هذا الأوان علامة من علامات التوفيق، ومظهراً من مظاهر الحيوية العربية الكامنة التي تنبثق في أفضل المناسبات.

وهو دليل جديد على الثقة بمصر، والتوجه إليها من أطراف المشرق العربي والمغرب العربي، هذه الثقة التي يحق للمصريين أن يفخروا بها، وأن يعنوا باستدامة أسبابها، وتمكين روابطها.

وقد أحسنت مصر استقبال «بيت المغرب» واشتركت الحكومة والشعب بالحفاوة به وبسكانه، لتفتح قلبها اليوم لمثل هذه الصلات، بعدما خلصت من قيود الاستعمار.

ولقد كان لي من قبل حظ معرفة الرجل الوطني العامل الذي يشرف اليوم على بيت المغرب بأقسامه الثلاثة (مقر البعثة، ومكتب التبادل الثقافي، ومعرض الفن المغربي) إذ كان يدرس بمصر عام ١٩٢٩ وكانت وجهتنا إذ ذاك مع نخبة من أكرم الاخوان المصريين والشرقيين أن نؤلف جمعية للطلبة من هؤلاء وهؤلاء، تمكن من الروابط بين الجميع، وتعمل للمستقبل في توثيق العلاقات وتسهل للطلبة الشرقيين وسائل العلم والراحة في مصر.

وكان الأستاذ المكي الناصري أشد المتحمسين للفكرة، وكنا نجتمع ـ غالباً ـ في داره بمصر للمباحثات في تحقيق هذا الأمل الكريم.

فمن حسن الحظ أن يكون هذا الرجل هو الذي يتولى الآن تنفيذ فكرة «بيت المغرب» إذ هو أصلح رجل مغربي ـ فيما أعتقد ـ لتنفيذها، لسابق معرفته بالأوساط المصرية وسابق تفكيره في مثل هذه المشروعات.

ورؤيتنا لبيت المغرب حقيقة ملموسة، تثير في نفوسنا التساؤل: متى يكون لكل أمة عربية بيت في مصر على مثال هذا البيت الوطيد؟.

إن اليوم الذي تكون فيه لكل بلد مشرقي بعثة دائمة في مصر على هذا المثال لهو اليوم الذي يتم فيه توحيد الثقافة والاتجاه بين هذه الأمم، فتتم لها العزة العربية التي تحلم بها في المستقبل القريب ـ إن شاء الله ـ.

ويلات السَّلْم . . . !

هذه الحياة الدنيا عجيبة، فهي ما تزال تنشىء السم وتدس فيه الترياق، وتخلق السقم وبين طياته عناصر الشفاء. وما تزال تخيل لأبنائها السذج أنها موشكة على التلف مشرفة على البوار، فتثير فيهم قواهم الكامنة، وتستحث منهم هممهم الراكدة، ثم إذا هي تنصل من الداء، وتنهض من الكبوة، أشد ما تكون عافية، وأوفر ما تكون قوة، كصحو الطبيعة غب الوابل المنهمر، وصفو السكون بعد العاصفة الهوجاء!.

وإن من عجائب هذه الحياة أن تكون للسلم ويلات، ربما فاقت ويلات الحرب، بل هي تفوقها بكل تأكيد. ألا وإن من عجائبها أن تجعل الحرب ترياقاً لسموم السلام!.

وما يخالجني الشك في أن فرنسا كسبت بهذه الهزيمة أضعاف ما كسبت غداة الهدنة بالنصر. ومهما بدا هذا القول عجيباً فإنه قمين بالتصديق. ومن شاء أن يختبر صدقه فلينظر فيما كانت عليه فرنسا قبل الحرب، وما يلوح أنها ستكون عليه بعدها.

لقد عبث النصر السابق والرخاء الغابر بفرنسا عبثاً شديداً، فلقد غدت قبل الهزيمة شيعاً وأحزاباً لا حصر لها، ولا تدرك أسماؤها فضلاً على مبادئها، بل أهوائها. ولقد كان التشعب السياسي والحزبي أهون ما نكبت به فرنسا، فلقد أصابها ما يصيب الأمم المنحلة من تدهور خلقي، وإباحية، وبيئة، وفردية مقيتة، واستهتار معيب، ولقد نُسيت فرنسا ليُذكر الفرنسيّ! وبات كل فرد أمة، فكل فرد وشأنه، وكل امرىء ولذائذه، وكل نفس وشهواتها، وعاد الأخذ شهياً

والمنح مريراً وغلبت الرفاهة وحب الراحة على الجميع.

هذه فرنسا التي هزمت في أسبوعين، وكانت ستهزم نفسها لو لم يهزمها الجرمان، وكانت ستخذل قضيتها لو لم تخذل في الميدان..

وهذه - ولا شك - بعض ويلات السلام، أو الاطمئنان إلى السلام! أما فرنسا بعد الهزيمة، فها هي ذي مغلوبة على أمرها ولكنها أشد حيوية وأكثر يقظة، فلقد تنبهت فيها كل حاسة، ولقد وحدها الخطر وهي ممزقة كل ممزق - والجسم الحي يتنبه ليدفع الخطر -؛ وأخذ كل فريق يعمل على طريقته، ولكن لفرنسا، لفرنسا وحدها لا لنفسه أو حزبه، ولا لمطامعه ولذائذه.

فهذا «ايتان» الشيخ يجدد شباب فرنسا! ويوحي إليها في كل حركة وكل عمل وكل خطبة أن تنهض، ويبشرها بالنهوض، وهو في الوقت ذاته يذكرها بالخطر الجاثم والهول المحدق، ويستنهض فيها الماضي والمستقبل، ويقودها إلى الإيثار بعد الأثرة، وإلى التضامن بعد الفردية، وإلى الانسانية العفة بعد الإرتكاس في الشهوات.

وهذا «فيجان» يحتمي في الشمال الإفريقي، ليشد ساعد الشيخ، ويثبت أقدامه أمام الغول الجرماني؛ وليبث في نفوس الفرنسيين الثقة بأن لهم بقية من قوة، ومسكة من مقاومة، وأنهم خليقون بالثبات بعد التقهقر، والنهوض بعد العثار، والرجاء بعد القنوط، والعزة بعد الاستسلام.

أما «ديجول» فالحديث عنه نافلة، ذلك أن موقفه خطبة صامتة أبلغ من كل خطبة، وذلك أنه يمثل قلب فرنسا الحي، قلبها الشجاع الأبيّ، الذي لم يعترف بالهزيمة غداة الهزيمة. وإن «ديجول» وحده لشهيد بأن في هذه الأمة حياة، ولو طمست كل الأدلة والبراهين.

وما من شك أن فرنسا ستنهض وقد تطهرت من أرجاسها ونقيت من أدرانها. ستنهض باسم الرجولة والتضحية والأخلاق، وستكون خيراً لنفسها وللعالم من فرنسا الممزقة الغارقة في الشهوات.

ولقد صنعت ألمانيا سنة ١٩١٨ ما تصنعه فرنسا اليوم؛ فكانت الهزيمة حافزها الأول إلى وثبتها الجديدة. ولو لم يقم على هذه النهضة رجل مريض النفس، شاذ السليقة، لانتفع بها العالم في التعمير بدل التخريب، ولصرفت هذه الطاقة الضخمة من القوة الخارقة في غير هذا السبيل.

وما أريد أن أضرب المثل بانجلترا، فقد يكون الخلق الإنجليزي فوق مستوى أفهامنا، بل فوق مستوى أفهام العالم. هذا الخلق الذي يخلق من الشعب كله أبطالاً في ساعة المحنة، ويجعل من البشر ملائكة في لحظة الخطر، ويحيل الأفراد كتلة واحدة ما لها من فكاك.

ومع هذا فقد كاد السلم، وكاد الغنى، يضعفان من أعصاب هذا الشعب، فذهب الى الحرب متثاقلاً، ونام عن الاستعداد حتى دهمته الأهوال. ومن يدري لو طال به السلم، وأُملِيَ له في الدعة. ما كان يصيب هذا الخلق المتين من الوهن، وهذه الأعصاب الفولاذية من الانحلال.

للسلم ويلات...

ومصر ـ كنانة الله في أرضه ـ أشد أمم الأرض بلا استثناء إصابة بهذه الويلات!.

فأين ما كان في فرنسا من تشعب وتشعث مما في مصر؟ وأين ما كان هناك من فردية مقيتة وأثرة بغيضة مما في كنانة الله؟ وأين ما كان في وطن نابليون من رفاهة مريضة وترف ذليل، وفساد في الخلق والضمير، مما يجري هنا في وطن رمسيس؟.

لا يحاول أحد أن يكتم عنا ما نحسه في أعماقنا، ولا يجادل أحد فيما تلمسه أيدينا وتراه عيوننا، ولا يفهم أحد أنه من الخير لنا أن نعصب عيوننا فلا نرى سوءاتنا.

إن في مصر من «ويلات السلم» ما لا يتصوره أي أجنبي عنها؛ وفرنسا المنحلة المريضة الغارقة في الشهوات كانت قديسة طهوراً بالقياس إلينا...

كانت أمة ولسنا نحن أمة، وهذا أخصر ما يصورنا من ألفاظ.

في مصـر ما لا يحفظ التـاريخ من فحش يعـج بهـا وفـحش يكـتـم

كما قلت في قصيدة منذ سنوات.

وليس هذا «الفحش» بقاصر على ما ينصرف الذهن إليه أول وهلة، ولكنه فحش يشمل كل شيء. يشمل الضمائر والأسرار، ويشمل التصرف الشخصي اليومي للألوف والملايين.

في مصر فحش من الفقر وفحش من الغنى، فحش من الحرمان وفحش من المتاع. وفيها فحش النعومة التافهة يقابله فحش من الخشونة العارمة.

وفي مصر مشاحنات ومنازعات، ولكنها ليست على شأن جليل ولا غرض عظيم. وفي مصـر أثرة عمياء صغيرة المطامع قريبة الآفاق لا تعدو لذة كلذة الحشرات والهوام.

ومنشأ هذا كله طول عهدنا بالسلم الرخيصة والدعة المريضة والأمان التافه. كل ذلك عبث بأعصابنا فأوهنها وبآمالنا فقرب مداها، وبهمومنا فأصغر قيمتها، والخطر الذي يثير الأعصاب، وينبه الحواس، ويكبر الهمم، ويغذي الطموح قد حرمتنـا الأقدار إياه، فمنحتنا طبيعة سمحة لا تحوجنا للجهد ولا تثير فينا الجهاد، وسلبتنا نعمة الاستقلال أحقاباً متطاولة فلم نضطلع من عهد طويل بأعباء الاستقلال.

علم الله لقد كانت أكبر أمنية لي أن أعيش حتى أرى مصر تخوض معركة. معـركـة واحدة، تطهرها كما تطهر النار الخبث، وتبعث فيها الرجولة الكامنة والتضامن الوطيد، وتشفيها من رخاوة السلم وانحلال الدعة ونعومة الفراش!.

وإن مصر لكاسبة كاسبة لو خاضت المعركة. كاسبة ولو تحطمت دورها وتمزقت أجسادها، لأنها ستبني أخلاقاً وتوحد كياناً، وترفع فوق مستوى الحرص الحيواني على الحياة إلى مستوى الحرص الإنساني على الكرامة. ولأن حيويتها

ستنبض في ساعة العسرة، وأعصابها ستشتد في مواجهة الخطر، فتعوض في المستقبل أضعاف ما تخسر من دور وما تفقد من أجساد!.

لو خضنا المعركة ـ أية معركة ـ ما حدثك شاب «أرستقراطي» عن «النكبة» التي حلت به لأن «سهرة» فاتته، ولا عن «الكارثة» التي تسود حياته لأن منافساً له من بني طبقته فاز بقلب راقصة ـ إن كان لها قلب!.. ولا عن «ويلات الحرب» التي رفعت من أثمان العطور والخمور!.

أي والله هذه أحاديث شباب «الوسط الراقي» في مصر، وتلك مطامعه وآفاقه في الحياة. وإن كثيرين من أبناء الطبقة الوسطى ـ عماد الأمم ليقلدون هؤلاء مع الأسف، فإن لم يقلدوه في هذا، فالكارثة عندهم أن لم يجدوا وظيفة بعد تخرجهم، والنازلة أن بعض زملائهم سبقوهم في الدرجات، وويلات الحرب عليهم هي وقف العلاوات والترقيات!.

لو خضنا المعركة ـ أية معركة ـ لبرئنا من الأثرة الحمقاء التي يحسب فيها التبرع بالجنيه من صاحب الألوف مفخرة تشيد بها الصحف، وتطوع فتاة في مستشفى في مبرة تنشر من أجلها الصور. ذلك أن التبرع بالأرواح والتطوع بالدماء يصبحان إذ ذاك عملاً يومياً لا يلفت الأنظار!.

لو خضنا المعركة ـ أية معركة ـ لسكتت ألسن الدعاة الحزبيين عن الخوض في الشخصيات ولترفعوا عن المغانم والأسلاب، ولكان لهم من هموم مصر ما يشغلهم عن هموم الحكم، ومن مطالب الوطن ما يلهيهم عن مطالب الأنصار!.

ولو خضنا المعركة لكان لنا أدب غير أدبنا الباكي الحزين ولكانت لنا أمجاد نتغنى بها، ومخاطر ندعو إلى اقتحامها، ومخاوف نثير الهمم إزاءها، ولكانت لنا عزة تستشعرها نفوسنا ويتغذى بها إحساسنا.

إي والله، ولا سمعنا في ذلة باكية «ما يهونش» أو «ميلت بختي في الحب بختي» أو «يا حبيبي تعال الحقني شوف اللي جرالي من نار حبك» أو «ليه

تلاوعيني وانت نور عيني». ولأنفنا أن يكون نشيدنا القومي المختار: «لا والنبي يا عبده»!.

اللهم إن تكن قد كتبت علينا ألا نخوض المعركة، فابعث اللهم علينا بركاناً ثائراً أو زلزالاً محطماً أو سيلاً جارفاً أو كارثة من كوارثك الرحيمة التي تنقذ بها عبادك من نعومة الأمن ورخاوة الدعة وويلات السلام!.

فإن تكن اللهم قد أردت حرمان هذا الجيل من رحمتك فلا تحرم الأجيال الآتية ما حرمتنا، إنك أرحم الراحمين!.

هذه هي فرنسا

كلما سمعت أو قرأت ـ بمناسبة حوادث سوريا الأخيرة ـ أن هذه الحوادث مخالفة لتقاليد فرنسا، ثار في نفسي شعور السخرية المريرة من هؤلاء المتحدثين أو الكاتبين . .

تقاليد فرنسا!

ومتى كانت تقاليد فرنسا إلا هذه البربرية المتوحشة؟ ومتى كان الفرنسيون إلا عشاق المجازر البشرية، المولعين بالدماء في كل زمان ومكان؟ حتى في ثورتهم الكبرى التي يعيشون باسمها حتى الآن.

تقاليد فرنسا!

تقاليدها في سورية، أم مراكش، أم في تونس، أم في الجزائر، أم في أية بقعة من بقاع الأرض على مدى الأزمان والأجيال؟.

إنني لأستعرض أمامي تاريخ فرنسا في الشرق، فلا أجد إلا صفحات من البربرية المتوحشة، وإلا بركاً من الدماء حيثما وضعت أقدامها في مكان، وإلا وسيلة واحدة من وسائل التدمير والتخريب.

في أيام نابليون سلطت المدافع من قلعة الجبل على المصريين، ودخلت الجنود الفرنسية المتبربرة بخيولها الأزهر، وجرت الدماء في شوارع القاهرة، وديست كرامة الدين، وانتهكت الحرمات العامة. . باسم تقاليد فرنسا!.

وفي سنة ١٩٠٥ ضربت دمشق بالقنابل، وأريقت الدماء في الشوارع، واعتدت الجنود الفرنسية المتبربرة على الآمنين. وضج الشرق العربي للمأساة،

بينما كانت الصحافة الفرنسية تمجد أعمال الوحشية في سورية.. باسم تقاليد فرنسا!.

وفي سنة ١٩٢١ وما بعدها وما قبلها أيضاً سالت الدماء في مراكش العربية لإرغام الناس هناك على الدخول في المسيحية وترك ديانتهم الإسلامية، باسم «الظهير البربري» المعروف جيدا في كل صقع إسلامي، والذي يشهد أن دماء الصليبيين لا تزال تجري في عروق الفرنسيين، ومنذ ذلك الحين بل قبله والزعماء المراكشيون منفيون في المستنقعات الحارة، وبلغ من الوحشية المتبربرة أن تشغِّل هؤلاء الزعماء السياسيين في رصف الأرض وقطع الأحجار في تلك الجهات الحارة النائية في أواسط إفريقية حتى يصاب بعضهم بالسل، وبعضهم بالحمى الصفراء.. وذلك باسم تقاليد فرنسا!.

وفي تونس، وفي الجزائر، البلدين العربيين اللذين تدعي فرنسا أن ثانيهما «أرض فرنسية» تعمل جاهدة على رد أهله عن دينهم بكل وسائل العنف والقسوة.. باسم تقاليد فرنسا!.

هذه هي فرنسا.

هذه هي في حقيقتها من وراء الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة. بل هذه هي حتى من خلال الأضواء المصطنعة والدعايات البراقة. فما هذه الأضواء التي تخدع المخدوعين، وتطلق ألسنة الدعاة؟ إنها الدعارة الفاجرة، والتحلل الذميم، والبوهيمية المطلقة.. إنها هي بعينها النكسة إلى حياة الحيوانية، وفوضى البربرية!.

ولكن هنا رؤوساً وأقلاماً لا تزال تمجد فرنسا، ولا تزال تتشدق باسم فرنسا!.

أولئك بضعة نفر عاشوا في فرنسا فترة من العمر، فسمحت لهم فرنسا الداعرة بإشباع أقصى لذائذهم الحيوانية، وتروية أظمأ شهواتهم الحسية.. ثم عادوا فإذا في الشرق بقية من تقاليد وبضعة من حواجز، فلم يرق لهم ما في هذا الشرق من «رجعية»! وظلوا يحنون إلى عهد فرنسا الداعر وإلى لذائذها الممنوعة، وإلى شهواتها المحرمة!.

وقليل منهم وجد في فرنسا علماً وفناً ـ وان لم يجد لفرنسا قلباً ـ ففتنة العلم والفن عن أقدس المقدسات القومية والإنسانية فتنة عن كرامة الوطن، وعن حرمة الأهل وعن شرف العرض. . فإذا أحدهم يجادلني في أمر الشرق العربي وفظائع فرنسا فيه فيقول: «إذا لم يكن للانسانية من أن تفقد فرنسا أو أن تفقد هذا الشرق العربي، فليذهب الشرق العربي إلى الجحيم»!.

هؤلاء نفر منحلون. . . وعلامة الانحلال في فرد أو أمة أن يهون عليه شرف العرض وحرمة الأهل وكرامة الوطن. كما هانت على هذا الذي كان يجادلني في أمر فرنسا.

ويقولون لنا حين نجادلهم: إنكم لم تعيشوا في فرنسا. أجل نحن لم نعش في فرنسا، ولكن فرنسا عاشت عندنا فلم نطلع منها في يوم من الأيام على صفحة بيضاء. . . فهلا أخطأت فرنسا مرة فأطلعتنا على حقيقة عناصرها الطيبة؟!.

ويعتذرون لفرنسا اليوم في تصرفاتها البربرية بأنها تحس «مركب النقص» بعد الهزيمة، فتريد التعويض بمظاهرات القوة، وأن سياسة وخز الابر التي تتبعها معها إنجلترا في الشرق هي التي تثير أعصابها تلك الثورة الوحشية.

ولكننا نستعرض تاريخ فرنسا في الشرق، فلا نجد اختلافاً بين مركب النقص ومركب الكمال!، ولا نلمح فرقاً بين فرنسا الظافرة بعد الحرب العظمى وفرنسا المهزومة في هذه الحرب.

إنها هي هي. . فرنسا المتوحشة في كل حال. فرنسا التي تدك القاهرة بالقنابل وتعتدي على حرمة الأزهر وكرامة الدين في عهد نابليون، هي فرنسا التي تدك عاصمة الأمويين بالقنابل في عام ١٩٢٥ ثم في عام ١٩٤٥.

فإما أن «مركب النقص» هذا طبيعة فرنسية دائمة، وإما أننا نختلق لفرنسا المعاذير لأننا منحلون. لا نثور لعرض، ولا نغضب لأهل، ولا تعنينا كرامة، بعد أن تهيء لنا فرنسا لذائذ الحس، وشهوات البدن، أو حتى لذائذ الفكر وشهوات الوجدان!.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي أطلقت قنابلها على القاهرة وداست بخيلها مسجدنا الأعظم في عهد نابليون.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي مهدت الطريق للاحتلال الانجليزي بانسحاب أسطولها من المياه المصرية سنة ١٨٨٢، وترك الأسطول الإنجليزي يهاجمنا بعد الخدعة اللئيمة التي خدعها دي لسبس لعرابي بحماية قناة السويس وعدم السماح للاسطول الانجليزي بمهاجمة فرنسا من ناحيتها، ثم النكث بالعهد، لأن فرنسا كانت تبصبص بذنبها كالكلب ينتظر فتات المائدة في «الاتفاق الودي» بعد ذلك بأعوام!.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي أطلقت قنابلها على دمشق عاصمة الأمويين مرتين في خلال عشرين عاماً، بلا مبرر، وبعد تدبير شنيع.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي دبرت مؤامرة وحشية دنيئة لم تتم لقتل أعضاء الوزارة السورية وأعضاء البرلمان السوري، وكان عدم إتمامها راجعاً الى وقوع وثيقة في يد الحكومة السورية.

يجب أن نذكر أن فرنسا هي التي أصدرت أمراً يومياً لقواتها في سورية بالاستعداد «لمذبحة كبرى»! وأن قائدها هناك هو الذي صرخ بحبه لمظاهر القتل والدماء!.

يجب أن نذكر أن الجزائر وتونس ومراكش تلقى من البربرية الفرنسية ما لا يلقاه أحد من العالمين من القتل والنفي والتشريد، واستخدام الوسائل الخسيسة في تعذيب الزعماء السياسيين.

يجب أن نذكر هذا كله، لنحتقر الثقافة الفرنسية مهما تكن، لأن الثقافة تظل أبداً جوفاء إن لم يكن من آثارها تهذيب الطبع، وإنارة القلب، وبث الشعور الأدمي بين المثقفين!.

ويجب أن نذكر هذا كله لنحتقر دعاة فرنسا في كل مكان في الشرق العربي، وننظر إليهم كما ننظر إلى الأمساخ المشوهة، والمخلوقات المريضة،

فما يرتفع تمجيدهم لفرنسا على تمجيد الشهوة. ولو كان تمجيد الثقافة التي لا تخرج بالإنسان عن طبيعة الحيوان!.

ويجب ان ننتهز الفرصة السانحة لخنق الثقافة الفرنسية في الشرق كله، كما صنعت سورية الباسلة، فتختنق فرنسا في الشرق بلا قتال!.

يجب أن يكون لنا شرف المساهمة في أن تعود فرنسا دولة صغيرة ـ كما تستحق ـ فقد برهنت على أنها لا تستحق غير هذا يوم جثت على ركبتيها عند الضربة الأولى!.

يجب.. وإلا فدعونا من الثورات المؤقتة، ومن الجعجعة الفارغة، ومن الألفاظ الجوفاء!.

عدلوا برامجكم

أو انسحبوا قبل فوات الأوان!

س ١٣/ ١٩٤٥ ع ٦٢٧ ص ٧٢٣

أمير اللاعبين هو الذي يعرف بالضبط متى يجب عليه أن ينسحب قبل فوات الأوان.

ولكن يبدو أن أحزابنا المصرية لا تؤمن بهذه الحكمة، أو لا تعرف كيف تطبقها في الوقت المناسب.

قامت هذه الأحزاب جميعاً لغرض واحد، هو الجهاد السياسي لتحقيق الاستقلال. ويقتضينا الإنصاف أن نثبت لها جميعاً أنها قد نجحت - إلى حد ما - في مهمتها، وذلك على الرغم من الأخطاء التي عرضت لها في الطريق، ولكن هذه كلها هنات لا تذكر إلى جانب المهمة الضخمة التي نهضوا لها.. مهمة الاستقلال.

ولقد استغرقت تلك المهمة الضخمة كل نشاط الأحزاب السياسية - ومن حقها كانت ان تستغرقه - فلم يهيأ لها أن تمد ببصرها إلى أبعد من الغاية السياسية، حتى لقد أهملت في بعض الأحيان الالتفاف الى الجانب الاقتصادي في هذه المهمة السياسية، في وقت تصطرع فيه القوى الاقتصادية في العالم، وتؤثر تأثيراً حاسماً في كل اتجاه سياسي!.

وفي خلال هذه الفترة الطويلة، وهي تتجاوز ربع قرن جدت في العالم أمور وأمور، وتغيرت النزعات والاتجاهات، لا بل ولد عالم جديد.. ولكن أحزابنا

المصرية ـ فيما يبدو ـ لا تكاد تشعر بهذا كله. فهي في عام ١٩٤٥ لا تزال تحصر نشاطها الحزبي كله في دائرة الخصومات الحزبية، بل الشخصية، ولا تزال تنظر الى المجتمع المصري كأنه المجتمع المرغوب فيه، فإذا فكرت في الإصلاح فكرت فيه أجزاء وتفاريق على طريقة الترقيع والتحوير!.

ومما لا شك فيه أن هذه العقلية ليست هي التي تستطيع مواجهة العالم الجديد.

نحن في حاجة إلى:

١ ـ برامج جديدة.
٢ ـ وعقليات جديدة.
٣ ـ وأحزاب جديدة.

نحن في حاجة إلى برامج جديدة غير البرنامج السياسي الذي استغرق جميع جهودنا في ربع قرن من الزمان. برامج اجتماعية كاملة تؤثر في النشاط الاقتصادي والثقافي والتشريعي، وترسم له طريقاً واضحاً وهدفاً مقصوداً.

ولا يشك أحد في أن العدالة الاجتماعية مفقودة في مصر، وقد ترددت هذه الجملة كثيراً حتى أصبحت حقيقة بديهية، ومتى ثبت هذا فإن له مستلزمات: أولها أن توجد برامج حزبية معنية لتحقيق هذه العدالة، فإنه خير لمصر أن يقوم الصراع الاجتماعي فيها داخل البرلمان على يد الأحزاب ـ كما هو الحال في انجلترا ـ بدلا من أن يقوم هذا الصراع في الشارع بلا ضابط ولا نظام!.

والصراع داخل البرلمان قائم بالفعل ـ وإن لم يأخذ صبغة الصراع الحزبي ـ فالذي يراجع مضابط البرلمان في جميع العهود تبرز أمامه حقيقة معينة. فما من مرة عرض مشروع يمس رؤوس الأموال، أو ينصف بعض الطوائف الفقيرة، إلا وتغير التنظيم الحزبي السياسي أو انهار. ووقف ممثلو رؤوس الاموال من جميع الأحزاب جبهة واحدة ناسين خصوماتهم الحزبية، ووقف كذلك أنصار الطوائف الفقيرة جبهة واحدة.

فالنضال الاجتماعي موجود الآن ومنذ نشأة البرلمان المصري. فلماذا لا ننظمه في الصورة الحزبية المعروفة في برلمانات العالم الراقية، وهي الصورة المأمونة العواقب، التي تحيل هذا النضال أفكاراً وقوانين ومشروعات عملية، بدل أن يتحول حركات هدامة غير إنشائية؟.

ونحن في حاجة إلى عقليات جديدة تدرك المسألة على هذا الوجه، وتكون على استعداد لخلق برامج إنشائية كاملة وتنفيذها بالجرأة والحماسة الواجبتين في هذا الظرف الذي تولد به عوالم جديدة، وأنا شديد الشك في صلاحية عقليات الأحزاب الحاضرة ورجالاتها لمواجهة مثل هذه البرامج الكاملة، فقصارى ما يفكر فيه هؤلاء الرجال هو مشروعات جزئية لا تناسق فيها ولا انسجام، ولا تربطها وحدة تفكيرية معينة.

وثمة عقبة أخرى تحول بين الهيئات الحزبية الحاضرة والاتجاه الجديد، فهذه الهيئات أجهزة قديمة صدئة لا تستطيع أن تتحرك حرة من أثقال الماضي.. ومعظم رجالها في سن الكهولة والشيخوخة ومن العسير على الكهل أو الشيخ أن ينهج في تفكيره وفي حياته نهجاً جديداً، ويدع مألوفه في خمسين عاماً أو ستين. وقليل من أفذاذ الرجال هم الذين يحتفظون برصيد من قواهم لمواجهة التجديد الكامل. ومن هنا يخالجني الشك المطلق في صلاحية رجال الجيل الماضي لمواجهة مطالب الجيل الجديد.

خذ مثلا لذلك الديوان الحكومي ـ وهو أقل مؤنة من الاتجاه الاجتماعي ـ فالكل مجمعون على أنه جهاز بطيء الحركة، قليل الانتاج، فاسد النظام (باعتراف ديوان المحاسبة)، فهل بين رجال الجيل الماضي من يصلح للقضاء على النظام الديواني القائم كله، وإنشائه على أسس جديدة في دفعة واحدة؟.

كلهم يشفقون من هذه الخطوة الجريئة، ويخشون أن يقف دولاب العمل، وكلهم يميلون إلى سياسة الترقيع بدل سياسة الإنشاء، لأن رصيدهم من القوى العصبية لا يكفي لهذا الابتكار الكامل، ولا يصلح لمواجهة نظام مبتكر لم يألفوه

في الأربعين أو الثلاثين سنة التي عاشوها في ظل النظام الديواني العتيق!.

وهناك أمثلة كثيرة.. ولكننا لا نمضي في سردها لأنها ليست علة بذاتها، وإنما هي أعراض لعلة أصيلة، هي عدم وجود سياسة إنشائية مرسومة، قائمة على تحقيق العدالة الاجتماعية وتجديد المجتمع المصري تجديداً كاملا في شتى الاتجاهات.

وهذا التجديد الكامل في حاجة إلى عقلية لا ماضي لها! في حاجة إلى عقلية إنشائية مبتكرة، تنفر من أنصاف الحلول، وتشمئز من منظر الترقيع في الثوب البالي القديم!!.

ونحن - إذن - في حاجة إلى أحزاب جديدة ذات عقلية إنشائية تنظر إلى المجتمع المصري على أنه وحدة كاملة، وترسم لإنشائه وتجديده سياسة جريئة حازمة متناسقة، موحدة الروح في شتى الوزارات والدواوين والإدارات، وتتفاضل فيهما بينها بالبرامج الاجتماعية الشاملة التي تعالج بها المجتمع المصري المريض.

وإذا قلت البرامج الاجتماعية الشاملة، فإنما أعني الاقتصاد والثقافة والتشريع بوجه خاص.

فمن الناحية الاقتصادية نحن مجمعون على سوء توزيع الثروة العامة وعلى ضآلة الثروة القومية، أما الوسائل لمعالجة هذين النقصين فقابلة للاختلاف عليها بين الأحزاب.

والبرنامج الاجتماعي الذي يعالج هذه الظاهرة لا بد أن يكون ذا أثر في الاتجاهات الثقافية، فيحرص على إتاحة الفرص لكل فرد إتاحة حقيقية بريئة من التهريج الحزبي، ولن يتحقق هذا إلا بأن يجد كل راغب في التعليم الصالح له مكاناً في المدرسة المصرية لا يصده عنه عجزه عن النفقات التعليمية، ولا حاجة أهله اليه ليعمل في سبيل القوت قبل أن يتجاوز سن التعليم.

ولا يكفي أن يتاح له التعليم على هذا الوجه، بل لا بد أن يكون هذا التعليم موجهاً توجيهاً إجتماعياً معيناً يقرر مبدأ العدالة الاجتماعية في أذهان النشء، حتى يصبح إحدى العقائد التي تبثها المدرسة في نفوسهم بتعاليمها ونظمها وتوجيهاتها النظرية كذلك، وعندئذ يكون للتعليم المصري طابع ويكون للمدرسة هدف اجتماعي بجانب الهدف التعليمي الذي تسير اليه الآن على غير قصد ولا انتباه!.

والتشريع هو أحد الأدوات لتحقيق البرامج الاجتماعية الشاملة، فيجب أن يكون للتشريع عقلية موحدة ترمي إلى أهداف موحدة، وتتفق مع البرامج الاجتماعية بوجه عام.

والكلمة الآن للأحزاب المصرية القائمة، ولكنها في الأغلب لمجموعات الشباب التي لم تتقيد بماض ثقيل يشلها عن الحركة الحرة في الاتجاه والتنفيذ على السواء.

أما الأحزاب القائمة، فقد أدت دورها، ومن الواجب أن تنسحب من المسرح قبل فوات الأوان، ذلك إلا أن نستطيع التجدد والتحور لنواجه الحاضر والمستقبل، وهذا ما لا أحسبها تطيقه، وليس في تاريخها حتى اليوم ما يدل على أنها تراه.

لا يا معالي الوزير . .

لقد أخطأت التوفيق!

س ١٣/ ١٩٤٥ ع ٦٣١ ص ٨٣٩

في جلسة مجلس النواب التي نظرت فيها ميزانية وزارة الشئون الاجتماعية وقف النائب المحترم عبدالفتاح عزام ليقول:

«إننا في حاجة إلى حماية أخلاق أبنائنا وبناتنا مما تحمله إليهم الإذاعة في بيوتهم من عبارات جارحة من «يا حبيبي» و «يا روحي» ويجب أن نحذف اعتماد الإذاعة، ما لم تكف عن هذا الذي تذيعه ولا نستطيع حماية بيوتنا منه . . .».

ووقف معالي وزير الشئون الاجتماعية ليقول:

«إن في كلام حضرة النائب المحترم مبالغة، وإن هذا الذي يشكو منه له نظائرة في بلاد العالم المتمدن . .».

أما أنا فأكاد أجزم بأن معالي الوزير لا يستمع لكل ما تذيعه محطة الإذاعة، وإلا لكان رده على النائب المحترم غير هذا الرد. فما يستطيع إنسان سليم الفطرة أن يستمع لهذا الذي يذاع، ثم لا يدركه شعور الاشمئزاز، حتى ولو كان لا يقيم وزناً للأخلاق! .

وأحب قبل كل شيء أن أقرر أن الأخلاق التي أعنيها ليست هي الأخلاق التقليدية التي يتحدث باسمها بعض الجامدين والتقليديين، والتي لا تتعدى ظواهر السلوك، وشكليات التقاليد . . إنما أعني بالأخلاق ذلك الشعور الطبيعي السليم الذي ينفر من التخنث كما ينفر من الفحش. وهذا الشعور في أبسط

صوره هو الذي يخدشه ما تذيعه محطة الاذاعة المصرية في أغلب الأحيان.

والحب الإنساني الرفيع ليس عيباً، والتعبير عنه ليس عاراً.. ولكن الحب ـ كما يبدو في محطة الأذاعة ـ هو حب التخنث مرة، وحب التهتك مرة، وكلاهما ليس هو الحب الفطري السليم الذي يقوم بين الرجل والمرأة لتبنى عليه دعائم الحياة.

ولعل أشنع بدعة تكثر منها المحطة في الأيام الأخيرة خاصة، هي الإذاعة من الصالات والإذاعة من الأشرطة السينمائية، وهو تصرف غير مفهوم، ما لم يكن القصد هو ملاحقة الناس في بيوتهم بما يقال في أوساط وأماكن يعف كل إنسان مهذب عن الذهاب إليها، ويعف بصفة خاصة أن يسمح لبناته وأهل بيته بمشاهدتها.

وكلنا نعرف رواد الصالات، ونعرف ما يجري داخل هذه الصالات.. نعرف أن جماعة غير مهذبين يرتادون هذه الأماكن، وقد استعدوا للسهرة بالخمر كيما تنطلق في أجسادهم أقصى حيوانيتها، وكيما يستثير حيوانيتهم ما سيشاهدونه من اللحم الرخيص في هذه الصالات.. ثم هذا اللحم الرخيص يعرض في أضواء حمراء مهيجة على أوضاع لا يرضاها إلا «الرقيق الأبيض» الذي يقتات من هذه الموائد القذرة.. ثم يهيج السعار الحيواني.. يهيجه النور الأحمر، والرقص الخليع، والكلمات المكشوفة، والحركات الداعرة، والنبرات المتخلعة، ويهيجه السُّكْر المسرف، والدم المتنزي في أجسام جائعة.. فينطلق ذلك كله في جو معربد صاخب داعر تشمئز له الفطرة السليمة.

ثم تأتي محطة الإذاعة ـ الإذاعة الحكومية ـ فتنقل ذلك كله إلى البيوت الطاهرة.. إلى الزوجات الفاضلات، وإلى العذارى، ونحب أن نقول للمحطة: (إنه لا يزال هناك عذارى ولو قليلات..!) وإلى الصبية والأطفال والمراهقين، وإلى جميع أولئك الذين عفُّوا عن مشاهدة هذا الفحش الداعر في مكانه، فانتقل إليهم في بيوتهم، وتسور الجدران عليهم، لا لذنب جنوه إلا أنهم يقتنون جهازاً للاستقبال، وأن محطة الإذاعة الحكومية تريد لهم هذا الفحش

الذي يفرون منه، فيلاحقهم إلى البيوت!.

فأما الأشرطة السينمائية، فلا نستطيع الحديث عنها، فأصحابها يملكون من السلطة في الدوائر الرسمية ما يسمح لهم بأن يخرجوا لنا ألسنتهم إذا نحن حاولنا مقاومة الفساد النفسي والخلقي الذي يبثونه فيها، من ذلك الغزل المخنث يتطرى به رجل رقيع في أغانيه، أو ذلك الفحش الواطي تتخلع به امرأة هلوك في نبراتها.. ثم يدعون ذلك حباً..!.

وإنه لحب، ولكنه ليس حب الرجل السليم الفطرة للمرأة السليمة الطبع.. هو حب المخنثين والسواقط من الرجال والنساء. ذلك الحب الذي تعرفه المواخير ولا تعرفه البيوت، بل لا تعرفه الشوارع ذات الهواء الطلق، فما يتم حب في هذا الذي تعرضه الأفلام في الهواء الطلق.. إنما يتم في جو راكد حبيس يغشيه دخان النرجيله، وسرحان الأفيون في ماخور...

ومع هذا كله، فنحن لا نطمع في أن تراقب هذه الأشرطة قبل إخراجها، ليحذف منها ما يخدش الطبع السليم، حتى لا نصور الحب ـ وهو عامل البناء والخلق في هذه الحياة ـ تلك الصورة المريضة المتخاذلة الرخوة الرقيعة.

لا نطمع في هذا لأننا نعرف مدى نفوذ أصحاب هذه الأشرطة في الدوائر الرسمية! ولكننا نطمع على الأقل في أن لا تلوث وتخدش بالأغاني المائعة الهابطة الداعرة المخنثة، يتطرى بها رجل رقيع، أو تتخلع بها امرأة هلوك.. وذلك أبسط مظاهر الحماية لمن يعفّون عن مشاهدة هذه الأفلام واستماع هذه الأغاني، فإذا بها تتسور عليهم الجدران خليعة ماجنة مخنثة، في حين لا يملكون لأنفسهم منها حماية، لأنهم إن أغلقوا جهازهم الخاص حملتها إليهم أجهزة الجيران!!.

وكل ما يحتج به مروجو هذا «الأفيون» الخطر الذي يقتل في الشعب كل شعور فطري سليم، ويحيله جماعة من مخنثي الشبان، ومبتذلات الفتيات، وداعرات النساء.. كل ما يحتج به تجار هذه «المخدرات» أن الشعب يقبل

عليها، فهي إذن تلبي رغباته الحقيقية.

الشعب يقبل عليها.. هذا صحيح، لأن الحيوان الهائج كامن في كل إنسان، فإذا نحن ظللنا دائماً نهيج سعار هذا الحيوان، ولم نحاول مرة أن نرتفع به إلى مستوى الآدمين، فلا بد أن يأتي اليوم الذي لا يبدو فيه إلا هذا السعار.

والناس يقبلون على «الأفيون» وسائر المخدرات، ولكن السلطات تكافح الأفيون وسائر المخدرات.. ذلك أن هناك رجلا إنسانياً في حكمدارية القاهرة قد آمن بفكرة المكافحة وأضحت جزءاً من دمه ـ (وهو أجنبي، وأنا لا أستريح لبقاء الأجانب في وظائفنا الكبرى.. ولكن الحق حق)!.

فهل يتاح لمصر من أبنائها رجل يؤمن بخطر مثل هذه الأفلام والأغاني التي تأكل نفوس الشعب أكلا، وتفسد فطرته الإنسانية، بل تفسد فطرته الحيوانية، حين تصور له الحب في ذلك المظهر المترهل الذميم؟.

هل يتاح لمصر ذلك الرجل الذي لا تخدعه كلمات (العالم المتمدين) عن الشعور الفطري السليم، والذي يرصد لمكافحة هذا «الأفيون» الخطر جهده وقواه؟.

على أية حال هذه أمنية لا نخدع أنفسنا بتحقيقها، ولكننا نقنع فقط بأن نطلب لأنفسنا الحماية من محطة الإذاعة الحكومية على النحو الذي اقترحه النائب المحترم، أو على نحو سواه وهذا الذي نطلبه هو أضعف الإيمان!.

أيها العرب . .
استيقظوا واحذروا
س ١٣/ ١٩٤٥ ع ٦٤٧ ص ١٢٨١

إن قضية فلسطين تتأخر ولا تتقدم! .

ويسوءني أن أكون نذير سوء؛ ولكن لأن نواجه الحقائق الواقعة، خير من أن نستنيم للأحلام . .

حينما صدر الكتاب الأبيض الإنجليزي أعلن كل عربي مخلص أنه لا يرضى عن هذا الكتاب، وأنه صدمة لآمال العرب بما تضمنه من استمرار الهجرة الصهيونية فترة أخرى، وإن تكن موقوتة، تصبح بعدها الهجرة مرهونة بمشيئة العرب، إن شاءوا أمضوها، وإن شاءوا لم يسمحوا من بعد بها.

واليوم يتمسك العرب بسياسة الكتاب الأبيض، ويدعون انجلترا للمحافظة عليه، وهم يرون في تصريح «بيفن» الأخير نقضاً لها، واستمراراً في الهجرة إلى غير موعد! .

إذن قضية العرب في فلسطين تتأخر ولا تتقدم! .

تتأخر، فيصبح الكتاب الأبيض الذي كان بالأمس موضع شكوى العرب، هو موضع رجائهم. وينقلب الحد الأدنى ـ أو ما هو دونه ـ حداً لآمال العرب أو الناطقين باسمهم في هذه الأيام.

ألا إنها المحنة التي يجب أن تتفتح عليها الأبصار! .

فلننظر فيم كان هذا الانقلاب؟ .

صدر الكتاب الأبيض بالأمس ترضية للعرب الثائرين الساخطين، فرفضوه واستصغروه. فلما سرى البرد إلى دمائهم الفائرة، ودب الخدر إلى أعصابهم الثائرة، رضوا عن الكتاب الأبيض، ووقفوا ينتظرون. .

وألغى الكتاب الأبيض اليوم ترضية للصهيونيين الثائرين المعتدين، وهم يرفضون إلغاءه ويستصغرون اقتراحات «بيفن» الأخيرة، لأن العرب لا يزالون في خدر لذيذ يستنيمون إليه. . ذلك أنهم يثقون بالضمير البريطاني!!.

ومن هنا نستطيع أن نعرف: متى يسترضينا الإنجليز، ومتى يسترضون الصهيونيين؟!.

فلننظر إلام تؤدي اقتراحات «بيفن» الاخيرة؟.

ستفتح أبواب الهجرة الصهيونية بعد إغلاقها، وستؤلف لجنة تحقيق ـ لم تؤلف بعد ـ لتنظر في قضية فلسطين وقضية اليهود عامة. وما دامت هذه اللجنة لم تنته من تحقيقاتها الواسعة المدى فسيظل سيل الهجرة يتدفق على فلسطين!.

أهي سنة؟ أم سنتان؟ أم خمس سنوات؟ أم هي التعلة الدائمة لاستمرار الهجرة إلى غير ميعاد؟ فإن ضجر العرب يومذاك أو تبرموا كانوا قوماً عجلين، لا يريدون أن تعمل اللجنة في جو هادىء، ولا يمكنون للحقائق في الظهور!.

ثم يوجد من العرب من يرى في مثل هذه الاقتراحات أساساً صالحاً لقضية فلسطين.

ألا إنها المحنة التي يجب أن تتفتح عليها الأبصار!.

للانجليز أن يهللوا لاقتـراحـات «بيفن» الأخيرة. فهي انتصـار للسياسية الانجليزية التقليدية. . انتصار لها من شتى الوجوه:

١ ـ الانتصار الأول جر أمريكا لاحتمال التبعات في فلسطين دون أن يكون لها شيء من المغانم! وتصوير هذا بأنه استماع لصوت أمريكا في حل القضية المعقدة التي استطاع الصهيونيون الأثرياء أن يحركوا لها «ترومان» وسواه.

فإذا انتهوا إلى حل فلن تستطيع امريكا رفضه وهي الشريكة فيه!.

٢ ـ والانتصار الثاني تثبيت صفة الانتداب الانجليزي على فلسطين باسم جديد هو «الوصاية» باعتراف من الولايات المتحدة في هذه المرة. فلقد كان الانتداب من «عصبة الأمم» التي اعتزلتها الولايات المتحدة وكان المرجو هو استقلال فلسطين!.

٣ ـ والانتصار الثالث هو «التأجيل» طابع السياسة الإنجليزية الأصيل. فالتأجيل وترك العقدة للزمن يحلها الحل المناسب هو الطابع الدائم للسياسة الإنجليزية، وبخاصة مع الأمم الصغيرة الثائرة لحقوقها المهضومة، ـ والزمن دائماً في صف الأقوياء لا الضعفاء ـ وهذه الاقتراحات الأخيرة تضمن للسياسة التقليدية أقصى مدى، لأنها في أيدي لجنة تحقيق لا يجوز أن يستعجلها أحد عن استجلاء الحقائق! وإلا كان متعنتاً لا يريد للحقائق الظهور!.

٤ ـ والانتصار الرابع هو التوفيق بين سياسة الأحزاب الانجليزية كلها في علاج قضية خارجية. والانجليز يبتهجون لمثل هذا التوفيق لأنهم جميعاً إنجليز!.

للانجليز أن يهللوا لهذه التصريحات الأخيرة في صحفهم عامة، ولكن ليس للعرب أن يخدعوا بهذا التهليل، لأن لهم في القضية موقفاً آخر يستدعي التفكير المستقل عند النظر في الأمور. وقضية فلسطين قضية عادلة لا يضيرنا فيها التحقيق؛ ولكن متى كانت عدالة القضايا الوطنية كافية لتقرير الحق في الأمور؟.

والآن.. ما هو طريقنا المأمون؟!.

طريقنا ألا نثق بضمير أحد، فما لأحد في العالم الغربي ضمير! لقد برهنت هذه الحضارة الغربية على إفلاس في الضمير لا عهد للعالم به في جميع الحضارات السابقة.

وقبل أن نثق بالضمير الأوروبي أو الأمريكي، يجب أن نتذكر لفرنسا حوادث

سوريا ولبنان ـ وهي قريبة لم تغب عن العيان ـ ويجب ان نذكر لانجلترا يوم ٤ فبراير الشنيع؛ ثم موقفها في أندونسيا ونصرته للصهيونيين!.

طريقنا ألا نثق بضمير أحد، وألا نستنيم لدعوة مّا من دعوات الثقة بهذا الضمير.

وطريقنا ألا نستنيم لمخدرات التأجيل إلا إذا وقفت الهجرة وقفاً تاماً حتى يتم التحقيق. فلقد رأينا أن الزمن ليس في صالحنا. وإذا شاء أحد أن يستنيم فليتذكر متى صدر الكتاب الأبيض بوقف الهجرة الصهيونية في موعد محدد، ولماذا صدر هذا الكتاب. ثم ليتذكر متى ألغي الكتاب الأبيض وأبيحت الهجرة من جديد. ولماذا كان هذا الانقلاب؟.

صدر الكتاب الأبيض ترضية للعرب الساخطين الثائرين، وصدر تصريح بيفن الأخير ترضية لليهود المعتدين الإرهابيين!.

وطريقنا أن يرد زعماء الأمة العربية ما بأيديهم من السلطة إلى هذه الأمة نفسها لترى رأيها في الموقف الجديد، فهي صاحبة الأمر قبل الزعماء أجمعين.

ولأطلقها صيحة صريحة قاسية:

أيتها الأمة العربية: احذري حتى رجال السياسة من أبنائك. لا لأنهم قد يخونونك أو يخدعونك، ولكن لأنهم هم قد يخانون ويخدعون! ولأن كراسي الحكم قد تكون في بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنيم له الأعصاب الثائرة وتخدر فيه الدماء الفائرة!.

أيتها الأمة العربية: خذي الأمر في يديك من جديد، فإني أرى الموقف يستدعي جهود الشعوب نفسها لا جهود الزعماء منفردين.

وما يخدعك أيتها الأمة ـ في كل قضاياك الوطنية لا في قضية فلسطين وحدها ـ إلا مخدوع يقصيك عن الأمر ويستنيم للوعود!!.

أين أنت يا مصطفى كامل؟!

ترد عار ٤ فبراير بمثل ما رددت عار دنشواي

س ١٣/ ١٩٤٥ ع ٦٤٨ ص ١٣٠٩

«إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قدد دعى لتأليف وزارة. فإن الملك فاروق يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث».

«لورد كيلرن ٤ فبراير سنة ١٩٤٢»

هذه المجلة ليست مجلة حزب من الأحزاب، إنما هي مجلة المثقفين من المصريين خاصة ومن العرب عامة؛ فهي بهذا ترتفع على الأحزاب، وتتوجه بجهودها إلى معنى أخلد وأسمى.

وهذا القلم ليس حزب من الأحزاب، فقد بات صاحبه لا يرى في الأحزاب إلا أقزاماً بعد ما خلا الميدان من كل جبار، فهو بهذا يتوجه إلى وجه مصر الخالد وهي أخلد وأسمى.

لقد أميط اللثام منذ أسبوعين عن أشنع مأساة لقيتها مصر في تاريخها القديم والحديث، المأساة التي داست كرامة كل فرد، ومست شرف كل مواطن. وأذلت كبرياء كل كريم، ومرّغت في الوحل تاريخ المصريين..

المأساة التي كشفت الستار عن الضمير البريطاني، فإذا هو ضمير لا يصح الارتكان إليه، ولا تجوز الثقة به، ولا يؤمن التعاقد معه، لأن الأقوياء يستطيعون في لحظة واحدة أن ينقضوا كل ما أبرموا، وذلك الضمير هادىء مستريح!.

ولا أحب أن أسترسل في التنديد بهذه المأساة، فسرد حوادثها وحده يكفي، وهو أشنع وأدمى من كل تعليق.

وها هو ذا نقلا عن «أخبار اليوم»:

«في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، إعتدى الإنجليز على إستقلال مصر أشنع إعتداء، فأحاطت الدبابات الانجليزية بقصر عابدين وصوبت إليه مدافعها، وحوصر قصر الملك فاروق بألوف الجنود البريطانيين وهم في ملابس الميدان... وتقدمت دبابة انجليزية فحطمت الباب الملكي ودخلت حرم القصر... ودخلت وراءها سيارة تحمل اللورد كيلرن السفير البريطاني، والجنرال ستون قائد القوات البريطانية في مصر».

حدث كل هذا في الساعة التاسعة مساء في الظلام الدامس لأن الجرائم عادة لا ترتكب إلا في الظلام».

«ووقفت سيارة السفير البريطاني أمام الباب الملكي، ونزل منها السفير وقائد القوات البريطانية يتقدمهما ثمانية ضباط يحملون المسدسات في أيديهم».

«وتقدم رجل التشريفات يسألهم: إلى أين هم ذاهبون؟.. فدفعه السفير البريطاني بيده وقال له:
ـ أنا أعرف طريقي!».

«وفي هذا الوقت هجم الجنود البريطانيون على حراس قصر عابدين فجردوهم من السلاح، وحاصروا القشلاق الملكي، وأراد أحد الحراس أن يقاوم القوة بالقوة، فتكاثر حوله الجنود الإنجليز وأصيب بكسر في يده أثناء المقاومة».

«وفي هذا الوقت نفسه كان الجنود الإنجليز قد حاصروا جميع ثكنات الجيش المصري، وصوبوا إليها المدافع، واستعدت الطائرات البريطانية لنسف جميع ثكنات الجيش المصري إذا هو قاوم»!.

«وحاصر الجنود الإنجليز كذلك مراكز البوليس.. وقطعوا جميع الأسلاك التليفونية الموصلة إلى القصر الملكي!! وحاصروا أيضاً محطة الإذاعة!».

«كل هذا لكي لا يعرف الشعب ماذا يجري في قصر ملكه!».

هذا هو الوصف المادي المحسوس للمأساة. يفور له الدم في العروق، وتهتاج له الأعصاب في الأجسام، وينبض له كل قلب بالنقمة والغضب والحماس...

فكيف تلقته الصحافة الحزبية في مصر الممثلة للأحزاب المصرية في عصر الأقزام؟ راحت الصحافة الوزارية تتهم النحاس باشا بالخيانة الوطنية، دون أن تمس السادة الإنجليز إلا في حذر ومن وراء ستار!.

وراحت الصحف النحاسية تتهم الوزاريين بالتلفيق والتزوير، وتنتحل للسادة الإنجليز كل عذر في موقفهم هذا الغشوم. فهم قوم في حرب حياة أو موت، وهم يريدون الاطمئنان إلى أنهم لن يطعنوا في ظهورهم، وهم قوم محرجون، معذورون فيما صنعوا، مبرأون فيما يصنعون!.

واسوأتاه!

أين أنت يا مصطفى كامل؟!.

أين أنت لتعلم هؤلاء وهؤلاء كيف يردون العار الذي لطخ جبين الوطن في يوم ٤ فبراير؛ كما رددت الظلم الذي حاق بمصر في يوم دنشواي؟!.

لقد يكون مفهوماً بعض الشيء أن تقف الصحف النحاسية هذا الموقف من الحلفاء الذين أرسلوا للملك بهذا الإنذار. أما غير المفهوم، فهو موقف الصحافة الوزارية على العموم!.

إنهم يحرصون فيما يقال على صفاء الجو بيننا وبين السادة الانجليز ونحن على أبواب المفاوضات أو المحادثات!.

أية مفاوضات وأية محادثات، ما دام هؤلاء السادة يملكون في كل يوم وي كل وقت أن يرسل «سفيرهم» - لا معتمدهم ولا مندوبهم السامي - بإنذار إلى «الملك» يقول فيه: «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساء أن هيّان ابن بيّان قد دعى لتأليف وزارة فإن الملك يجب أن يتحمل تبعة ما يحدث» ثم يحضر

بعد ساعات بدباباته فيحطم باب الملك كما حطمه في يوم ٤ فبراير لتنفيذ هذا الانذار. ثم يجد من «هيّان ابن بيان» كل قبول؟!.

وبعد هذا كله، وبعد أن تنشر أخبار المأساة يبقى السفير البريطاني سفيراً في بلاط هذا الملك الذي حطم باب قصره بالدبابات؟!.

إن المعتمد الانجليزي لم يبق بعد حادثة دنشواي في مصر، وهي أهون ألف مرة من حادث ٤ فبراير. وهذا هو الفرق الحاسم بين الأمس واليوم. والمعتمد الانجليزي إذ ذاك هو لورد كرومر أحد بناة الامبراطورية كما يصفه تاريخ الاستعمار الغشوم.

واسوأتاه

أين أنت يامصطفى كامل؟

أين أنت لتعلم زعماء اليوم كيف يردون العار الذي لطخ جبين الوطن في يوم ٤ فبراير، كما رددت الظلم الذي حاق بمصر في يوم دنشواي؟.

لقد كان مصطفى كامل طليق اليد واللسان لأن أبهة الحكم لم تكن تداعب خياله، ولأن ألجمة الحكم لم تكن تلجم بيانه. ولأنه لم يكن يؤمن بضمير أحد ولا يثق إلا بمصر الخالدة على الأزمان.

أما اليوم فنحن نثق بالضمير البريطاني فنعاهده، ونؤمن بالشرف البريطاني فنركن إليه!.

أيها المصريون... أيها العرب أجمعين...

إن مأساة ٤ فبراير هي مأساة الضمير البريطاني. ومأساة الثقة العمياء بهذا الضمير.

أيها المصريون... أيها العرب أجمعين.. إن مأساة ٤ فبراير يجب أن تنقش بحروف من نار لتبقى في قلوب الأبناء والأحفاد تذكرهم بمأساة الضمير البريطاني، ومأساة الثقة العمياء في هذا الضمير.

وهذا ما يجب أن تكتبه الصحف عامة ولو أغضبت جميع الأحزاب في عصر الأقزام!!.

هؤلاء الفرنسيون . . .

س ١٤/ ١٩٤٦ ع ٦٥٧ ص ١٢١

في الوقت الذي تنال فيه قضية سوريا ولبنان عطفنا وعطف الجامعة العربية، وتتمتع بالاهتمام الذي تستحقه من كل عربي، توجد قضية أخرى لا تتمتع بهذا الاهتمام بالدرجة الكافية. . . تلك هي قضية الشمال الإفريقي ـ الجزائر وتونس ومراكش ـ الذي ترتكب فيه الدولة الفرنسية أشنع مأساة يخجل منها المتحضرون.

والواقع أن أشنع ما ارتكبه الفرنسيون في سوريا ولبنان، لا يعد شيئاً بالقياس الى ما يرتكبونه في الشمال الإفريقي إلى هذه اللحظة. فلم تزد شناعاتهم في سوريا ولبنان على فعلة حمقاء ـ جريا على طبيعتهم في تاريخهم الطويل ـ ولم تزد على مؤامرة خسيسة دبروها لاغتيال أعضاء الوزارة السورية وأعضاء البرلمان في أثناء اجتماعهم؛ هذه المؤامرة التي فشلت لوقوع بيانات سرية في أيدي الحكومة السورية قبل تنفيذ المؤامرة الخسيسة! ثم ضرب دمشق بالقنابل مرتين في خلال عشرين عاماً. . !.

وهذه كلها بالقياس إلى ما يرتكب في الجزائر ومراكش خاصة لا تعد شيئاً. وقد هزت شعورنا تلك الحوادث التي ارتكبت في البلدين الشقيقين، فمن حق ما يقع في الشمال الإفريقي أن يثير نفوسنا وأن يدفعنا إلى التدخل الحاسم.

وأنا لا أتوجه بهذا الكلام إلى الجامعة العربية وحدها، ولا إلى رجال السياسة في البلاد العربية كذلك؛ إنما أتوجه الى ضمير الشعوب العربية جميعاً. فأنا على ضعف ثقتي برجال السياسة في هذا الجيل لا أزال شديد الثقة في

الجماهير، وفي ضمير هذه الجماهير؛ وهو وحده الضمان لتقوية الجامعة العربية ودعمها، ولدفع رجال السياسة مهما اعتور نفوسهم من الضعف والتردد.

فإلى هذاالضمير الشعبي العام أتوجه بالحديث.

ولكي لا أتهم بالتحامل فإني أعرض على قراء العربية صورة لتصرف الفرنسيين في الجزائر ليست من صنعي ولا من صنع كاتب عربي، إنما هي من رسم رجل فرنسي شذ فكان له ضمير! ولعله هو أيضاً ضمير مدخول، فهو يكشف لأبناء وطنه عن شناعة الحكم الفرنسي في الجزائر خشية أن يؤدي بهم هذا إلى فقدان الجزائر. فليس شعوراً إنسانياً هو الذي يدفعه إلى بسط سوء الحالة فيها، إنما هو روح إستعماري بصير، هدأت فيه الحماقة التي هي طابع السياسة الفرنسية التقليدي في التاريخ!.

هذا الكاتب هو المسيو «جان ميليا» من كبار الديبلوماسيين الفرنسيين، وقد ضمن مْلاحظاته هذه كتابا باللغة الفرنسية نستعرض هنا مقتطفات منه نقلها إلى العربية الأستاذ «محمد عبدالكريم» ونشرتها مجلة «الشرق الجديد».

«ضرب المؤلف الفرنسي مثلا مما يسميه مواطنوه الفرنسيون قانوناً بالجزائر. بذلك القانون العجيب المسمى قانون الغابات».

«فالمستعمر الفرنسي يُمنح الأرض ليستغلها، وهو يُعطى ما يختاره بسخاء بدون مقابل. وقد حدث مرة أن احترقت غابة يستغلها فرنسي، وحامت الشبهة حول الوطنيين، فكان أن عمدت الحكومة إلى اصدار قانون ينص على أنه في حالة احتراق أي غابة يملكها فرنسي، فإن العرب المقيمن في أقرب منطقة مجاورة للغابة يلزمون بدفع تعويض للمستعمر الفرنسي صاحب الغابة حسب ما يقرره حاكم المدينة».

«ويردف الكاتب الفرنسي ذلك بقوله: ومن يوم أن صدر هذا القانون أصبح شائعاً في أوساط المستعمرين الفرنسيين أن من يصاب في مشروعه بالفشل أو من يسوقه الحنين للعودة إلى بلاده فما عليه إلا أن يعمد إلى غابته يحرقها، ويبلغ

الحاكم ليشهد في اليوم التالي إبلا وغنما وحميرا وخياما واقوات اهل القريه المجاورة تباع كلها في السوق قسراً، ليعطى ثمنها تعويضاً لذلك الفرنسي عن ضرر أحدثه هو بيده!».

هذا ما قاله الكاتب الفرنسي، أما الذي لم يقله في هذا الصدد فهو أن المساحات الشاسعة من الحقول والبساتين تنزع ملكيتها من أيدي ملاكها العرب لتعطى إلى المستعمرين الفرنسيين حيث يطرد هؤلاء الملاك إلى البقاع الممحلة، حتى إذا راحوا يفلحونها بالجهد الشديد ويصلحون تربتها بسواعدهم وكواهلهم والبقية الباقية من أموالهم إلى أن تصبح صالحة للزراعة.. عاد الفصل السابق يمثل معهم من جديد فيطردون منها لتعطى للمستعمرين من جديد!.

ثم يقول المؤلف الفرنسي:
«إن حق المواطن في الجزائر يمنحه كل يهودي دون استثناء ولا يجوز منحه للمسلمين إلا لعدد قليل ممن يرى الحاكم الفرنسي منحه لهم: ولم ينتفع بهذا الحق حتى الآن من المسلمين أكثر من ألف وخمسمائة».

«وحرمان رجل أولى حقوقه العامة كمواطن لا لجرم سوى أنه مسلم هو أعجوبة الأعاجيب في الأوضاع الدستورية، حتى أن «بارتلمي» أستاذ القانون الدستوري بجامعة باريس لم يستطع كتمان تعجبه، فهو يسائل مواطنيه في مناقشته حق الانتخاب بكتابه الذي يدرس بالجامعات الفرنسية: إنا لنعجب للتفرقة بين مواطنين من بلد واحد! كيف يمنح حق المواطن لأحدهما ولو كان من الرعاع لأنه يهودي. ويحرمه الآخر ولو كان مؤهلا بالدكتوراه وحاملا لوسام جوقة الشرف. لا لذنب إلا لأنه مسلم!».

وينقل الكاتب الفرنسي في كتابه شهادة كاتب فرنسي آخر هو «بليسيه دي رينو» حيث يرجع رينو «عدم تحقق الألفة بين الوطني والفرنسي إلى ما يكنه ويبديه الفرنسي للجزائري من مهانة واحتقار. فالمستعمر الفرنسي بل الحكام الفرنسيون يهبطون إلى أرض الجزائر مشبعين بفكرة وعقيدة لا تتزعزع، هي أنهم بين أعداء. وهم لهذا لا يبدون نحو العرب أي عطف أو حسن معاملة».

وينقـل كذلك شهادة كاتب فرنسي ثالث هو «جوليوفيري» «إن المستعمر يستبد بالوطني أي استبداد، وهو يستشعر العسف لا في أقواله فحسب، بل في سلوكه الذي لا يرعى فيه للعرب حقاً ولا كرامة».

هذا ما قاله المؤلف الفرنسي وما نقله عن غيره. أما ما لم يقله، فهو أن كلمة «عربي» هي من ألفاظ الشتائم والتحقير في الاصطلاح الفرنسي، فإذا شاء أن يشتم إنساناً أو يحقره نبزه بلفظ «عربي»!.

وهذه حقيقة معروفة أضعها تحت أنظار العرب لينظروا في رد هذه الإهانة عن أنفسهم باحتقار كل ما هو فرنسي ـ مهما اشتدت حاجتهم إليه ـ واحتقار كل من يخدع بفرنسا أو ينتمي إليها، أو يرفع رأسه ليعجب بهؤلاء الذين يدعون أنفسهم متحضرين.

أما الفرنسيون في مراكش فهم الفرنسيون في الجزائر ـ وفي كل مكان على ظهر هذه الأض يبلى باستعمارهم الوحشي.

بين يدي نشرة صغيرة وزعتها «رابطة الدفاع عن مراكش» في ١١ يناير سنة ١٩٤٤. وقـد جاء فيهـا بأسلوب معتـدل كل الاعتدال تحت عنوان «السياسة الفرنسية في مراكش» ما يأتي:

«هناك مبدأ شعاره السيف والمحراث، وهو مبدأ قديم ابتدع شعاره الكونت ديسلي منـذ أوائـل القـرن التـاسـع عشـر، والسيف رمز لقهر أصحاب البلاد وإرهابهم؛ والمحراث رمز لاستغلال كل الخيرات التي تشتمل عليها تلك البلاد، وإذا أردنا أن نقلب العبارة من الرمزية الى الصراحة قلنا: الإستغلال والقوة!».

«ومراكش اليوم مستغلة بالقوة بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى. وفرنسا حجر عثرة في سبيل رخائها وتقدمها بأكثر مما في هذه العبارة من معنى. ومبدأ العرقلة يتمثل في كبت الحريات، وعدم التشجيع على التعليم، وعدم السماح بوجود صحافة حرة أو جمعيات حرة، وغير ذلك من الحقوق البسيطة التي تتمتع بها أحط المستعمرات في العالم. فالمثقف غريب في مراكش لا عمل له ولا

مستقبل. بينما يتقلب الجهال في الوظائف العليا؛ وبذلك يساعدون على بث الانحلال في أداة الحكومة الوطنية. وسلطة الحماية تعرقل أيضاً كل ما من شأنه أن يغير أسلوب الحياة الإجتماعي. وهي لا تسمح للصحف العربية بالدخول الى البلاد ولا تسمح للطبقة المثقفة بإصدار الصحف لتنوير عقول الناس. وهي تعرقل قيام المؤسسات الوطنية الإقتصادية. وهكذا لا توجد وسيلة لعرقلة التقدم في مراكش إلا تفنن هؤلاء الموظفون في تنفيذها.

«أما سياسة السيف والمحراث أو الإستغلال بالقوة فهي تتمثل في نزع ملكية الأرض من الأهالي وتوزيعها على المستعمرين الفرنسيين؛ وفي تأسيس الشركات الإحتكارية التي تستحوذ على الصادرات والواردات؛ وتهيمن على السوق؛ وفي استغلال المناجم استغلالا لا تعرف عنه مراكش شيئاً؛ وفي تسخير الأيدي العاملة بأجور زهيدة؛ وفي إشعار رجل الشارع بأنه دون الفرنسي؛ وفي فرض الضرائب الفادحة حتى أصبح المراكشي يدفع من الضرائب ما لا يدفعه أي شخص في العالم؛ وفي استغلال المياه الإقليمية والأنهار والغابات والمزارع وآبار البترول وكل الخيرات التي توجد في هذه البلاد. وقد تمت سياسة الإستغلال هذه بشكل أصبح يهدد كيان البلاد الإقتصادي بالإفلاس».

هذا ما قالته مذكرة رابطة الدفاع عن مراكش. أما ما لم تقله ـ ولديّ عنه أخبار وثيقة ـ فهو الوحشية البربرية المتبعة في نفي الزعماء السياسيين وتعذيبهم واختيار أماكن إعتقالهم، حتى أصبح معظمهم مريضاً بالسل. وهي وحشية مقصودة لتخويف الآخرين!.

وليس لأحد أن يشك في صحة هذه البيانات المراكشية، فهناك ما يؤيدها في الجزائر بشهادة الكتاب الفرنسيين أنفسهم. فهي إذن سياسة واحدة تدل على هذه العقلية البربرية التي تعيش بها فرنسا في القرن العشرين في ساحات شاسعة تستحق الإهتمام.

ومما يدل على الظلم والجحود أن هؤلاء الجزائريين والمراكشيين هم الذين نصروا فرنسا في حربين متواليتين؛ فكل الشجاعة التي يتشدق بها الفرنسيون في

معركتين كبيرتين في هذه الحرب والحرب الماضية ـ وهما معركة بئر حكيم ومعركة المارن ـ كان أبطالها هم الجزائريين والمراكشيين. أما الجندي الفرنسي ـ الذي يشيع المغرضون عنه خرافة الشجاعة ـ فقد تحطم وانهارت قواه وهو يدافع عن بلاده في الحربين على السواء.

معركة المارن كسبها «الفيلق الإفريقي» وكانت نقطة التحول في الحرب العظمى. ومعركة بئر حكيم ثبت فيها الجزائريون واللبنانيون. ومعركة الصحراء الغربية كسبها جنود مستعمرة تشاد وإفريقية الإستوائية. أما الجندي الفرنسي فقد انهارت قواه أو استأسر استئسار الجبان في كل مكان!.

ثم تكون المكافأة التي يوحي بها الجحود لهؤلاء الذين نصروا فرنسا مرتين في ربع قرن هي هذه المعاملة القاسية!.

ولكن مما يعزي الشرق العربي أن فرنسا قد انتهت ـ على الرغم من كل تشبث لها بالبقاء ـ أنتهت، ومن واجب الشرق العربي أن يدق المسامير في نعشها.

وآية انتهائها هو هذا الجمود في سياستها وعقليتها الاستعمارية، بينما الآخرون يحاولون التجديد، ولو في الألفاظ والأساليب.

ففرنسا قد استحالت أمة جامدة متمسكة بكل وضع قائم تمسك الغريق. كانت هي الأمة الجامدة المحافظة في إلغاء الامتيازات بمصر بمؤتمر مونتريه. وكان هذا موقفها مع سورية ولبنان، فلم تبرم معهما المعاهدة التي اتفقا عليها، وكانت النتيجة أن فقدت نفوذها كله. وبالمثل كان موقفها في هيئة الأمم المتحدة وهي تتمسك بالاستعمار والانتداب ولا تقبل كلمة «الوصاية» كما قبلتها انجلترا الماكرة المرنة اللعوب!.

هو التحجر. وهو آية الفناء. فليعمل كل عربي مخلص على الإسراع بهذه النهاية السعيدة. وليكن اهتمامنا بالشمال الإفريقي العربي ضربة حاسمة في دق المسمار الأخير.

اللغة الوحيدة

التي يفهمها الانجليز

س ١٤/ ١٩٤٦ ع ٥٦٩ ص ١٨٤

كتبت في «الرسالة» بتاريخ ٢٦ نوفمبر الماضي كلمة تحت عنوان: «أيها العرب: استيقظوا واحذروا». واليوم وبعد أن قررت الحكومة الانجليزية إباحة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، على رغم أنف العرب، وأنف الكتاب الأبيض الإنجليزي أيضاً. اليوم يهمني أن أعيد نشر الفقرات الأولى من هذا المقال، قبل التعليق على هذا القرار الأخير:

«إن قضية فلسطين تتأخر ولا تتقدم!».

«ويسوءني أن أكون نذير سوء؛ ولكن لأن نواجه الحقائق الواقعة، خير من أن نستنيم للأحلام..»

«حينما صدر الكتاب الأبيض الإنجليزي أعلن كل عربي مخلص أنه لا يرضى عن هذا الكتاب، وأنه صدمة لآمال العرب بما تضمنه من استمرار الهجرة الصهيونية فترة أخرى - وإن تكن موقوتة - تصبح الهجرة بعدها مرهونة بمشيئة العرب، إن شاءوا أمضوها، وإن شاءوا لم يسمحوا من بعد بها».

«واليوم يتمسك العرب بسياسة الكتاب الأبيض، ويدعون انجلترا للمحافظة عليها».

«إذن قضية العرب في فلسطين تتأخر ولا تتقدم!.»

«تتأخر، فيصبح الكتاب الأبيض الذي كان بالأمس موضع شكوى العرب.

هو موضع رجاتهم. وينقلب الحد الادنى ـ او ما هو دونه ـ حدا لامال العرب أو الناطقين باسمهم في هذه الأيام».

«ألا إنها المحنة التي يجب أن تتفتح عليها الأبصار!».

«فلننظر فيم كان هذا الانقلاب؟».

«صدر الكتاب الأبيض بالأمس ترضية للعرب الثائرين الساخطين، فرفضوه واستصغروه. فلما سرى البرد إلى دمائهم الفائرة، ودب الخدر إلى أعصابهم الثائرة، رضوا عن الكتاب الأبيض، ووقفوا ينتظرون..»

«وألغي الكتاب الأبيض اليوم ترضية للصهيونيين الثائرين المعتدين، وهم يرفضون إلغاءه ويستصغرون اقتراحات «بيفن» الأخيرة، لأن العرب لا يزالون في خدر لذيذ يستنيمون إليه.. ذلك أنهم يثقون بالضمير البريطاني!!».

«ومن هنا نستطيع أن نعرف: متى يسترضينا الإنجليز. ومتى يسترضون الصهيونيين؟!» ثم قلت في نهاية ذلك المقال:.

«والآن.. ما هو طريقنا المأمون؟!».

«طريقنا ألا نثق بضمير أحد، فما لأحد في العالم الغربي ضمير! لقد برهنت هذه الحضارة الغربية على إفلاس في الضمير لا عهد للعالم به في جميع الحضارات السابقة».

«وقبل أن نثق بالضمير الأوروبي أو الأمريكي، يجب أن نتذكر لفرنسا حوادث سوريا ولبنان ـ وهي قريبة لم تغب عن العيان ـ ويجب أن نذكر لانجلترا يوم ٤ فبراير الشنيع؛ ثم موقفها في أندونسيا ـ وهو حاضر الآن ـ ونصرته للصهيونيين!».

«وطريقنا ألا نستنيم لمخدرات التأجيل إلا إذا وقفت الهجرة وقفاً تاماً حتى يتم التحقيق. فلقد رأينا أن الزمن ليس في صالحنا. وإذا شاء أحد أن يستنيم فليتذكر متى صدر الكتاب الأبيض بوقف الهجرة الصهيونية في موعد محدد.

ولماذا صدر هذا الكتاب. ثم ليتدكر متى الغي الكتاب الابيص وابيحت الهجره من جديد. ولماذا كان هذا الانقلاب؟.»

«صدر الكتاب الأبيض ترضية للعرب الساخطين الثائرين، وصدر تصريح «بيفن» الأخير ترضية لليهود المعتدين الإرهابيين!».

قلت ذلك من نحو ثلاثة أشهر، فقال لي قوم ممن يسمونهم «العقلاء!»: لا تنس أن إباحة الهجرة الصهيونية مرهونة بمشيئة العرب، وأن مستر «بيفن» قدم قراره الأخير في صورة «اقتراح»، فاذا رفض العرب، فلن تكون هجرة للصهيونيين.

ثم ها هو مستر «بيفن» يقرر تنفيذ اقتراحه، بعد أن رفضه العرب وأبلغوه قرار الرفض مجتمعين!.

ذلك أن قرار الرفض من جانب العرب لم يبلغ للمستر «بيفن» باللغة الوحيدة التي يفهمها الإنجليز! فهم معذورون حين لا يفهمون!.

ومصيبتنا الكبرى ـ سواء في قضية فلسطين أو في قضايا البلاد العربية جميعاً ـ أننا لا نخاطب الانجليز باللغة الوحيدة التي يفهمونها كل حين!.

ويبلغ بنا البله والغفلة ان نخاطبهم باللغة الدبلوماسية ـ وهم لا يفهمون هذه اللغة مع الأسف من الشعوب الصغيرة، بل هم لا يفهمونها من الشعوب الكبيرة في بعض الأحايين!.

والضمير السياسي البريطاني؟ تلك الخرافة التي يتعلق بها ساستنا حينما تضعف نفوسهم عن اختيار الطريق الوحيد المؤدي الى حقوقنا الوطنية، وتعجز ألسنتهم عن اللغة الوحيدة التي يفهمها الانجليز.

هذه الخرافة التي لم ننكب مرة واحدة إلا عن طريق اليأس منها.. ومع كل التجارب الماضية يوجد بيننا من لا يزال يثق في هذا الضمير.

ها هي ذي الهجـرة الصهيونية تبـاح أيهـا الـواثقـون بالضمير السياسي

البريطاني. فمادا انتم قائلون؟ بل ماذا انتم فاعلون؟.

مذكرات ديبلوماسية! وبيانات ديبلوماسية! وانتظار للردود على هذه البيانات والمذكرات، تأتيكم أو لا تأتيكم بعد حين! والهجرة تستمر، والصهيونيون يدخلون!.

أيتها الأمة العربية:

أفيك رصيد مذخور، أم أنت من الهالكين؟ فأما إن تكن الأولى أيتها الأمة فخاطبي القوم باللغة الوحيدة التي يفهمون، وأما إن تكن الثانية، فإن الانجليز معذورون، والصهيونيين محقون!.

أيتها الأمة العربية: لا تعتمدي على رجال السياسة، فقد تكون لهم قيود وحدود ولكن اعتمدي على نفسك، وادفعي إلى الأمام ليتخطوا هذه السدود والقيود!.

أيتها الأمة العربية:

«احذري رجال السياسة من أبنائك، لا لأنهم قد يخونونك أو يخدعونك؛ ولكن لأنهم هم قد يخانون ويُخدعون. ولأن كراسي الحكم والمناصب، قد تكون في بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنيم له الأعصاب الثائرة، وتخمد فيه الدماء الفائرة!.

أيتها الأمة العربية:

خذي الأمر في يديك من جديد. فإني أرى الموقف يستدعي جهود الشعوب نفسها، لا جهود زعماء الشعوب!.

وما يخدعك أيتها الأمة - في كل قضاياك الوطنية لا في قضية فلسطين وحدها - إلا مخدوع، يقصيك عن الأمر ويستنيم للوعود!».

تلك صيحتي لك بالأمس، وإنها لصيحتي لك اليوم. فخاطبي القوم باللغة الوحيدة التي يفهمونها، وإلا فسيذهب صوتك الديبلوماسي الناعم صرخة في واد. والأمر اليك، فانظري ماذا تأمرين!.

منطق الدماء البريئة

في يوم الجلاء

س ١٤/ ١٩٤٦ ع ٦٦١ ص ٢٣٨

أيًا كان الألم الذي يعتصر قلب كل مصري لمنظر الدماء البريئة تراق، والأرواح الطاهرة تزهق، والبيوت العامرة تخرب، وقلوب الآباء والأمهات تقطر دماً على فلذات الأكباد تخرج في الصباح ولا تعود في المساء!.

أيًا كان هذا الألم الدافق الحار في حنايا كل مصري لتلك الدماء البريئة التي أريقت في «يوم الجلاء» الذي أرادته الأمة المسالمة تعبيراً بريئاً عن الحق الطبيعي في إبداء الشعور؛ وأراده المستعمرين القساة، معركة دموية تهرق فيها الدماء!.

أيًا كان هذا الألم، فإن له ثمنه الذي لن يضيع. فالدم هو عربون الحرية في كل زمان ومكان، والاستشهاد هو ثمن الكرامة على تغير الأزمان، وإن لليوم لغداً، وإن للحرية لفجراً، وإن النصر لآت!.

لا، بل إن ثمن تلك الدماء البريئة لحاضر، وإنا لنقبضه الآن.

إن لتلك الدماء البريئة لمنطقاً واضحاً صادقاً، يكذب ويجبه أولئك الكتاب المصريين والعرب أجمعين الذين وقفوا يناصرون الإنجليز في محنتهم، ويدعون لهم في أمتهم، ويقربونهم إلى قلوب مواطنيهم، مأجورين أو مخدوعين. فالمخدوع في حق أمته لا يبعد كثيراً عن المأجور.

وإن لتلك الدماء البريئة لمنطقاً واضحاً صادقاً يكذب ويجبه، أولئك الزعماء

والساسة من المصريين والعرب أجمعين، الذين وقفوا يناصرون الإنجليز في محنتهم، ويؤدون لهم جميع الخدمات التي تكفل النصر، دون أن يحصلوا في ذلك الوقت حتى على وعد قاطع بالجلاء، اعتماداً على شرف الضمير السياسي البريطاني المزعوم!.

إن ثورة واحدة مدة ثمان وأربعين ساعة، إبان معركة العلمين، وتوالي الأمداد والذخائر، ثورة واحدة تعطل المواصلات، كانت كفيلة بترجيح كفة النصر، وانقلاب وجه الحرب كلها ـ باعتراف القادة البريطانيين والأمريكان في هذا الأوان ـ ولكن مصر لم تعملها، وثوقاً بشرف هذا الضمير المزعوم. ولم تنتفع بهذا الظرف في قضيتها الوطنية، ضعفاً، أو جهلاً، من الساسة والزعماء المصريين!.

ولقد ظل هؤلاء جميعاً: الكتاب المأجورون، أو المخدوعون. والساسة الضعفاء، أو الجهال.. ظلوا يسكبون في سمع الأمة المصرية، والأمة العربية كلها، منطقاً زائفاً مدخولا عن الديمقراطيات الغربية، وعن الضمير البريطاني، وعن ميثاق الأطلنطي، وعن الحريات الأربع، وعن الحرية والإخاء والمساواة، إلى آخر تلك الخدع الماكرة اللئيمة، التي ألقاها الأقوياء للضعفاء، فتلقفها هؤلاء، وغنوا بها كالببغاء!.

ظل هذا المنطق البائس المجرم يسكب في سمع الأمة، حتى انبعث أخيراً ذلك المنطق الحق الصارم، الذي لا عوج فيه ولا خفاء.. ذلك منطق الدماء!.

انبعث هذا المنطق من جراحات الجرحى، ومن طعنات القتلى، في ميدان الاسماعيلية، وانطلق كذلك من أفواه البنادق الآثمة، التي دوّت بالموت والجراح، في الأبدان والأرواح. فغطى هذا المنطق الحاسم الصارم، على ذلك المنطق المريب الكذوب، الذي ظل الكتاب المأجورون أو المخدوعون، والساسة الضعفاء أو الجهلاء، يسكبونه في سمع الأمة ستة أعوام!.

وإذا كان المنطق الزائف البائس، قد وصل الى سمع الأمة ووقف هناك، فلقد اخترق المنطق الحق الحاسم سمعها، واستقر في قلبها، وردده ضميرها..

فهيهات هيهات أن تخدع بعد اليوم! وهيهات هيهات أن تنسى منطق الدماء!.

انتهينا.. انتهينا أيها الحلفاء!!!.

لقد قبضنا اللحظة الثمن الغالي لتلك الدماء!!.

قبضناه وعياً وصحواً لن تخدرهما المخدرات! قبضناه حزماً وعزماً لن تفلهما المغريات! قبضناه احتقاراً ومقتاً لكل تلك الدعايات!!.

الحمد لله. لقد انكشف الغطاء!.

انكشف في مصر في يومين خالدين في تاريخها الحديث، على ما يثيران من ألم فاجع في صدور المصريين أجمعين: يوم ٤ فبراير المشؤوم، ويوم الجلاء... المضمون!.

وانكشف في لبنان يوم انقضت السلطات الغاشمة الفرنسية على رئيس الجمهورية ووزراء الجمهورية، فأودعتهم بطون السجون!.

وانكشف في سورية يوم انطلقت المدافع المتبربرة تصب حممها على دمشق، وتنثر الأشلاء، وتقتل المجاهدين الأبرياء!.

وانكشف في فلسطين، يوم قام «ترومان» يطالب بفتح أبواب الهجرة لمئة ألف من اليهود، وقام «بيفن» يسحب كلمة «الشرف» في الكتاب الأبيض، ويبيح الهجرة للصهيونيين!.

وانكشف في أندونسيا يوم قامت القوات البريطانية، تقتل الأندلسيين المسلمين، وتسلط عليهم الفرق اليابانية، وتزعم أنها جاءت لتجريد الجنود اليابانية!.

إن النضال بين الشرق والغرب في الحقيقة يثيره الإنجليز والأمريكان والفرنسيون والهولنديون، على الشرقيين عامة، والبلاد الاسلامية على وجه الخصوص.

هذه عقيدة يجب أن تستقر في ضمائر الشرقيين. في ضمير الهنود

والأندونسيين والمصريين والسوريين واللبنانيين والعراقيين والحجازيين والنجديين والفلسطينيين والطرابلسيين والجزائريين والتونسيين والمراكشيين. . وهم كما يرون حشد عظيم، حين يواجهون الاستعمار الغربي متكاتفين.

إنه النضال. . والويل فيه للمتخاذلين!.

وبعد. .

فبوركت هذه الدماء الزكية التي كشفت عن عيوننا القناع! بوركت هذه الدماء التي أسكتت بمنطقها الحق الواضح، كل منطق مبهرج أو مدخول!.

لقد ارتفعت صيحة الجلاء البريئة، فقوبلت بصيحة الرصاص الأثيمة. هذا منطق، وذلك منطق. ولقد شهدت الإنسانية في مواقع كثيرة انتصار الصيحة الأولى مهما بدت ضعيفة، على الصيحة الثانية مهما بدت عنيفة. بل لقد شهدنا نحن انتصارها في عام ١٩١٩.

هنالك فارق واحد بين الموقعتين:

في سنة ١٩١٩كان على رأس الأمة سعد زغلول، ولم يكن هذا الرجل يعرف ذلك المنطق المخنث الضعيف. منطق الثقة بالضمير البريطاني المزعوم. وكان الشعب مثله لا يقر مثل هذا المنطق المضحك في تلك الظروف!.

فيا أيتها الأمة!

لقد هتفت مرة بالجلاء، وإنه لهتاف مطرب رخيم، وهتاف شريف كريم. . فاهتفي أيتها الأمة بالجلاء، وصفقي لمن يهتفون معك به من الساسة والزعماء، على أن تكوني أنت الرقيب عليهم فيما يقولون وفيما يفعلون.

سحر الجلاء!

س ١٤/ ١٩٤٦ ع ٦٧٠ ص ٤٩٣

في العدد الماضي من جريدة «أخبار اليوم» وصف صحفي بعنوان «رأيت يوم الجلاء في سوريا» بقلم الأستاذ توفيق الحكيم صدرته الجريدة بهذه المقدمة:

«رأت أخبار اليوم بمناسبة الجلاء عن سوريا أن توفد الأستاذ توفيق الحكيم لشهود عيد الجلاء، وكذلك أوفدت مصورها الخاص ليسجل حفلات الجلاء.. وفيما يلي ننشر أولى رسائل الأستاذ توفيق الحكيم».

وقد بدأ الأستاذ توفيق وصفه الصحفي يقول:

«أولئك الذين عرفوا أو سمعوا بذلك الكسلان الجالس طول يومه على إفريز مقهى لا يصنع شيئا ولا يعنى بأحد ولا يهتم لأمر، قد دهشوا ولم يصدقوا أعينهم عندما أبصروه ينزل من طائرة حربية محلقة في جو دمشق، وخلفها سرب من طائرات القتال المصرية».

«ما هذا الشعور الذي حرك الساكن، ونشط الهامد، وأحيا الجماد؟ إنه الفرح بالجلاء الاجنبي عن أرض شقيقة لنا عربية، والجلاء عن سوريا ليس إلا مطلع ذلك الفجر الجميل في ليل الشرق الطويل... الخ الخ».

قرأت هذا فلم أدهش ولم أكذب عيني لأن توفيق الحكيم قد طار مندوبا لأخبار اليوم مع مصورها الخاص ليسجلا حفلات الجلاء عن سورية!.

فما في هذا شيء يدعو إلى الدهش أو العجب، فهي «واحدة» من «وحايد»

الأستاذ توفيق «كصينية البطاطس» و «عدو المرأة». و «البيريه» على الراس و «حمار الحكيم». . وأخيراً «قطط الحكيم» التي ظهر في مجلة الاثنين يحملها بين يديه، كآخر رفيق بعد الحمار الذي أوفده في مهمة خاصة!!.

لم يدهشني إذن أن يطير الأستاذ توفيق ليسجل حفلات الجلاء في سورية مع مصور أخبار اليوم. . إنما الذي أدهشني حقاً هو ذلك الانقلاب في رأي توفيق وشعوره إزاء قضايا الشرق العربي والاستعمار الفرنسي. وهو انقلاب يجب تسجيله، لأن تسجيله مفيد.

حينما كانت الأزمات على أشدها بين أمم الشرق العربي وفرنسا. . حينما كان بعض الكتاب يحملون على فرنسا حملات نارية لأنها تستخدم الوسائل البربرية في قمع الشعور الوطني في نفوس العرب. . حينما كانت دماء بعضهم تغلي لأنه لا يطيق أن تتحكم هذه البربرية في مصير العرب في سورية ولبنان وفي الشمال الإفريقي. .

في هذه الأوقات كان للأستاذ توفيق الحكيم رأي آخر، أشار إليه الأستاذ «عبدالمنعم خلاف» إشارة صريحة على صفحات الرسالة بعد مشادة عنيفة بينه وبين الأستاذ توفيق في جلسة من جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر وأشرت إليه من بعيد في مقالة لي بالرسالة بعنون: «هذه هي فرنسا»!.

ولقد كان الأستاذ توفيق يثور وينفعل، لأن فرنسا في خطر، ولأن فرنسا ذخيرة إنسانية فداؤها كل شيء. ومن كل شيء هذا الشرق العربي الجاهل المجنون!.

لقد أدهشني ولا شك ذلك الانقلاب. ولكنه أفرحني أيضاً، فهذا «سحر الجلاء» وسره العميق! هذا هو النور الذي يكشف الغشاوات الوقتية التي تحجب النور حتى عن العيون الفطنة اللماحة مثل عيني الأستاذ توفيق الحكيم!.

«وهبطنا مطار المزة، فوجدنا في الانتظار دولة سعدالله الجابري رئيس الوزراء. فما كاد يراني حتى ابتدرني قائلا:

ـ وأين حمارك؟.

فقلت على الفور:

ـ أوفدته ليشيع المحتل الراحل بما يناسب المقام!.

وكدت أتابع الحوار فأنوب عن دولة سعدالله الجابري لأقول:

ـ ولكن المحتل الراحل هو «فرنسا» يا أستاذ توفيق!.

إلا أنني ذكرت «سحر الجلاء» سحر الاستقلال ذلك الذي يكشف الغشاوات الوقتية التي تحجب النور حتى عن العيون الفطنة اللماحة مثل عيني الأستاذ توفيق الحكيم.

كم في مصر من المخدوعين بفرنسا! وكم فيها من المخدوعين ببريطانيا! وكم فيها من المخدوعين بأمريكا! وكم فيها من المخدوعين بالعالم الغربي على وجه العموم!.

هؤلاء جميعا أدعوهم لمراجعة الوصف الطلي الذي قدمه الأستاذ توفيق الحكيم عن يوم الجلاء في سورية، بعد الانقلاب العظيم..

كم هم كثيرون.. أولئك الذين حجب الاحتلال الطويل لبلادهم ذلك النور عن عيونهم، فتركهم لا ينطلعون إلا الى وهج الغرب المستعمر الذي يغشى الأعصاب والعيون.

وكم نحن في حاجة إلى «سحر الجلاء» ليجلو الغشاوة عن هذه العيون، فتبصر النور القريب. النور الذي يشع من داخل نفوسهم هم، وهم به لا يشعرون!.

إنني أفرح بهذا الانقلاب في شعور الأستاذ توفيق الحكيم، فليعذرني إذا أنا تجاوزت معه أسلوبي المعهود!

وبعد فما أحرى هذا الانقلاب أن يزيد كلمة «الجلاء» في أنفسنا إعزازاً، وأن يزيدنا عليها إصراراً، فهذا الجلاء في سوريا هو الذي سحر أحد عشاق فرنسا

المعجبين المتحمسين، فجعله يرسل حماره ليشيع المحتل الراحل بما يناسب المقام! .

وليس هو بالكسب اليسير أن يسترد الشرق رجلا فنانا من طراز الأستاذ توفيق الحكيم، يطير ليحضر حفلات الجلاء في سوريا فهذا وحده كسب يغرينا بطلب الجلاء العاجل عن الشرق كله ولعل الأستاذ توفيق وإخوانه من عشاق فرنسا، لا ينسون مع الجلاء اذا نحن طلبناه للشمال الإفريقي أيضاً. ولعله يومئذ يرسل حماره ليشيع المحتل الراحل بما يناسب المقام! .

الكلمة اليوم للعرب

فماذا هم صانعون؟

س ١٤/ ١٩٤٦ ع ٦٧٢ ص ٥٤٩

نحن ـ الأمم العربية ـ نستأهل كل ما يجري علينا، ما دمنا نختار لأنفسنا دائما موقف الانتظار، ولا نخطو خطوة إيجابية واحدة؛ بل ندع ذلك لخصومنا وننتظر دائما ماذا يصنعون!.

ومصيبتنا الكبرى أن فينا من «العقلاء» أكثر مما ينبغي، و «نتعقل» ونسلك الطرق «السلمية» حتى لا نخسر عطف العالم المتمدين، أي العالم الأوروبي والغربي على العموم!.

فماذا جنينا اليوم من الانتظار بعد الانتظار؟.

جنينا أن ظلت قضية العرب في فلسطين تتأخر ولا تتقدم يوما بعد يوم، حتى انكفأت أخيرا في هوة «لجنة التحقيق»! ومع ذلك فالعقلاء لا يزالون إلى اليوم ينصحون لنا بالهدوء والتريث حتى نعرف ماذا سيصنع خصومنا. وخصومنا في هذه المرة هم الإنجليز والأمريكيون! ونحن الذين تطوعنا بأن نضمهم إلى صفوف أعدائنا اليهود، بعد تقرير لجنة التحقيق!.

ولنرجع بذاكرتنا قليلا إلى الوراء.

في وقت من الأوقات كانت فلسطين ثائرة فائرة. فأسرع الانجليز يدعون الأمم العربية ـ ولم تكن الجامعة العربية قد أنشئت بعد ـ إلى مؤتمر في لندن وهم يحاولون ترضية العرب الثائرين. وفي هذا الوقت أو بعده بقليل؛ صدر

الكتاب الأبيض الذي يضع حدا لهجرة اليهود، ويحظر بيع الأراضـي، ويعد باستقلال فلسطين..

ولم يرض العرب عن هذا الكتاب الابيض. ولكن «العقلاء» أشاروا عليهم بالتزام الهدوء، حتى لا يفقدوا «عطف العالم المتمدين»! وانخدع العرب بكلام «العقلاء» فأخلدوا إلى الهدوء!.

تم جاء دور اليهود الإرهابيين، فجعلوا يخاطبون الانجليز باللغة الوحيدة التي يفهمها الانجليز. ولحسن حظهم لم يكن فيهم «عقلاء»، فراحوا ينفذون خطتهم في دأب وإصرار.

ووقف عقـلاؤنا يبسمون في دهاء ويقولون: «دعوهم في حماقتهم فإنهم يفقدون عطف العالم المتمدين. وسينقلب الشعور الانجليزي ضدهم بسبب أعمالهم الإرهابية وجرائمهم المنكرة»! وكانت هذه سذاجة هي والغفلة سواء!.

وفهم الإنجليز اللغة الوحيدة التي يفهمونها. وانتهزوا فرصة ضغط الولايات المتحـدة في مصلحـة اليهـود، وأعلنـوا إلغـاء الكتـاب الأبيض وتأليف لجنة للتحقيق، والسماح بالهجرة بعد انتهاء أجلها المحدود!.

وتحـرك العـرب. ولكن «العقلاء» قالوا لهم: «كونوا عقلاء أيها العرب، وانتظروا قرار لجنة التحقيق، ولا تقوموا بأية حركة الآن لئلا تفقدوا عطف العالم المتمدين، ودعوا اليهود الحمقى يرتكبون حماقاتهم ليفقدوا هذا العطف دونكم بما يرتكبون كل يوم من الإرهاب في فلسطين وغير فلسطين»!.

وسكت العرب، وصدر قرار لجنة التحقيق!

فيا أيها العرب ماذا أنتم اليوم صانعون؟.

يقـول لكم «العقـلاء»: انتـظروا حتى تروا ماذا يصنـع الإنجليز. فرئيس وزرائهم يقـول: إنـه لا ينفذ التقرير إلا إذا ضمن مساعدة الولايات المتحدة العسكرية والمالية. وما دام الإتفاق لم يتم بين انجلترا والولايات المتحدة على هذه المساعدة فنحن منتظرون!.

أيها العقلاء. . . . . . .

إنكم مغفلون. . . . . .

إن موقف الانتظار البليد في كل مرة هو الذي جعل قضية فلسطين تتقهقر دائما ولا تتقدم، منذ أن سمع العرب نصائحكم الغالية، وحرصوا على عطف العالم المتمدين، ووثقوا معكم بالضمير الأوروبي. أو الضمير الغربي على العموم.

أيها العقلاء!

إن الضمير الغربي كله ضمير متعفن. فالمغفلون وحدهم هم الذين يثقون بهذا الضمير، ويعلقون على يقظته حقوقهم القومية!.

واللغة الوحيدة التي يفهمها هذا العالم المتمدين، هي اللغة التي يخاطبهم بها اليهود: القوة والمال، والإقلاق المستمر الذي لا يدع أعصابهم مستريحة، ولا يدع تدجيلهم الدولي مستورا، وكلما هاجت أعصابهم وانكشف موقفهم زاد ضميرهم يقظة وتحركت في نفوسهم عواطف الرحمة والإشفاق على هؤلاء المقلقين الثائرين!.

أيها العقلاء!

ليس أمامنا تجربة واحدة تثبت أن الضمير الغربي قد تحرك مرة واحدة لقضية إنسانية بريئة يتبع أصحابها نصائح «العقلاء» فيدعون الضمير الغربي هادئا يغط في نومه العميق.

لا بد من ضجة وجلبة لايقاظ هذا الضمير النائم، واليهود اليوم يدركون هذه الحقيقة؛ ولذلك هم ناجحون!.

أيها العقلاء!

مجرم في حق أمته، وفي حق العرب أجمعين، كل من يدعو أمته أو يدعو العرب إلى الثقة بهذا الضمير المزعوم.

وبعد، فالكلمة الآن للعرب، لا لمستر أتلي، ولا للرئيس ترومان، ولا للجنة التحقيق!.

فإما أن يخاطبوا الضمير الغربي باللغة الوحيدة التي يفهمها. والتي يحذقها اليهود، فيلبيهم الضمير الغربي في كل مكان.

وإما أن يخاطبوا هذا الضمير بلغة «العقلاء» وينتظروا حتى تنطبق الحلقة، ويتم الإتفاق بين أتلي وترومان..

وحينئذ لا يلومن إلا أنفسهم، وإنهم لملومون.

الضمير الأمريكاني . . . !

وقضية فلسطين

س ١٤/ ١٩٤٦ ع ٦٩٤ ص ١١١٥

أخيراً يتكشف ضمير «الولايات المتحدة» الذي تعلقت به أنظار كثيرة في الشرق، وحسبته شيئاً آخر غير الضمير الانجليزي والضمير الفرنسي، وسائر الضمائر الأوروبية المعروفة.

أخيراً يتكشف ضمير «الولايات المتحدة» هذا، فإذا هو ـ ككل شيء أمريكي آخر ـ «ضمير أمريكاني»! .

ونحن نعرف في مصر «اللعبة الامريكانية» ونعرف أنها «نصب» في «نصب»، وقد حرمت هذه اللعبة لما فيها من غش وخداع. و «الضمير الأمريكاني» الذي تكشف عنه تصريحات ترومان لا يرتفع كثيراً عن هذه اللعبة الممنوعة! .

ولقد كان الكثيرون مخدوعين في هذا الضمير؛ لأن الشرق لم يحتك طويلا بأمريكا، كما احتك بانجلترا وفرنسا وهولاندا، فلما بدأ الاحتكاك في مسألة فلسطين تكشف هذا الخداع عن ذلك الضمير المدخول، الذي-يقامر بمصائر الشعوب، وبحقوق بني الانسان، ليشتري بضعة أصوات في الانتخاب.

وكلهم سواء أولئك الغربيون: ضمير متعفن، وحضارة زائفة، وخدعة ضخمة اسمها «الديمقراطية» يؤمن بها المخدوعون! .

تلك كانت عقيدتي في الجميع، في الوقت الذي كان بعض الناس يحسن الظن بفريق ويسيء الظن بفريق، وكانت أمريكا في الغالب هي التي تتمتع بحسن الظن من الكثيرين.

فها هي ذي أمريكا تتكشف للجميع. هذا هو «ترومان» يكشف عن «الضمير الأمريكاني» في حقيقته، فإذا هو نفسه ضمير كل غربي، ضمير متعفن، لا يثق به إلا المخدوعون!.

إنهم جميعاً يصدرون عن مصدر واحد، هو تلك الحضارة المادية التي لا قلب لها ولا ضمير. تلك الحضارة التي لا تسمع إلا صوت الآلات، ولا تتحدث إلا بلسان التجارة، ولا تنظر إلا بعين المرابي، والتي تقيس الإنسانية كلها بهذه المقاييس.

كم ذا أكره أولئك الغربيين وأحتقرهم! كلهم جميعاً بلا استثناء: الانجليز، الفرنسيون، الهولنديون، وأخيراً الأمريكان الذين كانوا موضع الثقة من الكثيرين.

ولكني لا أكره هؤلاء وحدهم، ولا أحتقر هؤلاء وحدهم. إنما أكره وأحتقر أولئك المصريين، وأولئك العرب، الذين لا يزالون يثقون بالضمير الغربي عامة، وضمير الاستعمار على وجه الخصوص.

إنها الجريمة. تلك التي يقترفونها كل يوم في حق شعوبهم المسكينة. جريمة التخدير والتغفيل. وإنامة الأعصاب على الأذى. وهدهدة الآمال الباطلة، والأماني الخادعة؛ في ذلك الضمير المأفون.

يقول نبي الإسلام الكريم: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، وها نحن أولاء نلدغ من الجحر الواحد مرات، ثم نعود في كل مرة إلى هذا الجحر نفسه مغمضي الأعين نتطلب «الشهد» من جحور الأفاعي. ولا نجرب مرة واحدة أن نحطم هذه الجحور وأن ندوس هذه الأفاعي، وأن ننفض عن نفوسنا ذلك الوهم الذي يقودنا المرة بعد المرة إلى تلك الجحور!.

إنها الجريمة. تلك التي نعاودها مرة بعد مرة، الجريمة في حق النفس، والجريمة في حق الوطن، والجريمة في حق العقيدة. إنها الغفلة التي لا يستحق صاحبها الاحترام، وهو يشهد على نفسه بالتغفيل!.

ولكن من الحق أن لا نصم الشعوب العربية بهذه الوصمة. إن هذه الشعوب لأذكى وأشد حمية من أن ترضى لنفسها بالهوان ولكنها تلك الحفنة من ساسة الجيل الماضي في مصر وبعض البلاد العربية. تلك الحفنة الرخوة المسنة الضعيفة المتهالكة، المهدودة الأعصاب، لا تقدر على الكفاح، ولا تدع الشعوب تكافح، لأن أنانيتها الأثرة تمسكها عن الانسحاب في الميدان وتركه للقادرين!.

هذه الحفنة من ساسة الجيل الماضي هي التي اخترعت كلمات: المفاوضات، والمحادثات، والمؤتمرات... لماذا؟ لأنها وسيلة سهلة لا تكلف شيئاً، وتضمن كراسي الحكم والسلطة فترة من الزمان. وكلما همت الشعوب أن تسلك طريقها وأن تواجه المستعمرين بذاتها، حال هؤلاء بينها وبين المستعمرين، ووقفوا من دونهم يصارعون الشعوب، وتصارعهم الشعوب. فاذا أتعبهم الصراع مع شعوبهم راحوا يبثون في الأمة روح الثقة بالمستعمرين، وراحوا يشيعون الآمال الخادعة في هذا الضمير المدخول!!.

تلك هي القصة.. قصة الجحور والافاعي.. وقصة اللدغ المتكرر من هذه الجحور. وإنها لمأساة، ولكن من العدل أن نبرىء منها الشعوب العربية؛ فلا تؤخذ بجريرة حفنة من الساسة الضعفاء المرضى المتهالكين!.

والضمير الأمريكاني!.

لقد كان الكثيرون يفهمون أنه شيء آخر غير الضمير الاوروبي. فأراد الله ـ ولعله لخير هذه الأمة العربية المنكوبة ـ أن يكشف عن ذلك الضمير... إنه ضمير مادي، ضمير الآلة التي لا تحس، وضمير التاجر الذي لا يتورع، ولا يهمه حق، ولا عدل، ولا حياء.

وهل تملك تلك الحضارة الآلية أن تنشىء إلا ضميراً من هذا القبيل؟.

ليست المسألة مسألة جنس ولا دولة. فليس الأمريكان خيرا من الانجليز. وليس الانجليز خيراً من الفرنسيين، وليس الفرنسيون خيراً من الهولنديين... كلهم أبناء حضارة واحدة. حضارة مادية بغيضة لا قلب لها ولا ضمير. حضارة تأخذ ولا تعطي، وتجرح ولا تأسو. حضارة أنانية صغيرة مهما بدت من الخارج ضخمة ذات بريق وضجيج!.

إنها حضارة زائفة لأنها لم تقدم للانسانية زاداً من الروحية، ولم تحاول رفع الآدمية عن قانون الوحوش، وهل تطبق هذه الحضارة مع شعوب الأرض المنكوبة إلا قانون الوحوش؟.

ثم يوجد بين أمم الشرق غافلون أو خادعون يثقون بأصحاب هذه الحضارة، ويراودون شعوبهم على الثقة بذلك الضمير، ويثبطون عزائمهم عن الجهاد الحاسم، والكفاح المثمر، في أنسب الظروف!.

وبين ضجيج الآلات يرتفع بين آن وآخر صوت إنساني خافت في تلك الربوع: ينادي بالعودة إلى الله، كذلك الصوت الذي أرسله الكردينال جريفان في انجلترا منذ أيام، حين ألقى بكتدرائية وستمنستر عظة دينية فقال:

«لقد أُبعد الله عن ميثاق هيئة الأمم المتحدة. وهذا هو السبب في أن الأمم المتحدة لم تستطع إلى اليوم أن تصبح (متحدة) فعلا».

«وإنه لينبغي أن يكون لله ومبادئه القائمة على الإحسان والعدالة مكان في الشئون الدولية حتى تصبح الحرية حقيقية في العالم بأسره ويعيش الإنسان في ظل السلام والأمن».

ولكنه صوت خافت لا يسمع في ضجيج الالات التي تغشى على صوت الضمير، ونغمة مبحوحة لا تسمع بين صراخ المطامع، وعواء الشهوات، في ذلك العالم الهائج الشعور!.

والآن. أيها الشرق. ماذا تريد؟

فأما إن كنت تبغي الخلاص من براثن الوحش الغربي. فهناك طريق واحد لا تتشعب فيه المسالك. فهو أقرب طريق.. اعرف نفسك، وراجع قواك، واستعد للصراع، وابدأ في الكفاح، ولا تستمع إلى صوت خادع يوسوس لك بالثقة في ضمير الغرب المدخول.

وأما إذا كنت تبغي الراحة مع ذلك الجيل المكدود المهدود من الساسة المترفين الناعمين، فأمامك طرق كثيرة ذات شعب ومسالك، وذات متعرجات ودروب. هناك المفاوضة، والمحادثة، وجس النبض، واستطلاع الآراء. وهناك الدبلوماسية الناعمة الرقيقة، والكلمات الرفيقة الظريفة، وهناك الانتظار الذي لا ينتهي، والاستجداء الذي لا يغني، وهناك المؤتمرات الحافلة والموائد المستديرة، وهناك الكتب البيض، والكتب الزرق، والكتب الخضر، وما لا ينتهي من الطرق والمتعرجات والدروب!.

والحمد لله - أيها الشرق - لقد تكشف لك القناع عن آخر ضمير «الضمير الأمريكاني» الذي كانت تتعلق به الأنظار، أنظار الغافلين والخادعين!!.

والحمد لله - أيها الشرق - إن شمسك الجديدة في شروق، وشمس هذا الغرب الفاجر في غروب. وإنك تملك من الرصيد الروحي، ومن ميراثك القديم، ما لا يملكه هذا الغرب المتطاحن الذي يأكل بعضه بعضاً كالوحوش لانه يحكّم قانون الغابة بين الوحوش.

إنها الفرصة السانحة - أيها الشرق - للخلاص. فانفض عنك رجال الماضي الضعفاء المنهوكين، وابرز بنفسك للميدان، فقضايا الشعوب في هذه الأيام لا بد أن تعالجها الشعوب.

وما قضية فلسطين إلا قضية كل شعب عربي، بل كل شعب شرقي. إنها الصراع بين الشرق الناهض، والغرب المتوحش. وبين شريعة الله للانسان وشريعة الغاب للوحوش.

العالم الاسلامي حقيقة واقعة

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٦٦ ص ١٠

الذين يتحدثون اليوم عن «العالم الإسلامي» بوصفه كتلة ثالثة تملك أن تلعب دورا أساسيا في سياسة العالم، وتملك أن يكون لها وضع خاص متميز لا يرتبط بسياسة الكتلة الشرقية ولا بسياسة الكتلة الغربية.

هؤلاء لا يتحدثون عن مسألة تاريخية قد انقضى أوانها، ولا يتحدثون عن أمل في ضمير الغيب البعيد يتعلق به الخيال.. إنما يتحدثون عن حقيقة واقعة. حقيقة قائمة، لا سبيل إلى انكارها، ولا سبيل إلى المغالطة فيها..

إنها حقيقة تاريخية، وحقيقة جغرافية، وحقيقة اقتصادية، وحقيقة فكرية وشعورية... فلها كل مقومات الحقائق الواقعة التي لا تجدي في دفعها المغالطة والنكران..

إنها حقيقة تاريخية.. فالعالم الإسلامي كان كتلة واحدة ذات ثقل واحد في ميزان التاريخ، وميزان الاتجاه العالمي، وميزان السياسة الدولية وميزان الأحداث الإنسانية.. ولقد ظل كذلك منذ القرن السابع إلى أوائل القرن التاسع عشر. أي حوالي ألف ومائتي عام على الرغم من كل ما حاق به من محن، وكل ما أصابه من ويلات، وكل ما دب في كيانه من تمزق. والفترة الوحيدة التي خف فيها وزن الكتلة الاسلامية هي هذه الفترة الاخيرة التي لا تتجاوز قرنا واحدا من الزمان.

وهي حقيقة جغرافية؛ فالكتله الاسلامية تمتد في حدود متصلة أو شبه متصلة

من مراكش الى تونس، الى الجزائر، إلى طرابلس، إلى وادي النيل، إلى فلسطين، إلى سوريا ولبنان، إلى شرق الأردن واالعراق، إلى نجد والحجاز، إلى اليمن، إلى إيران، إلى تركيا، إلى أفغانستان، إلى باكستان، إلى أندونيسيا. وتكون حاجزاً كاملا يفصل بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية بحيث يصعب تصور أي التحام بين هاتين الكتلتين لا يمر بذلك الحاجز الطويل العريض المتصل الحدود.

وهي حقيقة اقتصادية؛ فهذه الرقعة الفسيحة من الأرض تحوي من الخامات والموارد الطبيعية والانتاجية ما يكفي لتكوين وحدة إقتصادية متكاملة، تكاد تكفي نفسها بنفسها. فإذا احتاجت الى شيء فهي تملك أن تقدم نظيره، ويبقى الميزان الاقتصادي العام في صالحها. وقد برهنت الحرب العالمية الماضية على صحة هذه الحقيقة، حينما تعذر الاستيراد من أوروبا أو امريكا لمنطقة الشرق الأوسط، وأقيم بها مركز تموين لتحقيق كفاية نفسها بنفسها.. فاذا أضيفت الى منطقة الشرق الأوسط تلك المساحات الإسلامية من الشرق الأقصى تمت الكفاية الذاتية، وثبتت تلك الوحدة الكاملة الاقتصادية.

وهي حقيقة فكرية وشعورية؛ فهذه الكتلة المترامية الأطراف يجمع بينها رباط فكري واحد ورباط شعوري واحد. رباط العقيدة الإسلامية، والتفكير المنبعث منها، والنظام الاجتماعي المتأثر بهذه العقيدة، حتى بعد أن طغت عليها النظم الغربية، وبعد ما بعد الكثير من حكوماتها عن حكم الاسلام وتعاليم الاسلام. وما تزال هذه الكتلة تملك ذلك الرباط الواحد الذي تستمسك به جميعاً.

إن هذه المقومات المتعددة المتكاملة لا يجتمع مثلها لواحدة من الكتلتين الشرقية أو الغربية. فهذه أو تلك تملك بعض هذه المقومات، ولكنها لا تملكها مجتمعة، كما تملكها الكتلة الإسلامية، أو العالم الإسلامي.. وإذن فلا مجال للتشكيك في قوة المقومات التي تملكها هذه الكتلة، ولا في قيمتها، ولا في أنها مقومات طبيعية، غير مصطنعة ولا متكلفة. وليست ناشئة من مجرد الرغبة

في تكوين كتلة ثالثة؛ وإنما هي تفرض نفسها فرضا، وتحتم قيام هذه الكتلة المستوفية لكل شروطها ومقوماتها.

هذه بديهية واضحة لأنها تعتمد على الواقع المشهود.. ولكن الكثيرين يحاولون التشكيك فيها بشتى الوسائل. ففريق يزعم بأن العالم اليوم ينقسم الى كتلتين اثنتين: الشيوعية في جانب، والرأسمالية في جانب. ويزعم أن لا سبيل الى اختيار طريق ثالث، فإما أن ننضم الى الكتلة الشرقية أو أن ننضم الى الكتلة الغربية.. وليس أكذب من هذا الزعم ولا أبعد منه عن الحقيقة الواقعة التي ينطق بها الواقع المجرد من وجود كتلة ثالثة لها كل مقوماتها، ولها كل إمكانياتها.

وفريق يزعم أن الكتل لا تقوم على أساس الوحدة الجغرافية، ولا الوحدة الفكرية والشعورية.. إنما تقوم على أساس النظم الاجتماعية، والنظم الاجتماعية التي يعرفها العالم هي الشيوعية في الشرق والرأسمالية في الغرب. ولا سبيل الى الحديث عن أي نظام اجتماعي آخر. فإلا تكن الشيوعية فهي إذن الرأسمالية ولا ثالثة لهما.. وليس أبعد من الحقيقة عن هذا الزعم القائم على الجهل، وإن كان يلبس ثوب العلم! فهناك نظام اجتماعي ثالث مستقل كل الاستقلال عن النظام الرأسمالي وعن النظام الشيوعي. نظام كامل شامل، له رأيه في الحكم، ورأيه في توزيع الثروة، ورأيه في علاقة الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقة الأفراد مع الدولة، وعلاقة الدولة بالدولة الأخرى.. وهو يصدر في كل هذا عن فكرة مستقلة غير الفكرة الرأسمالية وغير الفكرة الشيوعية. وقد يلتقي بهذه أو بتلك في بعض الجزئيات، ولكن له في النهاية هيكله الخاص، وفلسفته الخاصة، وتنظيماته الخاصة.. وهو حين يقاس الى الرأسمالية أو الى الشيوعية تبدو هذه كما تبدو تلك نظما متخلفة بالقياس الى النظام الإسلامي الاجتماعي. مشحونة بالأخطاء والمظالم والتعسفات. كما تبدو أقل قدرة على التطور وعلى مسايرة نمو البشرية من النظام الإسلامي.

وفريق يزعم أن هذه الكتلة الاسلامية من الضعف اليوم بحيث لا تملك أن تصبح كتلة ثالثة تقف تجاه الكتلتين أو إحداهما. وأن العالم الإسلامي قد أدى

دوره قديما ولم يعد له دور جديد. . وهذا الزعم قد يكون مفهوما حين تردده إحدى الكتلتين المتعاديتين. لأن الكتلة الغربية المستعمرة تردده لتقتل كل محاولة للتخلص من ربقة الاستعمار البغيض. والكتلة الشرقية تردده كي تفهم الشعوب الإسلامية المستعمرة أن وسيلتها الوحيدة للتخلص من الاستعمار هي الارتماء في أحضان الشيوعية، وأنه لا أمل في أن يكون لها هي نفسها كيان خاص مستقل. . هذا مفهوم. . فأما حين نردده نحن، أو حين نؤمن به، فهذا هو العجب المنافي للرغبة البشرية الطبيعية في أن يكون للمرء كيان خاص، ومركز خاص، واحترام خاص. وإن هو إلا المسخ الذي يصيب الفطرة. وما يقول بهذا الا الممسوخون الذين حولتهم دعاية هذه الكتلة أو تلك إلى فتات آدمي وحطام!.

إن العالم الإسلامي حقيقة واقعة. وإن كانت هذه الحقيقة قد خف وزنها فترة من الزمن، أصاب الكتلة الاسلامية فيها ما أصابها من الوهن والضعف، حتى وقعت في قبضة الاستعمار. . فإن كل الدلائل تشير اليوم الى ان هذه الفترة قد انقضت، وأن البعث قد آن أوانه، وأن القوة الكامنة في هذه العقيدة ما تزال تعمل، وأن هذه القوة لم تمت ولم تنطفىء، ولكنها كانت تجتاز فترة تكون وتجمع. وقد اجتازتها الآن. .

لقد انبعثت دول إسلامية جديدة، ولقد نهضت أمم إسلامية وشعوب. ولقد انبعثت الشعلة المقدسة تضيء من أقصى العالم الإسلامي إلى اقصاه. ولقد تناءت شعوب العالم الاسلامي كله كتلة واحدة، وراحت تتجمع تحت راية واحدة. . الراية التي أظلتهم أول مرة، فاندفعوا تحتها إلى أقطار الأرض جميعا. .

ولقد خفتت أو كادت تلك الأصوات المنكرة التي كانت تدعو الى القومية الهزيلة الضيقة وراء الحدود الصغيرة المصطنعة. وتبين للغالبية الساحقة أن القومية الاسلامية هي القومية الحقيقية التي تجمع بين هذه الشعوب. وان حدود الوطن الاسلامي هي الحدود الحقيقية، وما عداها كله فخاخ وضعها الاستعمار

ليقع فيها الغافلون والمغرضون. ثم يتفرق الوطن الاسلامي الى دويلات صغيرة ضئيلة عاجزة. تحت عنوانات القومية! ثم لا يفيد من هذا أحد كما يفيد المستعمرون الذين واجهوا العالم الاسلامي وما يزالون يواجهونه بروح صليبية وبسياسة صليبية، يتابعهم فيها أعداء هذا العالم الإسلامي في الشرق والغرب سواء.

إن العالم الإسلامي حقيقة واقعة. وما عاد يجدي أحد ان يقف في طريق بروزها بعد اليوم. والكتلة الثالثة ضرورة إنسانية، قبل أن تكون تكتلا إسلاميا.. ضرورة إنسانية لتحقيق غرضين أساسيين من أغراض البشرية في هذا الطور من التاريخ:

الغرض الأول:

هو تحقيق استقلال جميع الشعوب المستعمرة، والقضاء على الظل الاستعماري البغيض في الأرض. فلقد استطاع الاستعمار أن يتصيد الشعوب الإسلامية واحدا واحدا، حينما تمزقت وحدتها الكبرى، وضعفت عن حماية أنفسها فرادى. فاذا ارتدت اليوم الى نوع من الوحدة في صورة تكتل ذي كيان جغرافي واقتصادي واجتماعي.. ثم عسكري أمكن أن تصمد للاستعمار، وان تتخلص من براثنه، دون ان ترتمي في احضان الشيوعية.. وإن كان هذا لا ينفي ان تمد يدها الى الكتلة الشرقية من الناحية السياسية لا الناحية الاجتماعية، فيما تتفق فيه مصالحهما. ومصالحهما تتفق عند مكافحة الاستعمار. وفي هذا المجال تستطيع الكتلتان الشيوعية والاسلامية ان تؤديا دورا مشتركا في هذا المجال وحده. وفيه الكفاية والخلاص من الاستعمار.

الغرض الثاني:

هو تجنيب البشرية ويلات حرب ثالثة ـ أو على الأقل تأخيرها الى اطول أمد ممكن. فالكتلتان المتعاديتان اليوم إنما تتنازعان على أرض الكتلة الثالثة وخاماتها ومواردها. والذين يقولون عن إحدى الكتلتين: إنها مجموعة من

الملائكة ذوات الأجنحة البيض التي لا تبغي في الأرض إلا السلام البرىء، بلا مصلحة ولا غاية، إلا غايات القديسين والملائكة الأبرار.. إنما يحتقرون عقولهم أو عقول الناس. وانما يقولون كلاماً سخيفاً لا يصدقه حتى الأطفال.. وحين تبرز الى الوجود كتلة العالم الاسلامي. ستفكر كل من الكتلتين مرتين قبل الإقدام على الحرب. لأن أرض الكتلة الثالثة ومواردها لن تكون يومئذ صيدا رخيصا سهلا. يسيل له لعاب الشرقيين أو الغربيين. فضلا عن أن هذه الكتلة الثالثة تملك إيجاد التوازن بين القوتين، وتملك أن تهدد الفئة الباغية بأنها ستكون ضدها. ولن تقدم على الحرب كتلة تقف لها كتلة العالم الإسلامي بالمرصاد، وتنضم إلى خصومها فترجح الكفة ترجيحا لا شك فيه.

وبعد فأحب أن أقرر في نهاية الأمر أن الحديث اليوم عن الكتلة الثالثة ليس دعوة لقيامها. ولكنه تقرير لوجودها. وجودها الذي لن يملك أحد ولا قوة أن تعدمه. لأن طبائع الأشياء، وتطورات التاريخ، وضرورات الإنسانية.. كلها تدعو إليه وتنادي به.. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قيادتنا الروحية

س ١٥/١٩٤٧ ع ٧٠٥ ص ٢٧

في حياة الأمم ـ كما في حياة الأفراد ـ فترات خاصة، ترتفع فيها على نفسها، وتسمو فيها على مألوفها فتأتي بالخوارق والمعجزات، حتى لتتأمل فيما بعد ما أتمته في هذه الفترات الصغيرة، وما قامت به في تلك الآماد القصيرة، فلا تكاد تصدق، ولا تدري كيف تأتى لها أن تأتي بذلك العجب العجاب!.

هذه الفترة الخاصة هي التي ترتفع فيها الجماعات ـ كما يرتفع فيها الأفراد ـ إلى ما هو أعلى من الحياة اليومية، ومن المطالب العادية. وتتطلع إلى غايات عليا لا تتعلق بحياة فرد أو جيل، ولا تقف عند رغبة شخص، ولا أنانية فرد.

وفي هذه الفترات يجد الفرد لذته الكبرى في أن يضحي بلذائذه. وغايته الأولى في أن ينسى غاياته. وتنبثق من الجماعة حينئذ إشعاعات وطاقات عجيبة، تتخطى اللذائذ والغايات المنظورة إلى لذائذ وغايات أخرى غير منظورة، قد لا تستطيع تحديدها تماماً، ولا فهمها نصاً. ولكنها تساق إليها سوقاً بدوافع خفية كامنة فيبدو كأنما الكل أبطال في وقت من الأوقات.

هذه الفترات هي التي تسمع فيها الجماعات والأفراد صوت الحياة الأزلية، وتصغي فيها الى إرادة الحياة الأبدية، فتخفت حينئذ أصوات الرغائب الفردية، وتنطوي رغبات الأفراد الزائلة فتندفع الحياة دفعة كبرى إلى الأمام، وتدخر بعد هذه الدفعة رصيداً تنفق منه في خطواتها التالية، حتى إذا نفد ذلك الرصيد بطؤت خطاها، وتراخت قواها، وصحت الجماعة من تلك النشوة تتلفت إلى ذاتها،

وتحصر نفسها في نطاقها؛ وتطلع كل فرد إلى شخصه، وصحت رغائبه ولذائذه، وتفككت روابط الجماعة وعادت أفرادا وأنانيات، وصغرت قيم الحياة العليا، وانكمش المد الزاخر، وانطوى كل فرد على ذاته، يعبدها، ويملقها، ولا يرى أبعد منها شيئاً، إلى أن تنقضي الدورة، وتزهد الجماعة في هذه الحياة الرخيصة، وتتطلع من جديد إلى آفاق أعلى، وتكون قد ذخرت من الرصيد ما يكفي للوثبة فتفعلها.

والملاحظ في هذه الدورات والفورات، اتفاق يبعده التواتر عن أن يكون مجرد مصادفة. هذا الاتفاق هو وجود قيادة روحية في كل وثبة من وثبات الأمم والجماعات. قيادة تهتف للجماهير بنسيان الذات الفانية، وتضحية الرغبات القريبة. وتشير إليها نحو هدف آخر أبعد، وأفق آخر أرفع. وكلما بعد الهدف، وارتفع الأفق، كانت الاستجابة أكبر، والتلبية أسرع، والقفزة أعلى، والخطوة أوسع. وكلما كانت التضحية المطلوبة أوسع مدى، كان الدعاء أسرع إجابة.

فإذا كانت تضحية رغائب فرد في سبيل جماعة محدودة، كان عدد الملبين للدعوة قليلا. وإذا كانت تضحية جماعات في سبيل أمة على نسق الدعوات الوطنية ـ كانت التلبية أوسع. فأما إذا كانت تضحية الأفراد والجماعات والأمم في سبيل فكرة إنسانية ومبدأ أسمى، فإن الصدى يكون أبعد، والمدى يكون أفسح، والامتداد يكون أقوى.

هكذا كانت المسيحية، ثم هكذا كان الإسلام.

كانت المسيحية تطهيراً للنفس الإنسانية من رغائبها وشهواتها واستعلاء على اللذائذ الشخصية بالحرمان والتزهد، وفناء للذات الفرد في حب يسوع المخلص. لهذا صمدت للتعذيب والاضطهاد والاستشهاد. صمدت لبطش الدولة الرومانية، حتى استجابت لها الدولة الرومانية وظلت تصمد لما هو أقوى من الدولة وجندها وبطشها... تصمد للغريزة والشهوة والأنانية وهي أقوى من كل قوة. ظلت تصمد إلى أن نفدت الطاقة، وقل الرصيد. وطغت المراسم والشعائر على العقيدة والمشاعر. فاشترى رجال الدين بدينهم ثمناً قليلاً. وانفلت

الأفـراد إلى أنفسهم وذواتهم عاكفين عليها. ووقف نمو المسيحية، أو زادت شخوصاً ولم تزد ضمائر. اللهم إلا الفلتات التي كان ينبغ فيها أفراد ممن يدعون الناس إلى السماء فيستجيبون لهم بقدر ما في أرواحهم من رصيد. لم يرتفع مرة إلى القمة الأولى.

وهكـذا كان الإسـلام تجميعاً للطاقة الإنسانية كلها، وتوجيهاً لها إلى الهدف الأعلى، إلى معنى الإنسـانية الأسمى: المسـاواة والحـرية والكـرامة والعمل والرحمة والاستشهاد، وفي كل واحدة من هؤلاء كان يرتفع بالنفس الإنسانية إلى آفاقها العليا.

كان يرتفع بها في «المساواة» إلى نسيان النعرة الشخصية، والنعرة المحلية، والنعرة القومية. وجميع النعرات التي تمزق الإنسانية طوائف ونحلا، وتغرس العداوات والبغضاء وتعوق النمو البشري والتقدم الإنساني.

وكان يرتفع بها في «الحرية» إلى «المساواة» في آفاقها التي رسمنا. ثم إلى التحرر من الشهوات والمطامع المذلة أو الظالمة **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا. وإن الله على نصرهم لقدير﴾** «ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد من غلب نفسه».

وكان يرتفع بها في «الكرامة» إلى «المساواة» وإلى «الحرية». ثم إلى الترفع على عبادة العبيد، والخضوع للمخلوقين. **﴿إن العزة لله جميعاً﴾**.

وكان يرتفع بها في «العمل» إلى «المساواة» وإلى «الحرية» وإلى «الكرامة» جميعـاً. ثم إلى الإنتاج والتقدم بالإنسانية. «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره، فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس: أعطوه أو منعوه». «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه».

وكان يرتفع بها في «الرحمة» إلى ما فوق الذات، وإلى المشاركة الوجدانية مع الإنسانية، وإلى الشعور بالرحم الأقوى رحم البشرية: **﴿وفي أموالهم حق**

معلوم للسائل والمحروم﴾. ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾
«الفقراء عيال الله وأحبكم إلى الله أرأفكم بعياله»،

وكان يرتفع بها في «الاستشهاد» إلى ضمان هذه الفضائل جميعاً؛ وإلى الارتفاع عن الحياة المحدودة إلى حياة أخرى غير محدودة. وإلى الخلاص من أشد قيود الغريزة: من حب هذه الحياة المادية، إلى حب الفكرة المجردة.

بهذا الرصيد الروحي الفخم وثب الإسلام بحفنة من الرجال في الصحراء. شعث غبر. فارتفع بهم على هامات الامبراطوريتين الشائختين في فارس والروم. وبهذا الرصيد الضخم انطلقت الشعلة في الهشيم فأحالته ناراً ونوراً ينهض بالبشرية وينير لها الطريق. واندفع الإسلام يعبر الصحارى والجبال والبحار حتى يصل إلى سد الصين شرقا وإلى بحر الظلمات غرباً في مثل لمح البصر بالقياس إلى عمر الدهر. فكانت هذه إحدى معجزاته الكبرى.

وعندما انطلق الفاتحون في مشارق الأرض ومغاربها لم ينطلقوا للاستعمار والفتح، ولكن لنشر الفكرة العليا. وكلما هبطوا واديا حرروا أهله من مستعبديهم ومن حكامهم ومن ذات أنفسهم. حرروهم من السلطان الغاشم، والاستغلال القبيح، ومن الضلالات والأوهام أيضاً، وردوا لهم كرامتهم الإنسانية وساووهم بأنفسهم «إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

واختفت في فجر الإسلام نزعات العصبية، ونزعات اللون، ونزعات الجنس ونعرات العزة بغير الله. «كلكم لآدم، وآدم من تراب»!.

اندفع الإسلام بهذهالسرعة الخارقة، وبهذه القوة الجارفة، لأن الذين اندفعوا به قد ارتفعوا على أنفسهم، وتساموا على ذواتهم، وخفتت في أرواحهم سورة الفردية، وغلت فيها فورة الغيرية. ولأنهم تخلصوا من أوهام الحياة المادية المجسمة، وعشقوا فكرة روحية مجردة.. وصار لقاء الله في سبيل مبادئه، أحب إليهم من لقاء أهلهم وأبنائهم، ورغبوا في النعيم الموعود برضاء الله عن النعيم الذي يلذونه في هذه الحياة: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**

بأن لهم الجنة. يقاتلون في سبيل الله فيقتلون، ويقتلون. وعداً عليه حقاً في التوارة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله: فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم﴾.

هذه الروح الإسلامية العالية، وهذا المد القوي الغامر، كان أول من وقف في طريقه، وارتد به عن سبيله هو معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وإخوانهما وأمثالهما ممن تنكبوا طريق الفكرة الإسلامية الروحية النبيلة، إلى الرغبات والأطماع الذاتية الوبيلة.

وكانوا أول من رد العصبيات الصغيرة المحدودة إلى مكانها، وأول من برر الوسيلة بالغاية، وأول من طعن روح الإسلام في الصميم.

ولم تعد الروح الإسلامية إلى مداها العالي مرة أخرى بعد هذه الفعلة؛ ولكنها كانت ترتفع في فترات، ثم تعود بعدها إلى الهبوط. مع هذا فقد كان المد العالي الأول ـ وهو أعلى مد بلغته البشرية في تاريخها كله ـ كان كفيلا بأن تثب البشرية وثبة لا مرجع عنها مهما انحسرت موجتها الأولى فاستمر التيار إلى الأمام وجرف معه الإنسانية جميعاً.

الفكرة الروحية الضخمة تجد التلبية بمقدار ضخامتها. وتتسع موجتها بمقدار اتساعها. وقد ظل العالم الإسلامي بين مد وجزر منذ الموجة الأولى إلى أواخر القرن التاسع عشر، وكان قد وصل إلى دور انحطاط وخمول وإفلاس روحي ومعنوي.

وعلى عادة الروح الإسلامية في الانبعاث بين فترة وأخرى على مدى التاريخ رأيناها تنبثق في جمال الدين الأفغاني.

كان هذا الرجل شعلة محرقة مضيئة، ما مست روحا إلا ألهبتها وأضاءتها بحسب ما فيها من استعداد للهب والإضاءة.

وكان في هذه الروح رصيد ضخم، تزود به كل من لقي الرجل في بلاد الشرق جميعاً.

ثم استقر في مصر فترة فأودعها الشعلة المقدسة التي يحملها ومنذ ذلك الحين، وفي خلال السبعين عاما الأخيرة، نهضت مصر ثلاث نهضات عامة، وصلت فيها درجة اليقظة القومية حداً عالياً.

كانت النهضة الأولى نهضة «عرابي» لرفع شأن القومية المصرية، وإحلالها المكان اللائق بكرامة الشعوب.

وكانت النهضة الثانية نهضة «مصطفى كامل» لمقاومة الاحتلال الانجليزي، الذي لا يستند إلى أساس من الحق والعدل.

وكانت النهضة الثالثة نهضة «سعد زغلول» للثورة على هذا الاحتلال، وتقرير مصر في الاستقلال.

وليست هذه النهضات الثلاث بمنفصلة في حقيقة دوافعها ـ وإن فصلت بينها الأعوام ـ فهي جميعا تنبعث عن مصدر واحد، هو هذه الطاقة الضخمة التي انتقلت من شعلة جمال الدين قبل ثلاثة أرباع قرن في الشرق الإسلامي.

ولم تكن شعلة جمال الدين سياسية صغيرة محصورة في الأهداف الوطنية المحدودة. إنما كانت شعلة روحية، تلهب النفس الإنسانية فتتفتح منافذها جميعاً. وهذا هو الذي كفل لها الامتداد طويلا.

وقد ظلت الأمة المصرية تنفق من هذا الرصيد في ثوراتها السياسية الثلاث، تنفق وتستهلك. ولا تضيف شيئا الى الرصيد لأن الزعامات الثلاث، كانت بالقياس الى جمال الدين، ضيقة محدودة. تطوي أنفسها على مطالب قريبة محدودة، وليس لها رصيد روحي جديد.

وهنا كان موضع الخطر.

فالدفعة السياسية تفلح حين يكون وراءها رصيد روحي ضخم تنفق منه وتشتعل به، وهذا الرصيد يحفظ مستواها من الهبوط، ويصونها من الخمود، فأما حين تنفد هذه الطاقة أو تضعف فالفورة السياسية وحدها لا تكفي وهي مهددة

على الزمن أن تخبو.

ولا يصعب على الباحث أن يرد ما اعتور نهضتنا القومية الأخيرة من نكسة وفساد تتبدى آثارهما في النزعات الحزبية على حساب الوطن، وفي هبوط مستوى الصراع والأسلحة التي تستخدم فيه إلى نفاد الطاقة الروحية أو اضمحلالها، لأن رصيدها المذخور من عهد جمال الدين لم يتجدد أبداً.

وبالمثل يمكننا أن نرد كثيراً مما نراه من الانحلال الخلقي الفردي والاجتماعي إلى خمود الشعلة المقدسة في الوقت الذي تغمرنا فيه موجات من أوروبا المنحلة، التي خبت روحها من قرون، واستحالت آلة لا قلب لها ولا ضمير تنفق من رصيد قديم سينفد بعد حين.

والآن يجب أن نتنبه إلى هذا الخطر. إن اليقظة السياسية وحدها لا تبقى ولا تعيش، ولا يرتفع مستواها إلا إذا أمدتها طاقة روحية تنفخ فيها وتقويها، فأين هي القيادة الروحية لهذا الجيل؟ القيادة التي تخلق الشخصيات العظيمة كما خلقتها قيادة جمال الدين؛ وترتفع بالأفراد والجماعات عن المطالب الوقتية إلى المطالب العليا؟.

هنالك جماعات تدعو دعوات إسلامية. ولكنها جماعات هزيلة الروح، ناضبة، خامدة، أضعف من أن تنفخ في الجيل الهابط المنحل.

ترى يتمخض الانحلال عن قيادة عظمى كما عودتنا روح الإسلام على مدى الزمان؛ نرجو أن تكون هناك وثبة قريبة، وأن يظلنا موعدها المرموق.

لغة العبيد . . . !

س ١٥/ ١٩٤٧ ع ٧٠٩ ص ١٣٤

عندما قام الرئيس «لنكولن» بحركة تحرير العبيد في أمريكا لم يكن خصومه هم «السادة» وحدهم، بل كان بعض «العبيد» أيضا حرباً عليه! .

كان بعضهم يهرب من «الحرية» التي يهبها له «لنكولن» ليرتد إلى «العبودية» في بيت أسياده لأنه لا يطيق تكاليف الحرية ولا يستطيع مواجهة الحياة مستقلا .

ليس عبيد أمريكا وحدهم هم الذين يهربون من الحرية ؛ فعندنا في مصر، وفي سائر بلاد الشرق «عبيد» من نوع آخر. عبيد يتزيون بزي الأحرار، ولكن في أعماق نفوسهم تلك العبودية التي يهربون إليها بين الحين والحين! .

في عدد ديسمبر من مجلة «الكاتب المصري» قرأت للدكتور حسين فوزي مقالا بعنوان «جولة في ما بعد الحرب» جاءت فيه هذه الفقرات:

«شعـور واحد يتملكني في عشرة أيامي الأولى بلوندرة: شعور الإعجاب المتناهي بعاصمة الدولة التي أنقذت العالم من أعظم الشرور التي حاقت به في تاريخه الطويل. قلب الأمة الباسلة العنيد التي وقفت وحدها في مواجهة الأفاقين البرابرة الذين تحدوا البشرية جمعاء، والتي تلقت الضربات الوحشية تنصب عليها من السماء حمما ونارا، ومن قاع البحر حمما ونارا» .

«كنت فخورا بإنسانيتي ، إذ وجدت من هؤلاء الناس درعا وواقيا للحضارة. وسواء عندي أن يكون دفاع الإنجليزي عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته، ما دام هذا الدفاع في ذاته ذودا عن الحضارة والإنسانية قطعا» .

«أنا هنا بين رجال ونساء راضين بما حققوا. غلبوا على أمرهم، وطردوا من أوروبا والملايا، وقطعت عليهم أغلب طرقهم البحرية، وهاجمتهم الطيارات والقنابل الطائرة والغواصات في كل مكان، وانذروا بالفناء قبل الغزو، أو بالغزو فالفناء. ضيق عليهم أعداء البشرية الخناق، على حدود مصر والسودان، وفي العراق وكريت ومالطة والهند، ولكنهم ثبتوا كصخور مالطة ودوفر وجبل طارق، وردوا الضربات بأقل منها، فبمثلها، فبأضعاف أضعافها. ثم جاء دورهم في الغزو، فنزلوا بالقارة الأوروبية، وحرروا فرنسا والبلجيك وهولاندة وإيطاليا، ثم استعادو بورما والملايا، واكتسحوا قطعان الذئاب الفاشيستية يردونها إلى عقر أوكارها، حتى قضوا عليها. وهم اليوم يتحكمون في ديارها. إن قدموا الخير فبشعور إنساني كريم، وإن أعملوا الشر فبروح انتقام مفهوم. عادل أو غير عادل تبعا لمزاج من يريد أن يبدي حكما».

«والصورة التي انطبعت في رأسي لبريطانيا بعد إقامتي القصيرة في لوندرة هي صورة شعب عامل مجد، محب للنظام والعدالة، يحترم حكومته لأنه اختارها، ويتبرم بها تبرم الأخ بأخيه يوما أو بعض يوم. صورة شعب أمين في معاملاته، منطقي في عمله، دون أن يكون للمنطق حساب في تفكيره، يتولاه القلق على معاشه ومستقبله في العالم، مع تمسكه بالقيم الروحية المطلقة التي تترجم بالعلم والفن والأدب، والقيم الروحية في السياسة التي تترجم بالنظر الى العالم نظرة الشعب المسئول عن الخير العام للبشرية. وهذه في رأيي مقومات الحضارة في شعب كبير وأمة عظمى». ثم يقول عن فرنسا:

«لحظة اللقاء، لمست أقدامي أرض فرنسا بعد طول الغياب، (أُمّنا فرنسا)، كما يقول أهل لبنان، ومربيتنا باريس. لن أنساك يا فرنسا قبل أن أنسى نفسي. تقطع يداي قبل أن يغدر بك ربيبك يا باريس!».

كاتب هذه الفقرات مصري شرقي. وهو رجل أعرفه، وبيني وبينه مودة، ولكن مودات الأرض كلها لا تخدر ضميري وأنا أقرأ له هذه السطور!.

هذا الرجل مصري شرقي، يرى كيف تعامل انجلترا بلاده، وكيف تعامل فرنسا أمم الشمال الإفريقي، ويعرف كيف تصنع انجلترا في الهند، وكيف تصنع فرنسا في الهند الصينية... ثم يكتب كل هذا «الغزل» في الدولتين الاستعماريتين اللتين تدوسان قومه وأقرباءه بالأقدام!.

وأعجب شيء أنه كان «فخوراً بأنسانيته» في لوندرة! أية إنسانية تلك التي ترى الاستعمار ينتهك كل حرمات الإنسانية، ويمتص دماء المستعمرات، ويذل أهلها ويسلب أقواتهم وأرزاقهم، ويبقيهم في ربقة الجهل والتأخر والتوحش أحيانا حتى لا يفقد قدرته على إستغلالهم. ثم لا تغضب، ولا تتألم، ولا تثور؟.

فخور بإنسانيته. لأن الإنجليز يسلبون بلاده إنسانيتها. يفقرونها إلى حد أن يعيش الفلاح في مستوى أقل من مستوى الماشية. يسرقونها في أسهم قناة السويس، وفي ثمن قطنها وصادراتها لهم في الحرب وغير الحرب، وفي صفقات المناقصات العامة، ويستنزفون غذاءها وفاكهتها وملابسها في زمن الحرب بلا مقابل فينشرون فيها السل والأنيميا وشتى أمراض التغذية ثم يكادون يتنصلون من ديونهم القليلة. يستخدمونها في الحرب بكل قواها، ثم يتنكرون لها بعد الانتصار. أولئك هم السادة الذين يفخر العبيد بإنسانيتهم حينما يرونهم ينتصرون!.

فخور بإنسانيته. لأن الانجليز بعد نصف قرن في السودان لا يزال سكانه في الجنوب عرايا وسكانه في الشمال مبعدين عن إخوانهم في الجنوب. بدافع التعصب الديني. لأن دماء الصليبيين لا تزال تجري في دماء المستعمرين. وبدافع الاستغلال القذر لأن موارد الجنوب يجب أن تبقى للاستعمار!.

فخور بإنسانيته. لأن الهند بعد ثلثمائة عام في الحكم البريطاني، لا تزال أفقر الشعوب وأقذرها. وهذه القذارة تنفر الدكتور حسين فوزي وتطلق لسانه بشتيمة الهند والهنود في كتاب سابق له. ولكنها لا تحنقه إطلاقا على الحكم البريطاني القذر لأن السادة لا يحنق عليهم العبيد!.

فخور بإنسانيته. لأن الإنجليز حاربوا الصين مرة لسبب واحد، وهو أنها عزمت على تحريم تدخين الأفيون. حينما تقتضي «الانسانية» أن يظل الصينيون «مساطيل» لا يفيقون لأن «الانبساط» والانسجام خير يجب ان يتمتع به الصينيون.

فخور بإنسانيته. لأن الانجليز نشروا وباء الكوليرا في حربهم مع «البوير» في جنوب أفريقيا، فكانت هذه وسيلة «إنسانية» للانتصار في الحروب!.

فخور بإنسانيته. لأن فاجعة «دنشواي» كانت انتصاراً للروح الانسانية وللضمير الانساني في تاريخ الشعوب!.

فخور بإنسانيته. لأن الإنجليز في وجه التحرر لا في مستعمراتهم فقط، ولكن في مستعمرات سواهم، كما صنعوا في أندونسيا، حينما هبت تحارب الوحوش الهولنديين!.

فخور بإنسانيته. لأن الانجليز يرتكبون في فلسطين من الجرائم الإنسانية ما تقشعر له الأبدان في سنة ١٩٣٧. واليوم يجلدهم اليهود علناً فلا يتحركون!.

ثم «أمنا فرنسا، ومربيتنا باريس».. إلى آخر هذا الغزل السخيف!.

«أمنا فرنسا ـ كما يقول أهل لبنان ـ ولم يكن منصفاً فيقول: «كما كان يقول أهل لبنان»».

لقد تحرر لبنان من تلك العبودية يا دكتور فوزي. لقد تحررت أرضه، كما تحرر ضميره. ولعلك لا تذكر واقعة اعتقال رئيس الجمهورية وأعضاء حكومته في قلعة راشيا. تحرر لبنان فلم يعد ينطق تلك الكلمة المجرمة المخنثة: «أمنا فرنسا».

تحرر لبنان، وتحررت سوريا. وبقي أن تتحرر مراكش، وأن تتحرر تونس، وأن تتحرر الجزائر. وبقي أن تنكمش هذه الدولة المتبربرة في حدودها القومية.

فإذا شئتم حينذاك أن تلجأوا إلى حضن أمكم الحنون. فمع السلامة. ولتذهبوا إليها هناك أجمعين!.

واسمع هذه البرقية لمراسل الأهرام في نيويورك:

«تلقت جريدة (نيويورك تيمس) رسالة من السيد محمد أبو الأحرص سكرتير (لجنة المطالبة بحرية شمال أفريقيا) طالب فيها بإلحاح بوجوب رفع الستار (الحديدي) المضروب حول مراكش والجزائر وتونس وبالسماح للصحفيين الأجانب بحرية الدخول في هذه البلاد الثلاثة.

وذكر السيد أبو الأحرص الذي يقول إنه يمثل عشرين مليونا من سكان شمال إفريقيا أنه حدث في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٣ أن قتل عشرة آلاف وطني تونس وسجن أربعون ألفا من غير محاكمة؛ وأن عبدالمنصف باي تونس عزل ونفي مع أن الحلفاء يملكون من الوثائق ما يثبت أنه كان يقاوم سلطات الاحتلال الألمانية مقاومة شديدة.

وزعم أخيراً أنه في يوم النصر في سنة ١٩٤٥ ذبح أربعون ألفا من الجزائريين وسجن مائتا ألف ونهبت بيوت ثلاثة آلاف من الوطنيين».

وعلام كل هذا الغزل؟ و «شعور الإعجاب المتناهي»؟ لأن هذه الأمة، إنجلترا «وقفت وحدها في مواجهة الأفاقين البرابرة الذين تحدوا البشرية جمعاء»!.

أي أفاقية؟ وأي برابرة؟ يا دكتور فوزي؟ وأية بشرية تلك التي تحدوها؟.

الأفاقون والبرابرة هم أولئك المستعمرون الذين يمتصون دماء البشرية، ليتوافر للانجليزي الزبد والويسكي والديكة الرومية في عيد الميلاد!.

الأفاقون والبرابرة، هم الذين يتسببون في إصابة مليون مصري بالسل في زمن الحرب، لأنهم يسرقون المواد الغذائية مقابل عملة ورقية لا رصيد لها، ثم يتنكرون لمصر وللدين المصري الزهيد!.

الأفاقون والبرابرة هم الذين يجلدهم اليهود علنا في الشوارع، فلا يحركون ساكنا، بينما يمثلون بالجثث أشنع تمثيل حينما يهب العرب للمطالبة بحقهم المشروع!.

ولقد كان جائزاً أن تنتشر هذه الأسطورة: أسطورة أن الانجليز غير الألمان وأن هؤلاء وحدهم أفاقون وبرابرة، وأن الإنجليز حماة الإنسانية المتحضرون. حينما كانت رحى الحرب دائرة. حينما كان الذهب الانجليزي ـ أو البنكنوت المزيف ـ يتدفق على مراكز الدعاية، وفي جيوب الصحفيين والكتاب، فتنطلق الألسنة بالحمد والثناء لحماة الديمقراطية، وللحرية وتنطلق بالهجاء والاتهامات للبرابرة الألمان، وحينما كانت الدعاية الانجليزية تملأ الآفاق ببشريات الحرية العالمية، والأمن من الجوع والخوف والمرض والجهل. وحينما كان المخدوعون يستغرقون في الأحلام اللذيذة على صدى هذه الوعود الجميلة.

ويومها كم من أصوات ارتفعت في محطات الإذاعة بالشرق، وكم من أقلام انطلقت في صحافة الشرق، تمجد أولئك الملائكة الأطهار الذين يريقون دماءهم في سبيل البشرية المهددة بالوحوش النازيين!.

ذلك أن الذهب الإنجليزي ـ أو البنكنوت المزيف ـ كان من القوى والتدفق بحيث ينطق البكم، ويسمع الصم. وذلك أن الوعود المعسولة خدعت بعض المخدوعين، فتاهوا في أحلام الحرية والاستقلال والجلاء. وإن كان ضمير الأمة لم ينخدع لحظة واحدة، لأنه كان أصدق حساسية من أولئك المذيعين والصحفيين والكتاب!.

أما اليوم، فكيف تبقى عين واحدة مغلقة. اليوم وقد خلع الانجليز القفاز الحريري وارتدوا جلد النمر. اليوم ما الذي يخدع مصرياً واحداً، أو شرقياً واحداً، فيطلق لسانه بمثل هذا الغزل العجيب؟!.

وفرنسا، فرنسا أم الحرية، كما يقول عشاقها، كيف بعد حادث راشيا، وكيف بعد مؤامرتها على قتل وزراء سوريا ونوابها في البرلمان، تلك المؤامرة

القذرة التي لم تتم بسبب وقوع وثائقها في يد الحكومة السورية في الوقت المناسب.

فرنسا التي تذبح في يوم النصر أربعين ألفاً من الجزائريين. والتي تقيم سوراً حديدياً حول الشمال الإفريقي كله، يمنع عنه العلم والنور والحرية والتقدم. فرنسا هذه كيف يختلج بحبها ضمير إنساني واحد، بله أن ينطلق لسان لها بمثل هذا الغزل العجيب!.

وليس المتغزلون في انجلترا وفرنسا وحدهم هم عبيد الشرق المنكوب! هنالك من يتغزل في «روسيا» في هذه الأيام. وحقيقة إن بعدنا عن فم الدب بعض الشيء قد يجعلنا أقل حنقاً عليه. ولكن هنالك من ينسى مصريته ليذكر «روسيا» العزيزة! وتلك لغة العبيد.

لقد سمعنا طويلا: أمنا فرنسا، أمنا انجلترا، أمنا روسيا! بابا ستالين! كما سمعنا من يقول: تقدم يا روميل! أيام العلمين!.

ولقد آن أن يخفت صوت العبودية في هذا كله، ليرتفع صوت واحد: أمنا مصر. عمنا الشرق. أبونا النيل.

أيها العبيد! تحرروا مرة من لوثات الضمير.
أيها الدعاة في الحرب وغير الحرب!
كفروا عن جريمتكم وعودوا مصريين وشرقيين!..

إن أوروبا المتبربرة قطيع واحد من الوحوش الواغلة في دماء البشرية، المعتدية على كرامة الإنسانية، فليس بأنسان من لا يغضب لكرامته ولكرامة «الانسان» التي يذلها الاستعمار في كل مكان. وهذه البشرية لن ترفع رأسها إلا يوم أن تسحق هذه اللعنة البغيضة. لعنة الاستعمار والمستعمرين. ونحن في الشرق لا ينبغي أن يقوم بيننا وبين هذا الغرب المتبربر سلام، إلا حين تنكمش هذه الوحوش الآدمية في داخل حدودها أو في داخل أقفاصها!.

وما يجوز أن يرتفع صوت واحد بالثناء على قوم حاربوا لأنفسهم، دفاعا عن

الزبد الذي يأخذونه من بين شفتي العالم، ليستمتعوا، ويصاب بالسل آخرون.

إن هؤلاء المستعمرين هم لعنة هذه الأرض التي لا يجوز أن نضمر لها غير الحقد والضغن. فهم الذين يثيرون الحروب العالمية ويتمسحون في الألمان وغير الألمان.

والألمان مثلهم.. كلهم سواء.. وحوش آدمية متبربرة، تتبدى في أزياء من الحضارة خادعة. فلن تكون حضارة صادقة مع ضمير متعفن كضمير الاستعمار.

الحقد! الحقد المقدس أيها الشرق المنكوب هو وحده المنقذ حين يفتح فاه، فيلتهم قطاع الطرق اللصوص

أما أولئك المتغزلون في أوروبا فليتواروا حياءً، فليس الوقت وقت الغزل، بل الساعة ساعة الصراع ألا ولتنطلق من كل فم وقلب صيحة واحدة مدوية: الموت للاستعمار والويل للمستعمرين!.

والآن أيها العرب

أما تزالون تنتظرون؟!

س ١٥/ ١٩٤٧ ع ٧١١ ص ١٩٠

قصة العرب مع الاستعمار الانجليزي في فلسطين هي بعينها قصتهم معه في كل بلد عربي آخر؛ وخديعة الاستعمار الانجليزي للعرب في فلسطين هي خديعته الخالدة لكل بلد عربي آخر.

وتسميتها قصة هي في الواقع تجوز، فهي في حقيقة الأمر مأساة أليمة متكررة، وأشد ما يؤلم فيها هو هذا التكرار الذي لا يفتح عيون العرب على الخديعة، ولا يغير طريقهم التي سلكوها فخابوا في كل مرة، ولا يجنبهم الجحر الذي لدغوا منه بدل المرة مرات.

هي مأساة الثقة بالضمير الانجليزي، بل مأساة الاعتقاد بأن هناك ما يسمى الضمير الانجليزي! وذلك هو الجحر الذي لدغ العرب منه مرات، في كل بلد عربي، ثم هم مع ذلك لا يتوقونه، فيصدق عليهم الحديث: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وحاشا لهؤلاء أن يكونوا مؤمنين، وهم في كل يوم يلدغون!.

حفنة من الساسة قعدت بهم عن الجهاد مشقات الجهاد، فاختاروا لشعوبهم الطريق الأهون، والخطة السهلة؛ وراحوا يضيعون أوقات الشعوب بالمؤتمرات والمفاوضات والمحادثات؛ ودعوا الشعوب للهدوء والانتظار في ارتقاب النتائج من هذه الطرق الهينة المأمونة.

وكان من غضب الله على هذه الشعوب أنها سمعت كلام أولئك الساسة الضعفاء المهازيل، واستجابت لدعوة الراحة والدعة، ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

تكررت هذه المأساة في مصر، كما تكررت في فلسطين، كما تكررت في كل بلد عربي دنسته أقدام المستعمرين الطغاة. وهب الشعب في مصر، كما هب في فلسطين، كما هب في كل بلد عربي يكافح هذا الاستعمار البغيض، يكافحه كما ينبغي أن يكافح. يكافحه بالدم المبذول، والروح المسترخصة، والتضحية بالنفس والمال... وكان هذا هو الطريق الصحيح. الطريق الذي سلكته من قبل الولايات المتحدة، وإرلندا الحرة؛ كما سكلته أخيراً سورية الأبية، ولبنان الأشم.

وبينما الشعوب في فورتها، والتضحية في عليائها، صاح عليها الأغربة المشئومة: حسبك أيتها الشعوب فقد أديت واجبك حسبك ودعي الأمر لأولي الأمر. دعيه للساسة يعالجونه بالحكمة والديبلوماسية، بعد ما عالجته بالدماء والتضحية!.

ومنذ هذه اللحظة المشئومة وقضايا العرب تخسر في كل مكان، ومنذ هذه اللحظة المشئومة والاستعمار يكسب في كل مكان. لقد التقط الاستعمار أنفاسه بعد الجهد العنيف، بعدما كاد يسلم للشعوب بحقها المغصوب. ولكن لماذا يسلم، وهؤلاء جماعة من هذه الشعوب يخدرونها لتنام، ويروّحون على وجوهها لتنعس، ويلوحون لها بالأحلام الجميلة لتستغرق في الأحلام الجميلة؟.

والآن أيها العرب. أما تزالون تنتظرون.

فأما مصر فقد هداها الله إلى نصف الحق، هداها إلى قطع المفاوضات والمحادثات والمداولات. هداها إلى الخروج من تلك الدائرة البغيضة التي دارت فيها دورات خمسة وعشرين عاماً كما يدور ثور الساقية، أو حمار الطاحون!.

ولكنه لم يهدها بعد إلى النصف الآخر. لم يهدها إلى أن زمام الأمر في يدها هي لا في يد هيئة الأمم المتحدة، ولا في يد مجلس الأمن، ولا في يد محكمة العدل الدولية، ولا في يد كائن من كان على ظهر هذه الأرض إلا المصريين!.

لم يهدها إلى أنها تخطو الى منتصف الطريق عندما تلجأ الى هذه الهيئات الدولية؛ فأما نصفها الآخر. نصفها المؤدي الى الغاية؛ فهو أن تعزم على الاستقلال في ضميرها، وأن تنبذ العبودية من روحها، وأن تطهر دماءها من لوثة الذل الذي فيها. وأن تنبز على سواء إلى هذا الاستعمار فتواجهه بنفسها مواجهة من اعتزم وصمم وانتهى.

ولو فعلت مصر لنظرت في تطهير المصالح المصرية من كل موظف انجليزي منذ هذا الصباح. وفي تطهير الاقتصاد المصري من كل ذي نفوذ انجليزي منذ هذه الليلة. وفي تطهير التعليم المصري من كل أثر انجليزي دسه الاستعمار على نظمه وبرامجه وكتبه، وحقائقه التاريخية والجغرافية. وفي تطهير الحياة المصرية من كل ما هو انجليزي مهما اشتدت حاجتنا إليه.

ولو فعلت مصر لرفض أي مصري أن يخاطب أي انجليزي على ظهر الوادي ولو للسلام العابر. ولأغلقت منذ اللحظة ذلك النادي العجيب الذي يسمى النادي المصري الانجليزي، ولأعدمت جميع المصورات الجغرافية التي تكتب ذلك العنوان الآثم: «السودان المصري الانجليزي» وجميع كتب التاريخ في أيدي التلاميذ التي تتحدث عن «الاصلاحات التي تمت في عهد الاحتلال»!.

ولو فعلت مصر لأطلقتها من الأعماق صيحة دعاء مدوية للبرابرة المستعمرين. ولأعلنت أنها ستلقن ناشئتها ذلك العداء، وستسقيهم إياه مع الرضاع!.

ولو فعلت مصر لأرسلت دعاتها كالمبشرين في كل مكان على ظهر هذه

الأرض يفضحون مساوىء الاستعمار، ويتحدثون عن مآسيه الوحشية، ويكشفون للعالم عن فجائع دنشواي والعزيزية و ٤ فبراير، وعشرات من هذه المآسي التي يقشعر لها ضمير الانسانية في كل مكان.

ولـو فعلت مصـر لسكتت صيحة الحزبية الحقيرة الخسيسة التي تهتف بها الأحزاب التي شاخت، ويلوكها الجيل الذي أنتن! ويرددها الرجال الذين لم ينسحبوا في الوقت المناسب من الميدان!.

ولو فعلت مصر لأدرك الانجليز من فورهم أنها جادة في هذه المرة لا هازلة، ولاشتروا منها مصالحهم في العالم وسمعتهم بالثمن الذي تريد؛ ولوجدوا ارضاء مصر أكسب لهم من تشبثهم باستعمارها وقد صرح العداء!.

ولكن مصر تقف في منتصف الطريق. تقف لأن الجيل الذي يقودها ـ في الحكومة وفي المعارضة على السواء ـ هو الجيل الذي شاخ. الجيل الذي دعاها في فورة الحمـاسـة إلى الهـدوء... الجيل الذي أفسد عليها طريقها حينما اختارت الطريق الأسهل. طريق المفاوضة والمحادثة والمؤتمرات!.

وأما فلسطين فقد فارت فورتها في وجه الظلم الذي لم تعرف له البشرية شبيهاً. وكانت آخر فوراتها عام ١٩٣٨. ورأى الانجليز أن الأمر جد لا هزل، وأن الأمة العربية هناك لا تنوي التراجع، ولا تبغي المهادنة، فلجأوا إلى وسيلتهم الخالدة. وسيلتهم التي جربوها في مصر من قبل فعادت عليهم بالخير والأمن والهدوء، دعوا فلسطين إلى مؤتمر المائدة المستديرة! ودعوا معها العرب جميعاً. ومع الأسف صدقت فلسطين، وألقت السلاح، وانتظرت نتائج المائدة المستديرة!.

ومن الإنصاف ان نذكر أن الخديعة في هذه المرة لم تأت عرب فلسطين الأباة من جهة الانجليز، إنما جاءتهم من جهة من يسمونهم الزعماء، الزعماء هنا في مصر وفي بعض البلاد العربية. وخدع العرب الأباة بذلك الكتاب الأبيض

الـذي أسفر عنه المؤتمر. وجاءت الحرب فوقفوا في صف انجلترا هم وسائر العرب في بلاد العرب.

وقيل لهم: إن الانجليز سيعرفون لهم فضل مناصرتهم في ساعة العسرة فصدقوا. وكانوا بلهاء حينما صدقوا! واشترك في خديعتهم أولئك الساسة والأدباء والكتاب والصحفيون المغفلون والمأجورون الذين راحوا يشيدون بالديمقراطية، والمدافعين عن الديمقراطية!.

ثم وضعت الحرب أوزارها، وهب الإرهابيون اليهود يجلدون الانجليز في الشوارع، وينسفون مقر القيادة الانجليزية، ويخطفون القضاة والقواد؛ ويطلقونها صيحة مدوية: فلسطين لليهود!.

وقيل للعرب: اسكتوا واصمتوا واطمئنوا. فقد وقع الصهيونيون في شر أعمالهم، وسينالون عداء الانجليز، ما في ذلك شك، وسيجازيهم الانجليز على ذلك بالتمكين للعرب في فلسطين!.

وقيل للعرب: حذار من أن تكونوا حمقى كاليهود. كونوا «عقلاء» أيها العرب لتكسبوا مودة الانجليز. قالها لهم أولئك الساسة الذين اختاروا من أول الأمر طريق المفاوضات والمحادثات والمؤتمرات، استسهالا واستغلالا!.

وصدق العرب المساكين، منطق ساستهم المحنكين! وباتوا «عقلاء» عقلاء جداً، لا يحركون ساكناً، ولا يرفعون صوتاً ولا يعكرون صفواً.

وبدأ الانجليز يحنقون على الإرهابيين، ويميلون للعرب.. فألغوا سياسة الكتاب الابيض، وسمحوا بالهجرة اليهودية بعدما انتهى الأجل الذي حدده للهجرة ذلك الكتاب! ثم دعوا العرب واليهود إلى مؤتمر في لندن لوضع حل حاسم لقضية فلسطين.

ولج اليهود «المجانين» في إثارة أحقاد البريطانيين. ولج العرب العقلاء في الصمت والهدوء.. ثم إذا الانجليز يزدادون مع اليهود حنقاً ويزدادون للعرب

ماذا خسر العالم

بانحطاط المسلمين

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٤٧ ص ٩٦٥

ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم، وثقتهم بماضيهم، ورجاءهم في مستقبلهم! ما أحوجهم ان يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذي يحملون اسمه ويجهلون كنهه، ويأخذونه بالوراثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة!.

وهذا الكتاب الذي بين يدي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لمؤلفه «السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي» من خير ما قرأت في هذا الاتجاه، في القديم والحديث سواء.

إن الإسلام عقيدة استعلاء، من أخص خصائصها أنها تبعث في روح المؤمن بها إحساس العزة في غير كبر، وروح الثقة في غير اغترار، وشعور الاطمئنان في غير تواكل. وأنها تشعر المسلمين بالتبعة الانسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة للقطعان الضالة، وهدايتها إلى الدين القيم والطريق السوي، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**... **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾**.

وهذا الكتاب الذي بين يدي، يثير في نفس قارئه هذه المعاني كلها، وينفث في روحه تلك الخصائص جميعها. ولكنه لا يعتمد في هذا على مجرد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعا؛ ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضا عادلا مستنيرا؛ ويتحاكم في القضية التي يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمير، فتبدو كلها متساندة في صفه وفي وصف قضيته، بلا تمحل ولا اعتساف في مقدمة أو نتيجة.

وتلك مزية الكتاب الأولى.

أنه يبدأ فيرسم صورة سريعة ـ ولكنها واضحة ـ لهذا العالم قبل أن تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى. يرسم صورة لهذا العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من الهند والصين إلى فارس والروم، صورة المجتمع وصورة الضمير في هذه الدنيا العريضة في الجماعات التي تظلها الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية والتي تظلها الديانات الوثنية كالهندوكية والبوذية والزرادشتيه. وما إليها..

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفا بينا، لا يتعسف المؤلف فيه ولا يستبد؛ إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين، وممن يدينون بغير الإسلام، فلا شبهة في أن يكونوا مغرضين له، وللدور الذي أداه في ذلك العالم القديم.

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية، ويتعفن ضميره، وتأسن روحه؛ وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية؛ وتجتاحه موجة الترف الفاجر والحرمان التاعس؛ وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيها ولا روح، وبخاصة المسيحية التي يصورها مستر «ج. هـ. دينسون» صورة دقيقة في كتابه (Emotions as the Basis of Civilization) فيقول:

«في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى؛ لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام.

أما النظم التي خلفتها المسيحية، فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام. وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله. واقفة تترنح، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب.. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه[1]».

.. فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم في جاهليته هذه بدأ يعرض دور الإسلام في حياة البشرية، دوره في تخليص روح البشرية من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، ودوره في تخليص المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان، ودوره في بناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والايجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة.

كل أولئك في إبان الفترة التي كانت القيادة فيها للإسلام في أي مكان، والتي كان الإسلام فيها يعمل، وهو لا يستطيع ان يعمل إلا أن تكون له القيادة، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء، ومنهج قيادة، وشرعة ابتداع لا اتباع.

ثم تجيء الفترة التي فقد الإسلام فيها الزمام، بسبب انحطاط المسلمين، وتخليهم عن القيادة التي يفرضها عليهم هذا الدين، والوصاية التي يكلفهم بها

---

(١) يعني محمدا ﷺ.

على البشرية، والتبعات التي ينوطها بهم في كل اتجاه.

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادىء دينهم، ونكصوا عن تبعاتهم؛ وما نزل بالعالم كله من فقدان لهذه القيادة الراشدة، ومن انتكاس إلى الجاهلية الأولى. ويرسم خط الانحدار الرهيب الذي ترتكس فيه الإنسانية في ذات الوقت الذي تفتح فيه آفاق العلم الباهرة. يرسم هذا الخط رسما حيا مؤثرا عن طريق التأمل الفاحص، لا بالجمل النارية والتعبيرات المجنحة. فالحقائق الواقعة كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق.

ومن خلال هذا الاستعراض يحس القارىء بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الانسانية، وردها إلى الهدى الذي انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية الى المعرفة. ويشعر بالقيمة الكلية لوجود هذه القيادة في الأرض، وبمدى الخسارة التي حلت بالبشر جميعا، لا بالمسلمين وحدهم في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل القريب والبعيد.. كذلك يثور في نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم على ما فرط، وروح الاعتزاز بما وهب، وروح الاستشراف إلى القيادة التي ضيع.

ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائما عن النكسة التي حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة «الجاهلية».

وهذا تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام، والروح المادي الذي سيطر على العالم قبله، ويسيطر عليه اليوم بعد أن تخلى الإسلام عن القيادة.. إنها «الجاهلية» في طبيعتها الأصيلة: فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة، ولكنها طابع روحي وعقلي معين. طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية كما أرادها الله، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة، والنزعات الهابطة، وهذا ما تعانيه

البشرية اليوم في حالة الارتقاء الآلي، كما كانت تعانيه من قبل في أيام البربرية الأولى.

«فرسالة العالم الاسلامي هي الدعوة الى الله ورسوله، والإيمان باليوم الآخر. وجائزته هي الخروج من الظلمات الى النور ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فقد افتضحت الجاهلية، وبدت سوآتها للناس، واشتد تذمر الناس منها. فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام، لو نهض العالم الإسلامي، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وعزيمة، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تقف العالم من الانهيار والانحلال..» كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب.

وأخيراً فإن الخصيصة البارزة في هذا الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في ميحطها الشامل، وهو لهذا يعد نموذجا لا للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجا كذلك للتأريخ، كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية.

لقد مضى الأوربيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية، متأثرين بثقافاتهم المادية، وفلسفتهم المادية، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية، والعصبية الدينية - شعروا بذلك أم لم يشعروا - ومن ثم وقعت في تأريخهم أخطاء وانحرافات، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة في هذه الحياة، لا يستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها، ونتيجة تعصبهم الذي يجعل أوروبا في نظرهم هي محور العالم ومركزه دائما، ولإغفالهم العوامل الأخرى التي أثرت في تاريخ البشرية، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوربا.

ولقد درجنا نحن على أن نتلقف التاريخ من أيدي أوربا كما نتلقف كل شيء آخر، نتلقفه بأخطائه تلك، وهي أخطاء في المنهج بإغفال قيم كثيرة

وعوامل كثيرة، وأخطاء في التصوير نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية، وأخطاء في النتائج تبعا للاخطاء المنهجية والتصورية.

وهذا الكتاب الذي بين يدي نموذج للتاريخ الذي ينظر للأمور كلها، وللعوامل جميعها، وللقيم على اختلافها، ولعل القارىء لم يكن ينتظر من رجل مسلم واثق بقوة الروح الإسلامي متحمس لرد القيادة العالمية إليه. . أن يتحدث عن مؤهلات القيادة، فلا ينسى بجوار «الاستعداد الروحي» أن يلح في «الاستعداد الصناعي والحربي» و «التنظيم العلمي الجديد» وأن يتحدث عن الاستقلال التجاري والمالي.

إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية. وبهذا الإحساس المتناسق سار في استعراضه التاريخي، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء. ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجا للتأريخ كما يجب أن يتناوله المسلمون، مستقلين عن التأثر بالطريقة الاوربية، التي ينقصها هذا التناسق، وهذه العدالة، وهذا التحقيق.

وإنه ليسعدني أن أتحدث عن هذا الكتاب بذلك الإحساس ذاته، وأن أسجل هذه الظاهرة وأنا مغتبط بهذه الفرصة التي أتاحت لي أن أطلع عليه في العربية[1]. . اللغة التي آثر صاحبه أن يكتبه بها، وأن ينشره في مصر للمرة الثانية: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد».

(١) المؤلف هندي وهو عضو ندوة العلماء بها ومنها لقبه «الندوي».

الكتلة الاسلامية

في الميزان الدولي

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٤٩ ص ١٠٢١

هذه الكتلة المتصلة الحدود من شواطىء الأطلنطي إلى شواطىء الباسيفيكي؛ والتي تضم مراكش وتونس والجزائر وليبيا، ومملكة وادي النيل وسوريا ولبنان والعراق والأردن والمملكة العربية واليمن، وتركيا وإيران وأفغانستان وباكستان واندونسيا.

هذه الكتلة التي يربى عددها على مائتين وخمسين مليوناً من السكان؛ والتي تملك أغنى منابع البترول والمواد الخامة؛ والتي تتحكم بمواقعها الاستراتيجية في مواصلات العالم.

هذه الكتلة تملك أن يكون لها وزن، حتى ولو كانت مجردة من السلاح؛ وتملك أن تجعل كل كتلة من الكتلتين المتنازعتين تفكر مرتين قبل الإقدام على حرب، تجتاح فيها هذه المناطق الشاسعة، التي تقوم حاجزا بين الكتلتين لا تلتقيان إلا باجتياحه.

هذه الكتلة تملك هذا كله إذا وصلت درجة اليقظة فيها إلى الحد الذي تقف به في وجه الدعايات المزيفة التي يقوم بها دعاة كل من الكتلتين فيها. . إذا هي عرفت كيف تجبر حكامها والمستغلين فيها على انتهاج سياسة قومية خالصة. . إذا هي نظمت اقتصادياتها وإمكانياتها وخلصتها من الاستعمار الاقتصادي الذي يمكن له فيها حكامها أو أصحاب رؤوس الأموال المستغلين

الذين لا يهمهم وطن ولا قومية ولا دين.

وأنا أكتب هذا للشعوب لا للحكومات: أكتبه للجماهير لا للمستغلين، وأنا مؤمن بالشعوب والجماهير في تلك الرقعة العريضة من الأرض. وأياما كانت عوامل الضعف والفرقة، وعوامل الضغط والكبت، فإن واجب الدعاة ألا يفقدوا إيمانهم بالشعوب، فالشعوب تملك متى تريد. تملك أن تسبب المتاعب للأقوياء ولحلفائهم من أهل البلاد. تملك أن تكلف هؤلاء وهؤلاء عنتا دائما لا يأمنون معه الاندفاع، ولا يحمون ظهورهم معه من الاضطراب والانتقاض.

ولقد آن للشعوب أن تضع حدا لذلك العبث الآثم الذي يزاوله حكامها والمستغلون فيها، وأن تقرر مصائرها بأيديها، وتقطع كل يد تعبث بهذه المصائر لغاية خاصة لا تعني هذه الشعوب.. لقد ضاعت فلسطين على مذبح المنافسات بين عدة بيوت حاكمة، لا لأن قوى الأمة العربية - أيا كانت ضعيفة - عجزت عن الوقوف أمام حفنة من اليهود، مهما جاءتهم النجدة من الكتلة الشيوعية والكتلة الرأسمالية. ولو كان في مجموعة الشعب العربي من الحيوية إذ ذاك ما تحطم به أطماع الطامعين، وتضرب على أيديهم العابثة، ما وقعت الكارثة.

إنني أهتف بالجماهير في تلك الكتلة المترامية الأطراف أن تفتح أعينها فلا تسمح مرة أخرى بتمثيل المأساة، ولا تستجيب للمستنفعين فيها، حين يريدون أن يقودوها كالذبيحة لتقف مع هذه الكتلة أو تلك، بينما هي تملك أن تسبب الربكة والاضطراب للكتلة التي تدوس أرضها، وتدوس كرامتها؛ وبذلك تملك ان يتمتع العالم بفترة سلام أخرى، تنشأ من تردد كل من الكتلتين في أن تكون البادئة، وأن تكسب بذلك عداء الكتلة الثالثة.

وليس في هذه الدعوة التي أدعوها هنا مستحيل. ما يراها مستحيلة إلا الذين يختانون أنفسهم، ويحتقرون ذواتهم، وييأسون من الشعوب التي تملك كل شيء حين تريد.. إنني يائس من الزعماء، يائس من الحكومات، يائس من مئات أو ألوف خدعتهم الدعاية الرأسمالية أو الدعاية الشيوعية.. ولكنني لست

يائساً من الشعوب ـ على ما يجثم عليها من جهل ومن ضغط اقتصادي، ومن قنوط في بعض الأحيان. إن هذا كله إلا غاشية سطحية تزول. وستقف هذه الشعوب على قدميها يوما، وستحطم كل من يعترض طريقها من المستعمرين والمستغلين. . ونحن في الطريق.

غير أنه يبقى سؤال هام: على أي أساس تقوم هذه الكتلة الثالثة؟ وما هي مقوماتها الأصلية؟.

إن أول ما يخطر على البال أن تقوم هذه الكتلة على أساس من وحدتها الجغرافية والاقتصادية، وعلى أساس من مصلحتها المشتركة في اتقاء الحرب الثالثة التي ستدمرها تدميرا.

ولكن هنالك أساسا آخر أشمل وأوفى؛ يتضمن هذه المقومات السابقة، ويزيد عليها عنصر آخر له أثره العميق في النفس البشرية. ذلك هو الفكرة المشتركة عن الحياة، تلك التي تنبع منها كل مقومات الحياة الأخرى.

لقد قال «ماك أرثر» قائد الحملة الرأسمالية السابق في كورية: إن الحرب في كورية حرب مذهبية؛ وهو يعني أنها حرب بين فكرتين: فكرة الشيوعية وفكرة الرأسمالية. وهذا يقتضي أن تقوم الكتلة الثالثة حين تقوم على أساس فكرة مستقلة عن الشيوعية وعن الرأسمالية جميعا، كي تستطيع أن تمسك بيدها الميزان، وأن يكون لها هدف مستقل عن هؤلاء وهؤلاء، وفكرة ثالثة تدعو إليها الفريقين، ولا تضيع هي في غمار إحدى الكتلتين.

ودعاة الشيوعية كدعاة الرأسمالية، يحاولون أن يقنعونا بشدة: أن ليس في هذا الكون إلا فكرتان ونظامان، وأنه لا يمكن تصور فكرة ثالثة ونظام ثالث. فإلا تكن شيوعيا فأنت رأسمالي، وإلا تكن رأسماليا فأنت شيوعي، وهو تفكير متحجر مضحك. تفكير الذين لا يرون بعيونهم ولا يسمعون بآذانهم، إنما يتلقون ما يقوله لهم هؤلاء أو هؤلاء تلقي الحاكي أو الببغاء، ونحن لسنا بملزمين أن نستحيل جميعا آلات ولا ببغاوات!.

إننا نعلم ـ الآن على الأقل بعدما صدرت عدة مؤلفات حديثة تكشف لنا عن النظام الاجتماعي الاسلامي، وتشرح لنا فكرة الإسلام الأصيلة عن الحياة ـ أن هذا النظام ليس هو النظام الرأسمالي كما تعرفه الكتلة الغربية، وليس هو النظام الشيوعي كما تعرفه الكتلة الشرقية؛ إنما هو نظام اجتماعي مستقل، يقوم على أساس فكرة عن الحياة مستقلة. وقد تتشابه بعض جزئياته أحيانا مع النظام الرأسمالي، كما تتشابه بعض جزئياته أحيانا مع النظام الشيوعي. ولكنه ليس أحدهما بكل تأكيد. فهو نظام آخر ذو مقومات أخرى. ميزته أنه يحقق مزايا النظامين ويتقي عيوبهما في الوقت ذاته.

ولكنني أكتفي بالإشارة إلى مسألة واحدة تثبت كيف يجمع النظام الإسلامي بين مزايا الرأسمالية والشيوعية وكيف يتقي عيوبهما جميعا.. تلك هي مسألة الملكية الفردية.

إن الرأسمالية لتطلق حق الملكية الفردية، وتدع رؤوس الأموال تتضخم، فلا تتدخل حين تتدخل إلا بفرض الضرائب على الأرباح، بنسب عالية كما اضطرت إلى ذلك أخيرا، وميزة هذا النظام أنه لا يقاوم الحوافز البشرية الطبيعية للتملك، ولا يضعف الرغبة في العمل الى أقصى حد وبذل الطاقة الى أقصى حد، ما دام الفرد يحس أن جهده له وعافيته إليه. وعيبه أنه يدع الرغبة الجامحة في الكسب تطغى على المصالح الجماعية وتدوس على حقوق المنتجين الحقيقيين وهم العمال، كما تدفع بالدولة الى الحرب لضمان الأسواق للتصريف، وضمان الخامات بسعر رخيص.. إلى آخر عيوب الرأسمالية التي تشنع بها الشيوعية.

وإن الشيوعية لتصادر حق الملكية الفردية، وتضع كل الموارد ومرافق العمل في يد الدولة.. وميزة هذا النظام أنه يمنع كل عيوب الرأسمالية التي أسنفنا. ولكن عيبه أنه يقاوم الحوافز البشرية الطبيعية، ولا يحفز الفرد إلى بذل أقصى طاقة ما دام الحد الأعلى لما يحصل عليه هو مجرد كفاية.. وقد اضطر ستالين أن يخرج على قاعدة رئيسية من قواعد الماركسية فيبيح التفاوت بين الأفراد

بحسب تفاوت الكفايات، ويبيح نوعاً من الملكية الفردية الشخصية، وبدأت الشيوعية بذلك تكذب نفسها في هذا وهي في أيامها الأولى! ـ كما أن عيب هذا النظام هو مقاومته لحرية الفرد في العمل، وحريته في الاعتقاد، وحريته في السلوك، وهي حريات قد يصبر جيل أو جيلان أو عدة أجيال على فقدها، لأنهم في معركة مع النظم الأخرى، ولكن البشرية بطبيعتها لا تصبر على فقدان هذه الحريات طويلا، وإذا ماتت فيها رغبة الحرية فقد مسخت فطرتها مسخا، وخسرت كيانها الإنساني في سبيل لقمة الخبز كالماشية والحيوان!.

فأما الإسلام فيبيح الملكية الفردية، محققا كل المزايا التي تحققها هذه الإباحة. وفي ذات الوقت يحرم وسائل الكسب التي تضخم رؤوس الأموال على حساب الطبقات العاملة أو على حساب المجتمع كله. فهو يحرم الربا، والاحتكار، ويقضي بتأميم المرافق العامة التي يشترك في الانتفاع بها الناس جميعا؛ ويجعل للعمال حقهم في نصف الربح الناتج من العمل (استنادا الى تصرف النبي ﷺ مع أهل خيبر). . ثم هو يأخذ ـ اثنين ونصفا من رأس المال ـ لا من الأرباح ـ كل عام في صورة زكاة. . ثم ـ وهذا هو الأهم ـ يبيح للدولة الممثلة للجماعة أن تأخذ من رؤوس الأموال ـ لا من أرباحها وحدها ـ ما تستلزمه الحاجة بلا قيد ولا شرط تحقيقا لمبدأ «المصالح المرسلة» أي التي لم يرد فيها نص، ولمبدأ «سد الذرائع» أي اتقاء النتائج السيئة المحتملة ـ وهما مبدآن مقرران في الإسلام. وإلى المبدأ الأول يستند الإمام مالك في منح الحاكم حق الأخذ من أموال الأغنياء بقدر حاجة الجند إذا لم يكن في بيت المال الكفاية. . ومثل حاجة الجند للدفاع سائر الحاجات الاجتماعية التي تبرز على توالي الأزمان.

وبذلك يتقي الإسلام كل عيوب الملكية الفردية ويبقى مزاياها جميعا، ويحقق كما قلت مزايا النظامين: الرأسمالي والشيوعي ويتقي عيوبهما جميعا.

وهو بهذا نظام مستقل، تشبهه الرأسمالية أحيانا وتشبهه الشيوعية أحيانا، ولكنه ليس واحدا منها بكل تأكيد، ونحن لا نكذب عقولنا، ولا نكذب حقائق

النظام الإسلامي الواضحة لنقول مع دعاة الشيوعية: إن الإسلام رأسمالي، أو أنه لا يمكن أن يكون نظام ما إلا نظاما رأسماليا، أو نظاما شيوعيا، ولا ثالث لهما في الواقع ولا في التفكير، كما يقولون في تحجر، ثم ينتظرون منا أن نسلم لهما بما يقولون!.

هنالك إذن فكرة ثالثة لنظام اجتماعي ثالث، يمكن أن تقوم على أساسها الكتلة الثالثة، فتكون لها كل مقومات الكتلة المستقلة. وليست هي بحاجة إذن إلى الاندماج أو الفناء في إحدى الكتلتين، أو في إحدى الفكرتين.

هذه الفكرة الثالثة ليست مجرد عقيدة دينية - كما يريد بعضهم أن يتصور - إنما هي نظام اجتماعي كامل يقوم على هذه العقيدة؛ بل نظام إنساني شامل يحدد العلاقات بين الأفراد والجماعات، وبين الشعوب والحكام، وبين الدولة والدول في المجتمع الدولي، والمحيط الإنساني.. وهذه ميزتها الكبرى. ميزتها أن توحد بين عقيدة الفرد ونظام المجتمع، وشكل الدولة وعلاقات البشرية. فاذا نفذ الفرد عقيدته، فهو في الوقت ذاته يؤدي واجبه - بهذا التنفيذ - كفرد في جماعة، وفرد في دولة، وفرد في إنسانية، بلا تعارض بين نشاطه في هذه المجالات جميعا.

والنظام الذي يقوم على أساس عقيدة، ويستمد منها وجوده وحدوده، هو نظام أقوى وأعمق وأقدر على المقاومة، لأنه يستمد قوته من داخل النفس ومن أعماق الضمير، ومن سلطان لا يعلوه في النفس سلطان.

إذا جاء نصر الله والفتح . .

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٥١ ص ١٠٧٧

في الأفق بشائر - في هذه الأيام - على الرغم من كل ما يكتنفه من سحب وظلام. في الأفق بشائر بالعودة إلى حمى الإسلام، تتجلى في كل أنحاء الوطن الإسلامي. عودة الفلول الشاردة الممزقة، التي هدها الكلال وهي تلهث وراء أعلام أجنبية عن روحها وتاريخها، أجنبية عن أهدافها ووجهتها . .

إنها تعود رويدا رويدا في هذه الأيام إلى الحمى الذي استبيحت حرماتها عندما فارقته، وإلى الراية التي أزيلت عزتّها حينما تخلت عنها . . إنها تعود إلى الإسلام تتنادى باسمه في كل مكان، وتطلب عنده القوة والعزة والسلامة . . وهذا هو موضع الرجاء في العالم الإسلامي في هذه الأيام.

إن الدعاة اليوم إلى تكتيل العالم الإسلامي في جبهة، وإلى تحكيم الإسلام في هذه الكتلة . . ليسوا هم الدعاة الدينيين وحدهم، وليسوا هم «الإخوان المسلمين» وحدهم، وليسوا هم الأفراد الذين يوجه الإسلام تفكيرهم وحدهم . . إنهم ليسوا هؤلاء فحسب في هذه الأيام، إنما هم كذلك جماعات وأحزاب وشخصيات ليست الدعوة الإسلامية طابعها البارز، أو وجهتها الأساسية . . وهذا هو الدليل على أن الأمة الإسلامية قد وجدت نفسها بعد التيه والضلال، وأنها تتجاوب بصدى واحد، منبعث من ضميرها بلا تمحل ولا افتعال.

لقد لعب الاستعمار لعبته الكبرى يوم مزق الوطن الإسلامي الأكبر، وحوله إلى دويلات تحمل الطابع القومي الهزيل، وتتخلى عن قوميتها الإسلامية

الكبرى. لقد هدم حينذاك كل ما بناه الاسلام من وحدة ضخمة تذوب فيها العناصر والأجناس، وتنصهر فيها الألوان واللغات، وتهتف كلها هتافا واحدا من قلوب متآخية في الله.

ولم يكن بد للاستعمار من أن يلعب هذه اللعبة. فما كان في استطاعته أو مقدوره أن يزدرد هذه الكتلة الكبرى وهي وحدة متماسكة. فأما حين نفخ لها في بوق «القومية» الخادع فقد انفرط العقد، وانحلت العقدة، وتناثرت الفلول، وباتت كلها لقمة سائغة لمن أراد.

ثم واجهت كل دويلة مشكلاتها الداخلية. واجهتها عزلاء من راية تقف في ظلها، ومن قبلة تثوب إليها. وانطلقت كل دويلة تجابه الاستعمار المتجمع المتكتل وحدها. تارة في مجلس الأمن، وتارة في هيئة الأمم، وتارة في محكمة العدل. وفي كل مرة كانت تؤوب بالفشل والخيبة، لأن الاستعمار هناك وحده؛ ولأن «القومية» التي خدع بها المستضعفين في الشرق لا تجعله ينسى «الصليبية» التي يواجه بها الإسلام كافة!.

وانطلقت كل دويلة تجابه الطغيان الداخلي فيها والمظالم الاجتماعية بحلول ومبادىء تلهث وراءها في أرض غير أرضها؛ وفي بيئة غير بيئتها. تارة باسم الديمقراطية. وتارة باسم الاشتراكية. وتارة باسم الشيوعية. وهي كلها محاولات يائسة، أنشأتها أوضاع غير أوضاع الوطن الإسلامي، وهي امتدادات طبيعية للفكرة المادية التي يدين بها الضمير الغربي والحضارة الغربية، وتجد جذورها في الحضارة الإغريقية والرومانية، ولا مبرر لنشأتها أو امتدادها في الجو الإسلامي والتفكير الإسلامي.

وماذا كانت العاقبة؟.

كانت العاقبة في الخارج هي ما نراه من تفكك العالم الإسلامي وتكتل العالم الصليبي. كانت هي ضعف الدويلات الاسلامية وقوة الاستعمار الأوربي. كانت هي هذه الحلقة المفرغة التي تدور فيها هذه الدويلات حول دول

الاستعمار. كانت هي توزيع الأسلاب بين انجلترا وفرنسا وهولندا وأمريكا. كانت هذه المواقف الهزيلة التي تقفها حكومات الدويلات شبه المستقلة كمصر والعراق، تقدم رجلا وتؤخر أخرى!.

وكانت العاقبة في الآخر هي هذه البلبة في مواجهة الطغيان والمظالم الاجتماعية. منا من يريد مواجهتها باسم الاسلام، ومنا من يريد مواجهتها باسم الاشتراكية، ومنا من يدعو خفية للشيوعية. والإقطاع العارم والرأسمالية الفاجرة يقفان في الجبهة الأخرى صفا، يضربان هؤلاء بأولئك، ويوقعان بينهم الفتنة والبغضاء!.

وبين الحين والحين يخرج بغاث هزيل، وببغاوات فارغة تحذرنا من دعوة الإسلام ومن راية الإسلام. تحذرنا عداء العالم الغربي إذا نحن هتفنا باسم الإسلام، وتجمعنا كتلة تحت رايته. كأن هذا العالم يساقينا اليوم كؤوس المودة!. وتحذرنا الفرقة والتنابز في داخل الوطن الواحد. كأننا اليوم جبهة واحدة لا شراذم وشيع وفرق!.

وتحذرنا ما هو أشد وأنكى. تحذرنا طغيان الحكم الإسلامي.. تحذرنا هذا الطغيان كأنما ننعم اليوم في بحبوحة الحرية! وتحذرنا ألاعيب رجال الدين المحترفين. كأننا الآن لا نذوق منها الأمرين!.

إنها تعلات فارغة لا تخدم أحداً إلا المستعمرين الذين يفزعون من فكرة التكتل الإسلامي تحت راية الإسلام، لأنهم يدركون ما أدركته الملكة فكتوريا، وما أدركه جلادستون من أن راية القرآن يجب أن تمزق قبل أن يتسنى للرجل الأبيض حكم هذه البقاع الإسلامية. ولأنهم يدركون أن ظل الاستعمار الأسود سيتقلص يوم ترتفع هذه الراية من جديد.

إن الاستعمار الغربي لا تخفى عليه ضخامة القوة التي يمكن أن تواجهه في ميدان الحرب والسياسة والاقتصاد لو تكتل الوطن الإسلامي. لا تخفى عليه ضخامة الموارد البشرية والمادية التي يمكن أن يحشدها، لا يخفى عليه أن الدفة

سيتحول اتجاهها يوم يقف أربعمائة مليون من البشر تحت راية واحدة وفي ظل عقيدة واحدة، ونظام اجتماعي واحد.

إن الرأسمالية والشيوعية كلتيهما لترتعشان من هذا اليوم، (الرأسمالية) لأنها تعلم أن الأسس الاقتصادية التي تسمح لها بالربا والاحتكار والاستغلال الرأسمالي. كلها ستتحطم يوم يحكم الإسلام، فيقيم بناءه الاقتصادي على أسسه الاقتصادية الخاصة التي تطرد المرابين والمحتكرين والمستغلين، ولا تسمح لهم في ظلها بهذا النشاط الآثم الظالم. ويومئذ يخرج من قبضتها الاقتصادية الاستغلالية هذا العالم المترامي الأطراف من شواطىء الأطلنطي الى شواطىء الباسيفيكي. يخرج من قبضته المؤامرات الرأسمالية - كما خرجت دول الكتلة الشرقية تماما في ظل الشيوعية - وعندئذ تضيق عليها الأرض بما رحبت. فماذا يبقى للرأسمالية الغربية حين يخرج العالم الإسلامي كله من قبضتها وقد خرجت من قبل كتلة العالم الشيوعي؟ إن الرأسمالية الغربية يومئذ تختنق وتسقط جثة هامدة. وذلك ما يخشاه المستعمرون من الراية الإسلامية والحكم الإسلامي. وما قد يخيفهم أكثر من الجيوش والكتائب التي يجردها الوطن الإسلامي عليهم لتسحقهم سحقا.

(والشيوعية) لأنها تعلم أن فرصتها الوحيدة في العالم هي الاختلال الاجتماعي والاقتصادي. فلا مجال للشيوعية في مجتمع عادل متوازن، لا تتضخم فيه الثروات، ولا تتضخم فيه الفوارق، ولا يسوده الربا والاحتكار والاستغلال الرأسمالي، ولا يقوم فيه العداء بين العمال وأصحاب العمل، لأنه لا سبيل فيه لتحكم أصحاب العمل ولا إلى غبن العمال.. ولما كان المجتمع الذي يمكن أن ينشئه الإسلام، حين يقوم على أصوله الصحيحة. مجتمعا غير طبقي؛ فالعمال أنفسهم أصحاب حق في نصف الربح، كما أنهم أصحاب حق في تحويل نصيبهم أو بعضه إلى أسهم في مرفق العمل. ومجتمعا لا ترف فيه ولا شظف فكلاهما مكروه أو حرام. ومجتمعا لا تضخم فيه للثراء لأنه يحرم الربا والاحتكار والظلم في الأجور. ومجتمعا متوازنا لأن الدولة فيه ملزمة بإعادة توزيع

الثروة كلما أصابها الاختلال، بل مكلفة أن تتخذ من الوسائل الوقائية ما يمنع كل ما قد يؤدي إلى هذا الاختلال. ومجتمعا كل المرافق العامة فيه مؤممة أو شائعة الملكية وليس فيها احتكار. لما كان المجتمع الإسلامي كذلك فإن فرصة الشيوعية في اقتحامه نادرة بل مستحيلة. ولهذا تحرص الشيوعية حرص الرأسمالية على مطاردة فكرة التكتل الإسلامي والحكم الإسلامي. وتطلق أبواقها يخوفون من هذه الفكرة أو يهونون من قيمتها، أو ينكرون إمكان تطبيقها العملي، ويبذلون من الجهود ما تبذله الجهة الرأسمالية سواء بسواء!.

وفي وسط هذا كله تتجاوب صيحة واحدة مشتركة في جوانب العالم الإسلامي، تدعو إلى راية الإسلام، وتهتف بالوحدة الإسلامية، وتنادي بالحكم الإسلامي.

وليس الاخوان المسلمون هم الذين يستقلون بهذه الدعوة. وليس أصحاب التفكير الإسلامي من الكتاب والدعاة هم الذين ينفردون بها كذلك إنما هي دعوة تنبعث من ضمير هذه الأمة الإسلامية، من حيث تحتسب ومن حيث لا تحتسب.

إنها تنبعث من حكومة الباكستان تدعو إلى مؤتمر اقتصادي إسلامي، لتنظيم اقتصاديات العالم الإسلامي على أسس إسلامية.

إنها تنبعث من آية الله كاشاني زعيم إيران الروحي، يصرخ في وجه الانجليز الكلاب أن يخرجوا لا من إيران، ولكن من الوطن الأسلامي. ويبعث بتشجيعه وتوجيهه الى رئيس الوزراة المصرية. ويطلق المظاهرات في شوارع إيران تأييدا لمصر في قضيتها.

إنها تنبعث من علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني زعيمي مراكش، التي حاربتها فرنسا في دينها بالظهير البربري سنة ١٩٣١ لأنها يئست من إخضاع مراكش قبل أن تمزق وحدتها الدينية.

إنها تنبعث من مسلمي الملايو في آسيا، والصومال في إفريقية، وهم يتجهون إلى دول العالم الإسلامي.

إنها تنبعث من أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكي في رسالة حارة يبعث بها على صفحات الاشتراكية إلى آية الله كاشاني وإلى مصدق رئيس حكومة إيران، التي طعنت احتكار البترول بخنجر الإسلام فأدماه!.

إنهـا تنبعث من أحمـد أبو الفتح في كتابه: «حكايات لمصر» دعوة الى الخلاص، بحكم الإسلام وبعدل الإسلام.

إنها اليقظة. إنه الهدى إنه النور، إنه ضمير هذه الأمة كلها يستيقظ ويهتدي ويستنير. إنها لم تعد دعوة فرد، ولا دعوة هيئة. إنه صوت السماء يهبط مرة أخرى إلى الأرض. إنها البشائر التي تلوح في الأفق على الرغم من كل ما يكتنفه من سحب وظلام.

تركيا الصغيرة!!

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٥٥ ص ١١٨٩

ها نحن أولاء نخوضها في هذه الأيام حربا صليبية جديدة، بل ها نحن أولاء نخوضها معركة من معارك الحروب الصليبية القديمة.. فما خمدت قط نار هذه الحروب بيننا وبين الصليبيين...

ها نحن هؤلاء نخوضها حربا مقدسة في وادي النيل، وفي الشمال الإفريقي، وفي إيران، وفي العراق.. ولقد كسبنا الجولة الأولى في إيران العظيمة، ونحن في طريقنا إلى كسب الجولة الثانية في وادي النيل. ولن يقف الشعب العراقي القوي المتحمس دون خطوات إيران، ولا دون خطوات الوادي. والشمال الإفريقي كله يتأهب استعدادا للوثبة الكبرى..

الظل الأسود يتقلص.. ظل الاستعمار البغيض. ظل الصليبية التي عجزت عن مكافحة الإسلام باسم الدين، فقامت بحركة التفاف عن طريق الاقتصاد، وعن طريق الثقافة، وعن طريق الاستعمار. وهي تحمل الصليب في قلبها وتخبئه، بدل أن كانت تشهره على الرؤوس وترسمه على الحراب والسيوف!.

الظل الأسود يتقلص، وحطام الاستعمار يتطاير، فتنحني عليه الأساطيل، تلتقطه غارقا من اليمّ، كما انحنى الطراد الانجليزي «موريتيوس» ليلتقط بقايا الامبراطورية من مياه إيران العظيمة!.

الظل الأسود يتقلص والراية الإسلامية الكبرى تنشر ظلالها الشفيفة الحبيبة، تنشرها وتنشر معها القوة والثقة واليقين في النصر؛ وتنشر معها العزة والاستعلاء

على الذل والقهر.

لقد ارتفعت هذه الراية الحبيبة فأتمت في شهر ما ظل حزب توده الشيوعي يحاوله في عشر سنوات ولا يستطيع!.

وامتدت عدوى الضربة الإيرانية الإسلامية القوية إلى وادي النيل، ولا غضاضة في أن نسجل أن إيران قد سبقتنا، فإيران بضعة من جسم الوطن الإسلامي الحي، ولا غضاضة في أن تتحرك الذراع لتضرب قبل ان تتحرك الرجل لتسحق!. ـ والعراق على الإثر ـ فشعب العراق الأبي الفتي لا يقبل أن يكون متخلفا.. إن بترول العراق سيؤمم، وإن معاهدة العراق ستلغى.. ستضرب العراق ضربتها الواحدة لتحقق بها ما حققت إيران وما حققت مصر في ضربتين متتاليتين. والشمال الإفريقي كله على الإثر.. ويتطهر العالم الإسلامي.. يتطهر من أرجاس الصليبية الغربية، ومن عار الاستعمار الغربي..

الظل الأسود يتقلص. ولن تعصمه قوة في الأرض عن التقلص. «لقد دالت دولة الرجل الأبيض» ـ كما يقول برتراندرسل الفيلسوف الإنجليزي المعاصر ـ وتلك سنة الله في أرضه. ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولكن الصليبية التي لم يهدأ لها بال، ولم تغمض لها عين منذ القرن الحادي عشر إلى اللحظة الحاضرة.. هذه الصليبية لن تلفظ أنفاسها الأخيرة في الشرق إلا بعد أن تبذل طاقتها، وقبل أن تنثر كنانتها.

إنها تدرك أن حركات التحرير في الشرق الإسلامي إن هي إلا صحوة العقيدة التي ظنتها الصليبية قد ماتت إلى الأبد.. إنها لا تخطىء عناصر هذه العقيدة الخالدة في وثبة التحرير الحاضرة، وفرنسا اللاتينية، فرنسا التي قادت الحروب الصليبية، فرنسا هذه أشد حساسية بذلك الروح الإسلامي النابض في كل حركات التحرير. فهي تحذر من هذا الروح. تحذر منه اليوم علانية، وتنذر الغرب خطر «العالم الإسلامي».. لقد أحست مرة أخرى بوجود «العالم الإسلامي» أحست به في قوة، وإن كانت طوال حياتها لم تنس وجوده، ولم تفتر

عن مكافحته، كما لم تفتر إنجلترا وسواها من أمم العالم الغربي عن هذا الكفاح!.

وها هي ذي الصليبية تتجمع مرة أخرى لوقف المد الإسلامي الزاحف من جديد ـ ولكن هيهات! ـ لقد فات الموعد، ومضت عقارب الساعة ودارت دورة الفلك، وما عاد لقوة بشرية على ظهر هذه الأرض أن تقف في وجه التيار.

لقد انبثقت من ثنايا العدم باكستان. وتفلتت من قبضة الاستعمار اندونيسيا وسوريا ولبنان. وأفلتت من القراصنة إيران، وضربت مصر ضربتها المدوية، فوقفت الإمبراطورية المحطمة ترنح، وتطوح بيديها ورجليها في الهواء توهم الناس أنها قوية وأنها ستضرب، وإن هي إلا سكرات الموت، وصرعات الحمام! والشمال الإفريقي كله في الطريق، ولن يمتد الزمن طويلا قبل أن يضرب ضربته كذلك.

الظل الأسود يتقلص، والراية الإسلامية ترتفع، وترف وتخفق، والكتلة الثالثة تتجمع في ظل هذه الراية النورانية. راية النصر والعزة والاستعلاء.

وفي ضجة المعركة الفاصلة الأخيرة. وفي عجيج الموقعة التي تحول سير التاريخ. وفي اندفاع السيل المتدفق الفوار. .

في ثنايا هذا كله تتسلل من الصف ثعلبة غادرة، وتتخلف عن الميدان قطة لئيمة، وتتوارى عن الجمع فأرة حقيرة. . . إنها. . إنها تركيا الصغيرة!.

وتركيا وحدها دون بقية العالم الإسلامي كله تركيا وحدها هي التي تطعن مصر في ظهرها، وتتخنس مع أعداء الشرق، وأعداء الاسلام، وأعداء الإنسانية. تركيا وحدها هي التي تقبل اليد التي صفعتها والقدم التي ركلتها. تركيا وحدها هي التي تنحني على الخنجر الذي مزق أوصالها وأجهز على «الرجل المريض»!.

ويطير أمين جامعة الدول العربية إلى تركيا ثم يعود ليذيع البشرى على العرب بعودة تركيا الى راية الاسلام وصفوف المسلمين. . ثم إذا تركيا هذه في مجلس الأمن تعانق إسرائيل!.

وتعلن مصر تحطيم النير الذي يشد عنقها إلى عجلة الإمبراطورية الفانية. ويخرج شعبها يهتف للحرية، ويتنفس الصعداء. . ثم إذا تركيا هذه تحتج على هتاف الحرية من المصريين!.

وتتجمع الصليبية ممثلة في أمريكا وانجلترا وفرنسا، فتتآمر على مصر المسلمة في صورة الدفاع المشترك، وترسل بسفرائها الثلاثة يحملون نتاج المؤامرة اللئيمة. . فإذا هم ثلاثة رابعهم كلبهم يحمل نفس النتاج!.

وإنها تركيا. . تركيا التي تستكثر على مصر أن ترفع رأسها، لأن الفلاحين العبيد لا يجوز أن يتحرروا. . هذه هي العقدة الحقيقية في نفس تركيا! والعقدة الأخرى هي الإيمان بأوربا والكفر بكل ما هو شرقي، وكل ما هو إسلامي، منذ أيام الانقلاب!.

إنها تركيا. . تركيا التي ما إن تصاب بكارثة أو زلزال حتى تتدفق عليها الأموال والتبرعات من هنا. من المتمصرين الذين يعيشون في مصر، ومن خير مصر، ومن دماء مصر، وهواهم مع تركيا، واعتزازهم بالعنصر التركي والدم التركي!.

إن هذه الأموال التي تتدفق من مصر لهي دماء المصريين الكادحين، مقطرة ومكثفة ومبلورة. فأما «الفلاحون» فهم الفلاحون. هم العبيد. هم رقيق الأرض. وأما السادة فهم الذين يعتزون بالعنصر التركي وبالدم التركي. هم الذين يصوغون دماء الرقيق ذهبا يتقاطر على تركيا. تركيا الخائنة لمصر وللشرق وللاسلام. تركيا حليفة الصليبيين في القرن العشرين.

إن الذين يعيشون هنالك في القصور على ضفاف البوسفور؛ حيث تجيء

اليهم ثمرات العرق والكد والدماء من ضفاف الوادي.. إن هؤلاء هم الذين يطعمون تركيا الخائنة لحم المصريين وعظامهم. وهم الذين يسقون تركيا الخائنة عرق المصريين ودماءهم.

«ولقد آن لمصر أن تضع لهذا كله حدا. آن لمصر أن تمنع تسرب قرش واحد إلى تركيا الملعونة. الملعونة من المسلمين أجمعين. الملعونة من الإنسانية المنكوبة بالاستعمار في مشارق الأرض ومغاربها. الملعونة من الأرض والسماء إلى يوم الدين.

لقد آن أن تقول مصر لمن يعيشون في قصورهم هناك على ضفاف البوسفور. إما أن تعيشوا هنالك من كدكم وعرقكم، أو في ضيافة تركيا التي تعتزون بها وتنتسبون إليها. وإما أن تعودوا إلى مصر التي تطعمكم وتسقيكم. فمصر لم تعد أمة من العبيد. ولن تكون يوما أمة من العبيد».

إن العالم الإسلامي كله يتحفز للوثبة الكبرى. وإن الكتلة الإسلامية كلها لتتأهب للظهور على المسرح العالمي، لتمسك بيدها ميزان التعادل والتوازن. فلتلهث تركيا وهي تعدو في ذيل القافلة: قافلة الاستعمار وقافلة الصليبية. وليركلها العالم الإسلامي بقدمه القوية. فتركيا الصغيرة لم تعد ذات وزن في كفة الميزان. لقد اختارت لنفسها أن تلهث وراء القافلة. فلتلهث. وليلهث معها المتمصرون والمتتركون.. ولكن لتعرف مكانها، ولتعرف عنوانها... إنها.. إنها تركيا الصغيرة!.

في ميزان القيم الانسانية

- ١ -

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٥٩ ص ١٠٣١

أمريكا.. الدنيا الجديدة.. ذلك العالم المترامي الأطراف الذي يشغل من أذهان الناس وتصوراتهم، أكثر مما تشغل من الأرض رقعته الفسيحة، وترف عليه أخيلتهم وأحلامهم بالأوهام والأعاجيب، وتهوي إليه الأفئدة من كل فج، شتى الأجناس والألوان، شتى المسالك والغايات، شتى المذاهب والأهواء.

أمريكا.. تلك المساحات الشاسعة من الأرض بين الأطلنطي والباسيفيكي. تلك الموارد التي لا تنضب من المواد والخامات، ومن القوى والرجال. تلك المصانع الضخمة التي لم تعرف لها الحضارة نظيرا. ذلك النتاج الهائل الذي يعيا به العدو الإحصاء، تلك المعاهد والمعامل والمتاحف المبثوثة في كل مكان. عبقرية الإدارة والتنظيم التي تثير العجب والإعجاب. ذلك الرخاء السابغ كأحلام الجنة الموعودة. ذلك الجمال الساحر في الطبيعة والوجوه والأجسام. تلك اللذائذ الحرة المطلقة من كل قيد أو عرف. تلك الأحلام المجسمة في حيز من الزمان والمكان.

أمريكا هذه كلها... ما الذي تساويه في ميزان القيم الإنسانية؟ وما الذي أضافته إلى رصيد البشرية من هذه القيم، أو يبدو أنها ستضيفه إليه في نهاية المطاف!.

أخشى ألا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية في أمريكا،

وعظمة «الانسان» الذي ينشىء هذه الحضارة؛ وأخشى أن تمضي عجلة الحياة، ويطوى سجل الزمن، وأمريكا لم تضف شيئا ـ أو لم تضف إلا اليسير الزهيد ـ إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم، التي تميز بين الإنسان والشيء، ثم بين الإنسان والحيوان.

إن كل حضارة من الحضارات التي مرت بها البشرية، لم تكن كل قيمتها فيما ابتدعه الإنسان من آلات، ولا فيما سخره من قوى، ولا فيما أخرجت يداه من نتاج. إنما كان معظم قيمتها فيما اهتدى إليه الإنسان من حقائق عن الكون، ومن صور وقيم للحياة؛ وما تركه هذا الإهتداء في شعوره من ارتقاء وفي ضميره من تهذيب، وفي تصوره لقيم الحياة من عمق، والحياة الإنسانية بوجه خاص، مما يزيد المسافة بعدا في حسابه وحساب الواقع، بينه وبين مدارج الحيوانية الأولى، في الشعور والسلوك، وفي تقويم الحياة وتقويم الأشياء.

فأما ابتداع الآلات، أو تسخير القوى، أو صنع الأشياء، فليس له في ذاته وزن في ميزان القيم الإنسانية، إنما هو مجرد رمز لقيمة أساسية أخرى: هي مدى ارتقاء العنصر الانساني في الإنسان، ومدى الخطوات التي يبعد بها عن عالم الأشياء، وعالم الحيوان. أي مدى ما أضاف الى رصيده الإنساني من ثراء في فكرته عن الحياة، وفي شعوره بهذه الحياة.

هذه القيمة الأساسية هي موضع المفاضلة والموازنة بين حضارة وحضارة، وبين فلسفة وفلسفة؛ كما أنها هي الرصيد الباقي وراء كل حضارة، المؤثر في الحضارات التالية، حين تتحطم الآلات وتفنى الأشياء؛ أو حين تنسخها آلات أجد وأشياء أجود، مما يقع بين لحظة وأخرى، في مشارق الأرض ومغاربها.

وإنه ليبدو أن العبقرية الأمريكية كلها قد تجمعت وتبلورت في حقل العمل والإنتاج، بحيث لم تبق فيها بقية تنتج شيئا في حقل القيم الإنسانية الأخرى. ولقد بلغت في ذلك الحقل ما لم تبلغه أمة، وجاءت فيه بالمعجزات التي أحالت الحياة الواقعية إلى مستوى فوق التصور ووراء التصديق لمن لم يشهدها عيانا.

ولكن «الإنسان» لم يحفظ توازنه أمام الآلة، حتى ليكاد هو ذاته يستحيل آلة؛ ولم يستطع ان يحمل عبء العمل المنهك ثم يمضي قدما في طريق الإنسانية، عندئذ أطلق للحيوان الكامن العنان، ضعفا عن أن يحمل عبء العمل وعبء «الإنسان»!.

وإن الباحث في حياة الشعب الأمريكي ليقف في أول الأمر حائراً أمام ظاهرة عجيبة، قد لا يراها في شعب من شعوب الأرض جميعا: شعب يبلغ في عالم العلم والعمل، قمة النمو والارتقاء، بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى؛ بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك!.

ولكن هذه الحيرة تزول بعد النظرة الفاحصة في ماضي هذا الشعب وحاضره، وفي الأسباب التي جمعت فيه بين قمة الحضارة وسفح البدائية:

في العالم القديم آمن الإنسان بقوى الطبيعة المجهولة، وصاغ حولها الخرافات والأساطير؛ وآمن بالدين، وغمرت روحه أضواؤه ورؤاه، وآمن بالفن وتجسمت أشواقه ألوانا وألحانا وأوزانا.. ثم آمن بالعلم أخيرا، بعدما انقسمت نفسه لأنماط من الإيمان، وألوان من المشاعر، وأشكال من صور الحياة وتهاويل الخيال، بعدما تهذبت روحه بالدين، وتهذب حسه بالفن، وتهذب سلوكه بالاجتماع. بعدما صيغت مثله ومبادئه من واقعية التاريخ، ومن أشواقه الطليقة. وسواء تحققت هذه المبادىء والمثل أم لم تتحقق في الحياة اليومية، فقد لقيت على الأقل هواتف في الضمير، وحقائق في الشعور، مرجوة التحقق في يوم من الأيام، قرب أم بعد، لأن وجودها حتى في عالم المثال وحده، خطوة واسعة من خطوات البشرية في مدارج الإنسانية، وشعاع مضيء من الرجاء في تحققها يوما من الأيام.

أما في أمريكا فقد ولد الإنسان على مولد العلم، فآمن به وحده، بل آمن بنوع منه خاص، هو العلم التطبيقي؛ لأنه وهو يواجه الحياة الجديدة في القارة

الجديدة؛ وهو يتسلم الطبيعة هنالك بكرا جامحة عتيدة؛ وهو يهم أن ينشىء ذلك الوطن الجديد الذي أنشأه بيده، ولم يكن له من قبل وجود؛ وهو يصارع ويناضل لبناء هذا الوطن الضخم. كان العلم التطبيقي هو خير عون له في ذلك الجهد العنيف، لأنه يسعفه بالأداة العملية الفعالة في مجال البناء والخلق والتنظيم والإنتاج.

ولم يفرغ الأمريكي بعد من مرحلة البناء، فما تزال هنالك مساحات شاسعة لا تكاد تحد من الأراضي البكر التي لم تمسسها يد؛ ومن الغابات البكر التي لم تطأها قدم، ومن المناجم البكر التي لم تفتح ولم تستغل، وما يزال ماضيا في عمله البناء الأولى، على الرغم من وصوله الى القمة في التنظيم والإنتاج.

ويحسن ألا ننسى الحالة النفسية التي وفد بها الأمريكي إلى هذه الأرض فوجا بعد فوج، وجيلا بعد جيل، فهي مزيج من السخط على الحياة في العالم القديم، والرغبة في التحرر من قيوده وتقاليده؛ ومن هذه القيود والتقاليد الثقيل الفاسد، والضروري السليم، ومن الرغبة الملحة في الثراء بأي جهد وبأية وسيلة؛ والحصول على أكبر قسط من المتاع تعويضا عما يبذله من الجهد في الثراء.

ويحسن ألا ننسى كذلك الحالة الاجتماعية والفكرية لغالبية هذه الأفواج الأولى التي تألفت منها نواة هذا الشعب الجديد. فهذه الأفواج هي مجموعات من المغامرين، ومجموعات من المجرمين؛ فالمغامرون جاءوا طلاب ثراء ومتاع ومغامرات؛ والمجرمون جيء بهم من بلاد الإمبراطورية الإنجليزية لتشغيلهم في البناء والإنتاج.

ذلك المزيج من الملابسات، وهذا المزيج من الأفواج، من شأنه أن يستنهض وينمي الصفات البدائية في ذلك الشعب الجديد، وينيم أو يقاوم الصفات الراقية في نفسه أفرادا وجماعات؛ فتنشط الدوافع الحيوية الأولية، كأنما يستعيد الانسان خطواته الأولى؛ بفارق واحد أنه هنا مسلح بالعلم، الذي ولد

على مولده، وخط على خطواته. والعلم في ذاته - وبخاصة العلم التطبيقي - لا عمل له في حقل القيم الإنسانية، وفي عالم النفس والشعور. وبذلك ضاقت آفاقه، وضمرت نفسه، وتحددت مشاعره، وضؤل مكانه على المائدة العالمية الزاخرة بالأنماط والألوان.

وقد يدهش الإنسان وهو يقرأ قصص الجماعات الأولى التي هاجرت إلى أمريكا في أيامها الأولى، ويتصور كفاحها الطويل العجيب، مع الطبيعة الجامحة في تلك الأصقاع المترامية، ومن قبل مع أنواء المحيط الرعيبة، وأمواجه الجبارة، في تلك القوارب الصغار الخفاف؛ حتى إذا رست على الصخور محطمة أو ناحية لقيت النازحين، مجاهل الغابات، ومتاهات الجبال، وحقول الجليد، وزعازع الأعاصير، ووحوش الغابات وأفاعيها وهوامها... لقد يدهش الإنسان كيف لم يترك هذا كله ظلاله على الروح الأمريكية إيمانا بعظمة الطبيعة وما وراء الطبيعة، ليفتح لها منافذ أوسع من المادة وعالم المادة.

ولكن هذه الدهشة تزول حين يتذكر ذلك المزيج من الملابسات، وذلك المزيج من الأفواج. لقد قابلوا الطبيعة بسلاح العلم وقوة العضل، فلم تثر فيهم إلا قوة الذهن الجاف؛ وقوة الحس العارم، ولم تفتح لهم منافذ الروح والقلب والشعور، كما فتحتها في روح البشرية الأولى، التي احتفظت بالكثير منها في عصر العلم، وأضافت به إلى رصيدها من القيم الإنسانية الباقية على الزمان.

وحين تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين؛ والإيمان بالفن؛ والإيمان بالقيم الروحية جميعا؛ لا يبقى هنالك متصرف لنشاطها إلا في العلم التطبيقي والعمل، وإلا في لذة الحس والمتاع. وهذا هو الذي انتهت إليه أمريكا بعد أربعمائة عام.

في ميزان القيم الانسانية

ـ ٢ ـ

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٦٠ ص

يبدو الأمريكي ـ على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن ـ بدائياً في نظريته إلى الحياة، ومقوماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة. ولعل لهذا التناقض الواضح أثره في ظهور الأمريكان بمظهر الشعب الغريب الأطوار في نظر الأجانب، الذين يراقبون حياة الشعب من بعيد؛ ويعجزهم التوفيق بين هذه الحضارة الصناعية الفائقة وذلك النظام الدقيق في إدارة الأعمال، وإدارة الحياة. . . وبين هذه البدائية في الشعور والسلوك، تلك البدائية التي تذكر بعهود الغابات والكهوف!.

يبدو الأمريكي بدائيا في الإعجاب بالقوى العضلية، والقوى المادية بوجه عام، بقدر ما يستهين بالمثل والمبادىء والأخلاق، في حياته الفردية، وفي حياته العـائلية، وفي حياتـه الاجتمـاعية ـ فيما عدا دائرة العمل بأنواعه، وعلاقات الاقتصاد والمال ـ ومنظر الجماهير وهي تتبع مباريات كرة القدم، على الطريقة الأمـريكية الخشنة التي ليس لها من اسمها (كرة القدم) أي نصيب، إذ أن «القدم» لا تشترك في اللعب، إنما يحاول كل لاعب ان يخطف الكرة بين يديه، ويجري بها ليقذف بها الى الهدف، بينما يحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة، بما في ذلك: الضرب في البطن، وتهشيم الأذرع والسيقان، بكل عنف وكل شراسة. . منظر الجماهير وهي تتبع هذه اللعبة، أو تشاهد حفلات الملاكمة والمصارعة الوحشية الدامية. . منظرها في هياجها الحيواني، المنبعث من إعجابها بالعنف القاسي، وعدم التفاتها إلى قواعد اللعب وأصوله، بقدر ما

هي مأخـوذة بالـدم السائل والأوصال المهشمة، وصراخها هاتفة: كل يشجع فريقه: حطم رأسه. دق عنقه. هشم أضلاعه. اعجنه عجنا.. هذا المنظر لا يدع مجالا للشك في بدائية الشعور التي تفتن بالقوة العضلية وتهواها.

وبمثل هذه الروح يتابع الجمهور الامريكي صراع الجماعات والطوائف، وصراع الأمم والشعوب. ولست أدري كيف راجت في العالم ـ وبخاصة في الشرق ـ تلك الخرافة العجيبة. خرافة أن الشعب الأمريكي شعب محب للسلام!.

إن الأمريكي بفطرته محارب محب للصراع. وفكرة الحرب والصراع قوية في دمه، بارزة في سلوكه؛ وهذا هو الذي يتفق مع تاريخه كذلك. فقد خرجت الأفـواج الأولى من أوطـانهـا قاصـدة إلى أمـريكا بفكرة الاستعمار والمنافسة والصـراع. وهناك قاتل بعضهم بعضا وهم جماعات وأفواج. ثم قاتلوا جميعا سكان البلاد الأصليين (الهنود الحمر) وما يزالون يحاربونهم حرب إفناء حتى اللحظة الحاضرة. ثم قاتل العنصر الأنجلو سكسوني العنصر اللاتيني هناك، وطرده إلى الجنوب في أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم حارب المتأمركون أمهم الأولى إنجلترا في حرب التحرير بقيادة «جورج واشنطن» حتى نالوا استقلالهم عن التاج البريطاني. ثم حارب الشمال الجنوب بقيادة «ابراهام لنكولن» تلك الحـرب التي اتسمت بسـمـة «تحرير العبيد» وإن كانت دوافعها الحقيقية هي المنافسة الاقتصادية. ذلك أن العبيد المستجلبين من أواسط إفريقية ليعملوا في الأرض رقيقـا، لم يسـتـطيعـوا مقـاومة الطقس البارد في الشمال، فنزحوا الى الجنوب. وكان معنى هذا أن يجد المستعمرون في الولايات الجنوبية الأيدي العاملة الرخيصة، على حين لا يجدها الشماليون، فيتم لهم التفوق الاقتصادي؛ لذلك أعلن الشماليون الحرب لتحرير العبيد!.

وانقضت فتـرة العـزلـة، وانتهت سياستهـا، عندما دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولى، ثم اضطلعت بالحرب العالمية الثانية. ثم ها هي ذي تنهض بالحرب في كوريا. والحرب العالمية الثالثة ليست بالبعيدة! ولست أدري إذن

كيف راجت تلك الخرافة العجيبة عن شعب هذا تاريخه في الحروب؟.

إن الحيوية المادية عند الامريكي مقدسة، والضعف ـ أيا كانت أسبابه ـ جريمة. جريمة لا يغتفرها شيء. ولا تستحق عطفا ولا عونا. وحكاية المبادىء والحقوق خرافة في ضمير الأمريكي لا يتذوق لها طعما. كن قويا ولك كل شيء. أو كن ضعيفا فلا يسعفك مبدأ، ولا يكون لك مكان في مجال الحياة الفسيح. أما الذي يموت فيرتكب بالطبع جريمة الموت! ويفقد كل حق له في الاهتمام أو الاحترام! أليس أنه قد مات؟.

كنت في مستشفى «جورج وشنطن» في وشنطن العاصمة، وكان الوقت مساء حينما غمرت جوه موجة من الاضطراب غير معهودة، وبدت فيه حركة غير عادية تستلفت النظر. وأخذ المرضى القادرون على الحركة يغادرون أسرتهم وحجراتهم إلى المماشي والأبهاء يستطلعون؛ ثم جعلوا يتحلقون متسائلين عن سر تلك الظاهرة في حياة المستشفى الهادئة، و عرفنا بعد فترة أن أحد موظفي المستشفى قد أصيب في حادث مصعد، وأنه في حالة خطيرة بل في دور الاحتضار. وذهب أحد المرضى الأمريكان ليرى بنفسه، ثم عاد يقص على المتحلقين في الممشى ما رأى.. وحين يخيم شبح الموت على مكان، لا تكون له رهبة، ولا يكون لموت خشوعه كما يكون ذلك في مستشفى.. ولكن هذا الأمريكاني أخذ يضحك ويقهقه، وهو يمثل هيئة المصاب المحتضر، وقد دق المصعد عنقه، وهشم رأسه، وتدلى لسانه من فمه على جانب وجهه! وانتظرت أن أسمع وأرى علائم الامتعاض والاستنكار من المستمعين. ولكن كثرتهم الغالبة جعلت تضحك متفكهة، بهذا التمثيل البغيض!.

لذلك لم أعجب وبعض أصدقائي يقص علي ما رأى وما سمع، حول الموت ووقعه في نفوس الأمريكان.

قال لي زميل: إنه كان حاضر مأتم، حيثما عرضت جثة رب البيت محنطة في صندوق زجاجي ـ على العادة الأمريكية ـ كيما يمر أصدقاء الفقيد بجثمانه،

ليودعوه الوداع الأخير، ويلقوا عليه النظرة النهائية، واحدا بعد الآخر في صف طويل، حتى إذا انتهى المطاف وتجمعوا في حجرة الاستقبال؛ ما راعه إلا أن يأخذ القوم في دعابات وفكاهات، حول الفقيد العزيز وحول سواه، تشترك فيها زوجه وأهله، وتعقبها الضحكات المجلجلة، في سكون الموت البارد، وحول الجسد المسجى في الأكفان!.

وكان الأستاذ مدير البعثات المصرية بوشنطن مدعوا هو والسيدة حرمه إلى إحدى الحفلات ـ وقبيل الموعد مرضت السيدة حرمه، فأمسك بالتليفون ليعتذر عن الحفلة بسبب هذا الطارىء. ولكن الداعين أجابوه بأنه لا ضرورة للاعتذار، فإنه يمكن أن يحضر منفردا، وستكون هذه فرصة طيبة، ذلك أن إحدى المدعوات قد توفي زوجها فجأة قبيل الحفلة، وستكون وحيدة فيها، فمن حسن الحظ أن يكون لها رفيق!.

ودخلت مرة بيت سيدة أمريكية كانت تساعدني في اللغة الانجليزية في الفترة الأولى من وجودي في أمريكا، فوجدت عندها إحدى صديقاتها، وكانتا تتحدثان في موضوع لحقت أواخره، وهذه الصديقة تقول: «لقد كنت حسنة الحظ، فقد كنت مؤمنة على حياته. حتى علاجه لم يكلفني إلا القليل لأنني كنت مؤمنة عليه في هيئة الصليب الأزرق[1]» وابتسمت ضاحكة!.

ثم إستأذنت وخرجت، وبقيت مع ربة البيت. وأنا أحسب أن صديقتها كانت تحدثها عن كلبها ـ وإن كنت قد دهشت لأنها لا تبدي أي تأثر لموته! ـ ولكني ما راعني إلا أن تقول لي ـ ولم أسأل! ـ «كانت تحدثني عن زوجها. لقد مات منذ ثلاثة أيام!».

ولما أبديت لها دهشتي أن تتحدث صديقتها عن زوجها المتوفى منذ ثلاثة أيام بمثل هذه البساطة، كان عذرها الذي لا يخالجها الشك في أنه مقنع ووجيه: «إنه كان مريضا: لقد مرض أكثر من ثلاثة أشهر قبل الوفاة!».

(١) هيئة ضمان اجتماعية ضد المرض. وهي تتولى أداء معظم النفقات في إثناء علاج المشتركين بها، مقابل قسط شهري صغير.

عادت بي الذاكرة إلى مشهد عميق الأثر في شعوري، وقد أثار في خاطري في حينه منذ سنوات.. خاطرة لم تكتب بعنوان: «مأتم الطيور» ذلك مشهد جماعة من الفراخ كنا نربيها في دارنا، وقد وقفت متحلقة صامتة مبهورة مأخوذة، حول فرخ منها ذبيح، لقد كانت مفاجأة شعورية لكل من في البيت، مفاجأة غير منتظرة من طير غير متقدم في سلم الرقي كالدجاج، بل كانت صدمة لم نجرؤ بعدها منذ ذلك الحين على ذبح فرخ واحد على مرأى من جماعة الطيور!.

ومنظر الغربان حين يموت لها مائت، منظر مألوف شاهده الكثيرون. وهو منظر يصعب تفسيره بغير شعور «الحزن» أو «عاطفة» القرابة! فهذه الجموع من الغربان، المحلقة الصافة، الناعقة بشتى الأصوات والأنغام، الطائرة هنا وهناك، حتى تحتمل جثمان الميت وتطير.. هذا كله يشي برجفة الموت في عالم الطيور..!.

وقداسة الموت تكاد تكون شعورا فطريا. فليست البدائية الشعورية هي التي تطمسها في النفس الأمريكية؛ ولكنه جفاف الحياة من التعاطف الوجداني، وقيامها على معادلات حسابية مادية، وعلى علاقات الجسد ودوافعه، واستخفافها عمدا بكل ما يشتهر أنه من مقدسات الناس في العالم القديم، والرغبة الملحة في مخالفة ما تواضع عليه الناس هناك، وإلا فما مزية الدنيا الجديدة على ذلك العالم القديم؟.

وما يقال عن الشعور بالموت يقال عن الشعور بالدين.

ليس أكثر من الأمريكان تشييدا للكنائس، حتى لقد أحصيت في بلدة واحدة لا يزيد سكانها على عشرة آلاف أكثر من عشرين كنيسة! وليس أكثر منهم ذهابا إلى الكنائس في ليلات الأحد وأيامه، وفي الأعياد العامة وأعياد القديسين المحليين وهم أكثر من «الأولياء» عند عوام المسلمين!.. وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد عن الأمريكي عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته، وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكي وشعوره وسلوكه!.

وإذا كانت الكنيسة مكانا للعبادة في العالم المسيحي كله، فإنها في أمريكا مكان لكل شيء الا العبادة. وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أي مكان آخر معد للهو والتسلية أو ما يسمونه بلغتهم الـ (Fun) ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليدا اجتماعيا ضروريا، ومكانا للقاء والأنس، ولتمضية وقت طيب، وليس هذا شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها..

ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين، ويجتهد راعي كل كنيسة أن يلتحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن، وبخاصة أن هناك تنافسا كبيرا بين الكنائس المختلفة المذاهب. ولهذا تتسابق جميعا في الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران للفت الأنظار، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة لجلب الجماهير، بنفس الطريقة التي تتبعها المتاجر ودور العرض والتمثيل، وليس هنالك من بأس في استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن، وأبرعهن في الغناء والرقص والترويح.

وهذه مثلا محتويات إعلان عن حفلة كنيسة، كانت ملصقة في قاعة اجتماع الطلبة في إحدى الكليات:

«يوم الأحد أول أكتوبر ـ في الساعة السادسة مساء ـ عشاء خفيف، ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات. تسلية...».

وليس في هذا أية غرابة، لأن راعي الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف في شيء عن عمل مدير المسرح، أو مدير المتجر. النجاح أولا وقبل كل شيء ـ والوسيلة ليست بالمهمة ـ وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة: المال والجاه. فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته عظم دخله، وزاد كذلك احترامه ونفوذه في بلده، لأن الأمريكي بطبيعته يؤخذ بالفخامة في الحجم أو العدد، وهي مقياسه الأول في الشعور والتقدير.

كنت ليلة في إحدى الكنائس ببلدة جريلي بولاية كولورادو ـ فقد كنت عضوا في ناديها كما كنت عضوا في عدة نواد كنسية في كل جهة عشت فيها، إذ كانت

هذه ناحية هامة من نواحي المجتمع تستحق الدراسة عن كثب ومن الداخل -
وبعد ان انتهت الخدمة الليلية في الكنيسة، واشترك في التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة، دلفنا من باب جانبي إلى ساحة الرقص، الملاصقة لقاعة الصلاة، يصل بينهما الباب؛ وصعد «الأب» الى مكتبه، وأخذ كل فتى بيد فتاة، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتي، كانوا وكن، يقومون بالترتيل ويقمن!.

وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والصفراء والزرقاء، وبقليل من المصابيح البيض.. وحميالرقص على أنغام «الجراموفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان الفاتنة، والتفت الأذرع بالخصور، والتقت الشفاه والصدور.. وكان الجو كله غراما حينما هبط «الأب» من مكتبه، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن في المكان، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا في الحلبة على أن ينهضوا فيشاركوا، وكأنما لحظ أن المصابيح البيض تفسد ذلك الجو «الرومانتيكي» الحالم، فراح في رشاقة الأمريكاني وخفته يطفئها واحدا واحدا، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص، أو يصدم زوجا من الراقصين في الساحة، وبدا المكان بالفعل أكثر «رومانتيكية» وغراما. ثم تقدم إلى «الجراموفون» ليختار أغنية تناسب ذلك الجو، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه.

واختار. اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها: (But baby it is cold out side): (ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج) وهي تتضمن حوارا بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما، وقد احتجزها الفتى في داره، وهي تدعوه أن يطلق سراحها لتعود إلى دارها فقد أمسى الوقت، وأمها تنتظر. وكلما تذرعت إليه بحجة أجابها بتلك اللازمة: «ولكنها يا صغيرتي باردة في الخارج!».

وانتظر الأب حتى رأى خطوات بناته وبنيه، على موسيقى تلك الأغنية المثيرة؛ وبدا راضيا مغتبطا، وغادر ساحة الرقص إلى داره، تاركا لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة.. البريئة!.

وأب آخر يتحدث إلى صاحب لي عراقي، فقد توثقت بينه وبينه عرى الصداقة، فيسأله عن «ماري» زميلته في الجامعة «لم لا تحضر الآن الى الكنيسة؟» ويبدي أنه لا يعنيه أن تغيب الفتيات جميعاً وتحضر «ماري» وحين يسأله الشاب عن سر هذه اللهفة يجيب: «إنها جذابة، وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها!».

ويحدثني شاب من شياطين الشبان العرب الذين يدرسون في أمريكا، وكنا نطلق عليه أسم «أبو العتاهية» ـ وما أدري إن كان ذلك يغضب الشاعر القديم أو يرضيه! ـ فيقول لي عن فتاته ـ ولكل فتى فتاة في أمريكا ـ إنها كانت تنتزع نفسها من بين أحضانه أحيانا لأنها ذاهبة للترتيل في الكنيسة؛ وكانت إذا تأخرت لم تنج من إشارات «الأب» وتلميحاته إلى جريرة «أبي العتاهية» في تأخيرها عن حضور الصلاة! هذا إذا حضرت وحدها من دونه، فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها، فلا لوم عليها ولا تثريب!.

ويقول لك هؤلاء الآباء: إننا لا نستطيع ان نجتذب هذا الشباب إلا بهذه الوسائل!.

ولكن أحدا منهم لا يسأل نفسه: وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة وهم يخوضون إليها مثل هذا الطريق، ويقضون ساعاتهم فيه؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف في ذاته، أم آثاره التهذيبية في الشعور والسلوك؟ من وجهة نظر «الآباء» التي أوضحتها فيما سلف، مجرد الذهاب هو الهدف. وهو وضع نمن يعيش في أمريكا مفهوم!.

ولكني أعود إلى مصر، فأجد من يتحدث أو يكتب، عن الكنهسة في أمريكا ـ وهو لم ير أمريكا لحظة ـ وعن دورها في الإصلاح الاجتماعي، ونشاطها في تطهير القلب، وتهذيب الروح..

ولله في خلقه شؤون!.

والأمريكي بدائي في حياته الجنسية، وفي علاقات الزواج والأسرة. ولقد مررت في أثناء دراساتي للكتاب المقدس بتلك الآية الواردة في «العهد القديم» حكاية عن خلق الله للبشر أول مرة وهي تقول: «ذكرا وأنثى خلقهم». . مررت بهذه الآية كثيرا، فلم يتمثل لي معناها عاريا واضحا جاهرا، كما تمثل لي في أثناء حياتي بأمريكا.

إن كل ما تعبت الحياة البشرية الطويلة في خلقه وصيانته من آداب الجنس، وكل ما صاغته حول هذه العلاقات من عواطف ومشاعر، وكل ما جاهدت من غلاظة الحس، وجهامة الغريزة، لتطلقه إشعاعات مرفرفة، وهالات مجنحة، وأشواق طليقة، وكل الروابط الوثيقة حول تلك العلاقات في شعور الفرد، وفي حياة الأسرة، وفي محيط الجماعة. .

إن هذا كله قد تجردت منه الحياة في أمريكا مرة واحدة، وتجلت عارية عاطلة من كل تجمل. «ذكرا وأنثى» كما خلقهم أول مرة. جسداً لجسد، وأنثى لذكر. على أساس مطالب الجسد ودوافعه، تقوم العلاقات وتتحدد الصلات، ومنها تستمد قواعد السلوك، وآداب المجتمع، وروابط الأسر والأفراد.

بفتنة الجسد وحدها، عارية من كل ستار، مجردة من كل حياء، تلقى الفتاة الفتى، ومن قوة الجسد وضلاعته يستمد الفتى إعجاب الفتاة. ويستمد الزوج حقوقه ـ هذه الحقوق التي تسقط جميعها في عرف الجميع، يوم يعجز الرجل عن الوفاء بها لسبب من الأسباب.

والفتاة الأمريكية تعرف جيدا مواضع فتنتها الجسدية، تعرفها في الوجه: في العين الهاتفة والشفة الظامئة، وتعرفها في الجسم: في الصدر الناهد والردف المليء، وفي الفخذ اللفاء والساق الملساء، ـ وهي تبدي هذا كله ولا تخفيه ـ وتعرفها في اللباس: في اللون الزاهي توقظ به الحس البدائي، وفي التفصيل الكاشف عن مفاتن الجسد وهو بذاته في الأمريكية فتنة حية صاعقة في بعض الأحيان! ـ ثم تضيف إلى هذا كله الضحكة المثيرة، والنظرة الجاهرة، والحركة

الجريئة، ولا تغفل عن ذلك كله لحظة أو تنساه!.

والفتى الأمريكي يعرف جيدا أن الصدر العريض، والعضل المفتول، هما الشفاعة التي لا ترد عند كل فتاة، وأن أحلامها لا ترف على أحد كما ترف على «رعاة البقر» الـ (Cow boys).

وبصريح العبارة تقول لي فتاة ممرضة في مستشفى «لست أطلب في فتى أحلامي إلا ذراعين قويتين يعصرني بهما عصراً».. وقامت مجلة «لوك» (Look) باستفتاء لعدد من الفتيات من مختلف الأعمار والثقافات والأوساط حول ما أسمته «عضل الثيران» فأبدت غالبية ساحقة إعجابهن المطلق بالفتيان أصحاب عضل الثيران!.

وما من شك أن لهذه الظاهرة دلالتها على حيوية هذا الشعب وقوة حسه. ولو هذبت هذه الطاقة وتسامت لاستحالت فنا يجمل جهامة الحياة، وأشواقا تجعل لها في الحس الإنساني نكهة، وتربط بين الجنسين بروابط أعلى وأجمل من روابط الجسد الظامىء والحس الهائج، والجنس الصارخ في العيون، الهاتف في الجوارح، المتنزي في الحركات واللفتات، ولكن طبيعة الحياة في أمريكا، والملابسات التي سلفت في نشأة هذا الشعب، لا تساعد على شيء من هذا، بل تقاومه وتقصيه.

وهكذا أصبحت كلمة حيي أو خجول (Bashful) من كلمات العيب والتحقير؛ وانطلقت العلاقات الجنسية من كل قيد على طريقة الغابة، وأصبح بعضهم يفلسفها فيقول كما قالت لي إحدى فتيات الجامعة مرة: «إن المسألة الجنسية ليست مسألة أخلاقية بحال. إنها مجرد مسألة بيولوجية: وحين ننظر إليها من هذه الزاوية نتبين أن استخدام كلمات الرذيلة والفضيلة. والخير والشر، إقحام لها في غير مواضعها، وهو يبدو لنا نحن الأمريكان غريبا، بل مضحكا...» وبعضهم يبررها ويعتذر عنها كما قال لي طالب يشتغل للدكتوراه: «إننا هنا مشغولون بالعمل، ولا نريد أن يعوقنا عنه معوق، وليس لدينا وقت ننفقه في

العواطف! ثم إن الكبت يتعب أعصابنا، فنحن نريد أن ننتهي من هذه «الشغلة!» لنفرغ إلى العمل بأعصاب مستريحة».

ولم أرد أن أعلق على هذا الحديث في وقته. فقد كان همي أن أعرف كيف يفكرون في هذه المسألة. وإلا فكل شيء في إمريكا لا يدل على أعصاب مستريحة، بالرغم من كل وسائل الحياة المريحة، وكل ضماناتها المطمئنة، وكل يسر وسهولة في إنفاق الطاقات الفائضة.

وبعضهم يسمي هذا تحررا من الرياء ومواجهة للحقائق. ولكن هنالك فارقا أساسيا بين التحرر من الرياء، والتحرر من المقومات الإنسانية التي تفرق بين الإنسان والحيوان. والإنسانية في تاريخها الطويل لم تكن تجهل أن الميول الجنسية ميول طبيعية وحقيقة، ولكنها ـ عن وعي أو غير وعي ـ كانت تجاهد لتتحكم فيها، فرارا من العبودية لها، وبعدا عن مدارجها الأولى.. إنها ضرورة نعم؛ ولكن لماذا تخجل الإنسانية من إبداء ضروراتها؟ لأنها تحس بالفطرة أن التحكم في هذه الضرورات هو شهادة الخلاص من الرق، وأولى مدارج الإنسانية في الطريق، وأن العودة إلى حرية الغابة عبودية مقنعة، ونكسة إلى مدارج البدائية الأولى.

في ميزان القيم الانسانية

- ٣ -

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٦١ ص ١٣٥١

الأمريكي بدائي في ذوقه الفني؛ سواء في ذلك تذوقه للفن، أو أعماله الفنية.

موسيقى «الجاز» هي موسيقاه المختارة. وهي تلك الموسيقى التي ابتدعها الزنوج لارضاء ميولهم البدائية، ورغبتهم في الضجيج من ناحية، ولاستثارة النوازع الحيوية من ناحية أخرى. ولا تتم نشوة الأمريكي تمامها بموسيقى «الجاز» حتى يصاحبها غناء مثلها صاخب غليظ. وكلما علا ضجيج الآلات والأصوات، وطن في الآذان إلى درجة لا تطاق.. زاد هياج الجمهور، وعلت أصوات الاستحسان، وارتفعت الأكف بالتصفيق الحاد المتواصل، الذي يكاد يصم الآذان.

ولكن الجمهور الأمريكي مع هذا يقبل على الأوبرا، ويصغي إلى السيمفونيات، ويتزاحم على «الباليه» ويشاهد الروايات التمثيلية «الكلاسيكية» حتى لا تكاد تجد مقعدا خاليا، ويقع في بعض الأحيان ألا تجد مكانا إذا أنت لم تحجز مقعدك قبلها بأيام، على غلاء الأسعار في هذه الحفلات.

ولقد خدعتني هذه الظاهرة في أول الأمر، بل لقد فرحت بها في داخل نفسي، فقد كنت دائم الشعور «باستخسار» هذا الشعب الذي يصنع المعجزات في عالم الصناعة والعلم والبحث، ألا يكون له رصيد من القيم الانسانية

الأخرى، وأنا شديد الإشفاق على الإنسانية أن تؤول قيادتها إلى هذا الشعب، وهو فقير من تلك القيم جميعا.

فرحت اذن حين شاهدت هذه الظاهرة، لأن الجمهور الذي يقبل على الفن الراقي غير ميئوس منه مهما تكن عيوبه، ومتى فتحت هذه النافذة في شعوره فالأمل كبير أن تطل منها أشعة أخرى كثيرة.

وقد دفعني الاهتمام بهذه الظاهرة إلى أن أتقصى كل شيء عنها في أوساط مختلفة، وفي مدن متعددة، ولكن تتبعي لسمات الوجه، ومحادثاتي مع الكثيرين والكثيرات من رواد هذه الأماكن ـ من أعرف ومن لا أعرف ـ قد كشفت لي ـ مع الأسف ـ عن أن الشقة ما تزال بعيدة بين روح هذا الفن الإنساني وروح الأمريكان. إن مشاعرهم عنها محجبة إلا في النادر، وإنهم إنما ينظرون إلى المسألة من زاوية اجتماعية بحتة. فالأمريكي المثقف لا بد أن يكون شهد هذه الألوان وذهب إلى تلك الأماكن، حتى إذا دار الحديث عنها في مجتمع شارك في الحديث. فالعيب الأكبر في أمريكا ألا يشارك الإنسان في الحديث، وبخاصة بالنسبة إلى الفتيات، إذ المطلوب منهن أن يجدن دائما موضوعات للحديث، فإذا ارتدن هذه الأماكن فإنهن يضفن موضوعات جديدة إلى الموضوعات الأمريكية الخالدة وهي: مسابقات الكرة. وأسماء الأفلام. والممثلين والممثلات. وحوادث الطلاق والزواج. وماركات وأسعار السيارات.

وبهذه الروح ذاتها تفد الجموع على المتاحف الفنية، عابرة عبورا خاطفا بالقاعات وبالمعروضات، بطريقة لا تدل على تذوق أو ألفة لهذه الأعمال. كما يذهبون أفرادا وجماعات لمشاهدة مناظر الطبيعة خطفا، والمرور بأقصى سرعة السيارات بالأماكن والمناظر لجمع مادة للحديث، ولتلبية الميل الأمريكي الطبيعي إلى الجمع والإحصاء.

ولقد كنت أسمع في مبدإ وجودي بأمريكا أن أحدهم زار كذا وكذا من المدن والبلاد والمناظر والمشاهد، وقطع كذا ميلا في رحلاته السياحية، وهو

يعرف كذا عددا من الأصدقاء، فأعجب بهذه المقدرة على صنع هذا كله، وأود لو أستطيع منه شيئا! ثم عرفت فيما بعد كيف تتم هذه المعجزات.. يركب أحدهم سيارته وحده أو مع أسرته أو أصحابه في رحلة، فيعدو بها عدوا على آخر سرعتها، مخترقا بها المدن والمسافات، عابرا بالمناظر والمشاهد، وهو يقيد في مذكرته الأسماء والأميال.. ثم يعود فإذا هو شهد هذا كله وأصبح له الحق في الحديث عنه! أما الأصدقاء فيكفي أن يدعى الى حفلات التعارف، وهناك يلتقي بالوجوه أول مرة، والقائم بالدعوة يعرفه بالحاضرين واحدا واحدا وواحدة واحدة، وهو يستكتب من شاء منهم اسمه وعنوانه وكذلك هم يفعلون معه. وعلى الزمن تتضخم مذكرته بالأسماء والعنوانات. فإذا هو صاحب أكبر رقم من الأصدقاء والصديقات. وقد يفوز في مسابقة تقام لهذا الغرض. وما أكثر وأغرب المسابقات هناك!.

وهكذا يقاس علمك وثقافتك أحيانا بقدر ما قرأت وما شهدت وما سمعت. كما تحسب ثروتك المادية بعدد ومقدار ما تملك من مال وعقار سواء بسواء!.

وليست هذه عقلية الجماهير وحدها، ولكنها كثيرا ما تكون عقلية المفكرين والباحثين. فلقد خطر للمفكرين في أمريكا أنه لا يصح أن تكون دولتهم أغنى دول العالم، وشعبهم أكثر شعوب الأرض حضارة صناعية، وحضارة علمية، ثم لا يكون لهم من الثروة الفنية مثل ما لبعض الشعوب الفقيرة كالطليان والألمان.

ولديهم المال - والمال يصنع المعجزات - وإن هي الا سنوات حتى كان لهم من متاحف الرسم والنحت أفخمها وأضخمها. وجمعت لها القطع الفنية من كل فج، وعمرت بالنادر والثمين من هذه القطع، التي لم يبخلوا على شرائها بالمال. وكلها قطع أجنبية إلا القليل؛ لأن القطع الأمريكية بدائية وساذجة إلى حد مضحك بجوار تلك الذخائر العالمية الرائعة.

وكذلك كان لهم من الفرق الموسيقية العازفة وفرق «الباليه» الراقصة، أكثرها مهارة وإتقانا، ومن مديري هذه الفرق أعظمهم عبقرية وإبداعا.. وكلهم من الأجانب إلا القليل.

ثم خرجت الإحصاءات الدقيقة تعلن عما تملك امريكا من الثروات الفنية الضخمة، المشتراة بالمال، ولكن بقي أمر واحد بسيط: أن يكون للنفس الأمريكية نصيب في هذه الثروات؟ بل أن يكون لها مجرد التذوق الفني لهذا التراث الانساني الثمين!.

وخطر لي أن أمتحن هذه الأرقام في متاحف الفن، كما أمتحنها في دور الأوبرا وما إليها.

ذهبت للمرة العاشرة إلى متحف الفن في سان فرانسسكو وجعلت مادة امتحاني إحدى قاعات الصور من الفن الفرنسي، ووزعت اهتمامي على ما فيها من الصور، ولكنني ركزته على صورة واحدة بارعة اسمها: «ثعلب في بيت الدجاج» ولا تملك الألفاظ أن تنقل الى القارىء روعة هذه الصورة العبقرية التي صور فيها الرسام جملة مشاعر عميقة مركبة في لوحة ليس فيها وجه إنسان يسهل على الرسام أن يصور هذه المشاعر فيه.. ثعلب في بيت الدجاج، والجو داكن خانق وقد هجم الثعلب أول ما هجم على دجاجة أم مفرخة، بدت مكروبة مجهدة، في مخالب الوحش المكشر؛ وقد فزع صغارها، وتناثر البيض الباقي تحتها؛ على حين تناثرت زميلاتها في فراغ اللوحة، ووقف الديك ـ رجل البيت ـ وقفة المغلوب على أمره، أما الأخريات فواحدة جازعة مأخوذة، وأخرى قانطة مشمئزة أن يكون في الحياة كل هذه الشناعة، وثالثة حائرة متسائلة: كيف وقع هذا؟ والجو كله والألوان في اللوحة العبقرية تصور ما لا تدركه الألفاظ.

واسترحت إلى مقعد من المقاعد التي جهزت بها القاعات تجهيزا جميلا بديعا، ليستريح عليها الزائرون عند التعب من المشاهدة والطواف، ورحت أستعرض الملامح والسمات، وأنصت إلى الملاحظات والتعليقات.

وانقضت علي في جلستي أربع ساعات كاملة، مر بي في خلالها مائة وتسعة، فرادى وأزواجا وجماعات، معظمهم من الفتيات والفتيان الذين يتواعدون على قضاء بعض الوقت في حديقة المتحف، ثم في المتحف ذاته، لأنه ينبغي للفتاة الاجتماعية أن تشارك في الحديث، وأن تجد موضوعات للحديث.

كم من هؤلاء التسعة والمائة بدا عليه أن يحس شيئا مما يرى؟ واحد فقط تلبث أمـام الصورة المنتقاة نحو دقيقتين، وتلبث في القاعة كلها نحو خمس دقائق.. ثم طار.

وكررت التجربة في قاعات المتحف الأخرى، ثم كررته في متاحف أخرى في عدة مدن، ثم انتهيت إلى أن قلة نادرة من هذه الكثرة الكثيرة التي تتضمنها إحصاءات الزائرين تدرك شيئا من هذه الثروة الفنية الهائلة، التي جمعها الدولار من كل بقاع الأرض، وبقي أن يخلق الحاسة الفنية، التي يبدو أنها لا تستجيب لسحر الدولار!.

الفن الوحيد الذي يتقنه الأمريكان ـ وإن يكن سواهم لا يزال يفوقهم في الناحية الفنية فيه ـ هو فن السينما. وهذا طبيعي ومنطقي مع تلك الظاهرة التي ينفرد بها الأمريكي: ذروة الإتقان الصناعي، وبدائية الشعور الفني. وفي السينما تبدو هذه الظاهرة واضحة إلى حد كبير.

لا يرتفع الفن السينمائي بطبيعته الى آفاق الفنون العليا: الموسيقى والرسم والنحت والشعر، ولا الى فن المسرح كذلك، وإن كانت إمكانيات الصناعة الفنية وإمكـانيات الإخـراج في السينما من إبداع. هو أقصى ما يبلغه فن التصوير الشمسي. ثم تظل المسـافـة بينه وبين المسرح مثلا، كالمسافة بين التصوير الفوتوغرافي والتصوير بالريشة. هذا تتجلى فيه عبقرية الشعور، وذلك تتجلى فيه مهارة الصناعة.

والسينمـا فن الجمـاهير الشعبي، فهـو فن المهـارة والإتقـان والتجسيم والتقريب، وهو بطبيعة اعتماده على المهارة أكثر من اعتماده على الروح الفنية.. يمكن أن تبدع فيه العبقرية الأمريكية.. ومع هذا فما يزال الفلم الإنجليزي والفرنسي والروسي والإيطالي أرقى من الفلم الأمريكي، وإن كان أقل صناعة ومهارة.

والكثرة الغالبة من الأفلام الأمريكية تتجلى فيها بدائية الموضوع، وبدائية

الانفعالات، وهي في الغالب أفلام الجريمة البوليسية، وأفلام رعاة البقر. أما الأفلام العالية البارعة من أمثال: «ذهب مع الريح» و «مرتفعات وذرنج» و «ترتيل برنادوت» وما إليها فهي قليلة بالقياس إلى النتاج الأمريكي. وما يرد من الفيلم الأمريكي الى مصر أو البلاد العربية لا يمثل هذه النسبة، لأن الكثير منه من أرقى الأفلام الأمريكية النادرة. والذين يزورون دور العرض في أمريكا هم الذين يدركون تلك النسبة الضئيلة من الأفلام القيمة.

هنالك فن آخر برع فيه الأمريكان، لأن ما فيه من المهارة في الصناعة والإنتاج، أكثر مما فيه من الفن العالي الأصيل.. ذلك هو فن تمثيل المناظر الطبيعية بالألوان، كأنها فوتوغرافية صادقة دقيقة. ويبدو هذا في متاحف الأحياء المائية والبرية، إذ تعرض هذه الأحياء أو أجسادها المحنطة في مثل مواطنها الطبيعية كأنها حقيقية، وتبرع ريشة الرسام، في تصوير هذه المواطن، مشتركة مع التصميم الفني للمنظر، وتبلغ حد الإبداع.

ثم ندع تلك الآفاق العليا في الفن والشعور، لنهبط إلى ألوان الملابس وإلى مذاق الأطعمة.

إن بدائية الذوق لا تتجلى في شيء كما تتجلى في تلك الألوان الصارخة الزاهية، وفي تلك التقاسيم المبرقشة الكبيرة وبخاصة ملابس الرجال.. ذلك السبع أو النمر الواثب على صدر الصدرية.. وذلك الفيل أو الثور الوحشي الجاثم على ظهرها. تلك الفتاة العارية الممدة على رباط العنق من أعلى إلى أسفل، أو تلك النخلة الصاعدة فيه من أسفل إلى أعلى..

لطالما تحدث المتحدثون عندنا عن «فستان العيد» في الريف، أو عن ثوب العروس في القرية، بألوانه الزاعقة البدائية، التي لا تربط بينها رابطة، إلا أنها كلها فاقعة الألوان.. ليت هؤلاء يرون معي أقمصة الشبان في أمريكا لا ملابس الفتيات!.

ولطالما تحدث المتحدثون عن «الوشم» عند الغجر، أو في أواسط إفريقية،

ليتهم يرون أذرع الشبان الأمريكان وصدورهم وظهورهم، موشعة بالوشم الأخضر: ثعابين وحيات، وفتيات عاريات، وأشجارا وغابات! في أمريكا المتحضرة. في الدنيا الجديدة. في العالم العجيب!.

أما الطعوم فشأنها هو الآخر عجيب.

إنك تلفت النظر، وتثير الدهشة، حين تطلب قطعة أخرى من السكر لكوب الشاي أو القهوة تشربه في أمريكا. ذلك أن السكر محتفظ به للمخلل «والسلاطة»! كما أن الملح يا سيدي محتفظ به للتفاح والبطيخ!

وفي صحفة طعامك تجتمع قطعة اللحم المملحة، إلى كمية من الذرة المسلوقة، وكمية من البازلاء المسكرة وبعض المربى الحلوة. . . وفوق ذلك كله الـ Grafy المؤلف أحيانا من السمن والخل والدقيق ومرقة العجل والتفاح، والملح والفلفل والسكر. . والماء!.

كنا على المائدة في مطعم ملحق بالجامعة حينما رأيت بعض الأمريكان يضعون الملح على البطيخ، وكنت قد إعتدت رؤية هذه «التقاليع» واعتدت كذلك أن أتفكه عليهم في بعض الأحيان. وقلت متجاهلا: أراكم ترشون الملح على البطيخ؟ قال أحدهم: أجل! ألا تصنعون ذلك في مصر؟ قلت: كلا! إنما نحن نرش الفلفل! قالت واحدة في دهشة واستفسار: أويكون مستساغا؟ قلت: يمكنك أن تجربي! وجربت، وذاقت. وقالت في استحسان: كم هو لذيذ! وكذلك فعل الآخرون.

وباختصار فكل ما يحتاج إلى قسط من الذوق فالأمريكاني ليس له فيه حتى الحلاقة! وما من مرة حلقت شعري هناك إلا وعدت إلى البيت لأسوي بيدي ما شعث الحلاق، وأصلح ما أفسده بذوقه الغليظ!.

إن لأمريكا دورها الرئيسي في هذا العالم، في مجال العلم التطبيقي، وفي مجال البحوث العلمية، وفي مجال التنظيم والتحسين، والإنتاج والإدارة. . كل ما يحتاج إلى ذهن وعضل فهنا تبرز العبقرية الامريكية. وكل ما يحتاج إلى روح وشعور فهنا تبدو البدائية الساذجة.

وإن البشرية لتملك أن تنتفع بالعبقرية الأمريكية في مجالها فتضيف قوة ضخمة إلى قواها. ولكن هذه البشرية تخطىء أشنع الخطأ، وتعرض رصيدها من القيم الإنسانية للضياع، إذا هي جعلت المثل الأمريكية مثلها في الشعور والسلوك..

إن ذلك لا يعني أن الأمريكان شعب بلا فضائل، وإلا لما أمكنه أن يعيش، ولكنه يعني أن فضائله هي فضائل الإنتاج والنظام، لا فضائل القيادة الإنسانية والاجتماعية؛ فضائل الذهن واليد، لا فضائل الذوق والشعور.

القوة الكامنة في الاسلام

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٦٣ ص ١٤١٣

حينما وقف جلادستون في مجلس العموم البريطاني، وبيده المصحف؛ وقال قولته المشهورة: «ما دام هذا الكتاب في أيدي المسلمين فإنكم لن تسيطروا عليهم، ولن يلين لكم قيادهم». . كان أعرف بقوة الإسلام الكامنة من الكثيرين ممن يسمون أنفسهم مسلمين. لقد كان يدرك أن في هذا الدين من روح الاستعلاء، ومن قوة المقاومة، ومن عناصر الوحدة، ما يقف للرجل الأبيض بالمرصاد، وما يقاوم أسلحته ودسائسه وحضارته كلها جميعا.

ولكن المسلمين، أو من يقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، . لم يدركوا ما أدركه ذلك الإنجليزي المستعمر، فراحوا يبعثرون في سفه هذا الرصيد المكنون، ويستهينون في بلاهة بتلك القوة الكامنة، ويحسبون الدين رجعية، والعقيدة جهالة، والإيمان سذاجة، وأنهم لا يكونون مثقفين، ولا يكونون متحضرين، ولا يكونون قطعة من أوربا، حتى يتعروا من مقدساتهم، ويتخلوا عن عقيدتهم، ويتندروا بمن يحدثهم عن الإسلام كما لو كان يحدثهم عن الخرافات والأساطير.

ومن هذا الطريق تغلغل الاستعمار. ومن هذا الطريق طوقهم المستعمرون. ومن هذا الطريق ذابت دولهم وشخصياتهم ومقوماتهم واستقلالهم. ومن هذا الطريق طردوا إلى ذيل القافلة، وقد كانوا من قبل عند مأخذ الزمام.

ومكر الاستعمار، ومكر أذناب الاستعمار، بكل أثر للعقيدة، وبكل محاولة

لاستنبات بذورها في الأرواح والضمائر. . في عالم القانون والقضاة نبذت شريعة الله، واستبدلت بها قوانين نابليون. . وفي عالم الوظائف والدواوين، نبذ أصحاب الثقافة الدينية، وأصبحت مراكزالحكم، ومراكز التوجيه كلها في الأيدي التي آمنت بالحضارة الغربية وكفرت بالدين. . وفي برامج التعليم ونظمه، أصبح الدين درسا إضافيا ميتا خارج الجدول، وحتى حين أدخل في الجدول، أدخل ميتا عقيما، والتاريخ الإسلامي انزوى في صفحات مشوهة ممزقة خبيثة.

في كل ميدان، وفي كل حقل حورب هذا الإسلام، حورب في المجتمع، وحورب في الدولة، وحورب في المدرسة، وحورب في الضمير. . حورب حربا لئيمة متصلة واعية تملك كل وسائل التأثير والتدمير. . حورب بقوة السلاح، حين حاولت أوربا الصليبية أن تحطم دول الإسلام في ميادين القتال. وحورب بقوة العلم، في عالم التأليف، وفي دنيا التعليم. وحورب بقوة الفساد الذي كان عملاء الاستعمار ينشرونه في كل مكان تطؤه أقدامهم، ويحطمون به لا العقيدة وحدها، ولكن الضمير الذي تكمن فيه العقيدة.

لم تبق وسيلة، ولم تبق حيلة، لم يستخدمها الاستعمار الأوربي، ولم تستخدمها الصليبية الغربية في محاربة الإسلام. . ولكن هذا الإسلام بقي بعد ذلك كله، ورغم ذلك كله، قوة كامنة في أرض الإسلام، وفي أهل الإسلام.

لقد خيل إلى الكثيرين في وقت ما أن هذه القوة قد ماتت إلى الأبد، وأن الدعوات التي ترتفع بين الحين والحين إن هي الا سكرات الموت، أو هذيان الحمى في اللحظات الأخيرة. . ولكن هذا الإسلام قد أخذ يبدد هذه الظنون. إنه قوة حية. إنها انتفاضة الحياة لا سكرة الموت. إنه هتاف الحياة لا هذيان الحمى. إنها الحقيقة الواقعة الملموسة التي تجبر المستعمرين أنفسهم أن يتحدثوا عن «العالم الإسلامي»!.

ذكرت كل هذه المعاني وأنا أحضر حفلا لجمعية العلماء في الجزائر، وأنا ألقى الزعيم الجزائري «مصالحي الحاج». . لقد كانت الجزائر هي آخر أرض

إسلامية يتخيل متخيل أن تثب فيها روح الإسلام، بعد كل ما قاسته من كبت وخنق، ومن عذاب ونكال، تحت ضغط الحكم الفرنسي أشنع أنواع الاستعمار الصليبي المتعصب. وبعد كل هذه الجهود المتصلة خلال أجيال كثيرة. جهود المستعمرين، وجهود المبشرين، التي لم تكف عنها فرنسا لحظة واحدة في هذه الحقبة الطويلة.

الجزائر التي حرم فيها تدريس اللغة العربية والدين بالمدارس. والتي صبت الويلات على علمائها ورجال الدين فيها، والتي انتهكت حرماتها وأعراضها لإفساد الدم العربي، وتضييع النخوة العربية، وخلط الأنساب والدماء بالقوة كي تضيع معالم العروبة والإسلام، لا في الأفكار والضمائر فحسب، بل في الدماء والأجسام.

ولكن الإسلام كان أقوى من ذلك كله. كان قوة كامنة عميقة لا تجتث جذورها قوة السلاح، ولا قوة العلم، ولا قوة الدسيسة: كان قوة من السماء لا تملك لها قوة الأرض دفعا.

والآن لقد انبعثت هذه القوة من جديد. لقد انبعثت في مشارق الأرض ومغاربها. لقد انبثقت ينابيعها في كل مكان. لقد كانت من قبل كامنة وراء كل حركة من حركات التحرير التي ظهرت في العالم الإسلامي. أما اليوم فقد استعلنت وأعلنت عن نفسها. لقد أعلنت عن نفسها في الباكستان، وأندونيسيا، وإيران. وأعلنت عن نفسها في مراكش، وفي تونس، وفي الجزائر. وإنها لتتهيأ وتتوثب في الملايو، وفي عدن، وفي بورما.. وإنها لتتجمع في مصر والعراق وباقي الأمة العربية. وإنها لتتنادى في مشارق الأرض ومغاربها إلى «كتلة ثالثة».. إلى «عالم إسلامي» وإن الغرب المستعمر ليسمع هذا التنادي، ويرى هذا البعث، ويشهد هذه المعجزة تتم من جديد. وإنه ليحاول أن يستميل إليه هذه القوة الناهضة بعد أن يئس أو كاد من محاولة القضاء عليها.

لقد أدرك الغرب ـ وهو أسرع إدراكا للحقائق الواقعة ـ أن العالم الإسلامي

لو كان مقدرا له أن يموت لمات. وإذا كان كل هذا السم لم يقتله، فإنه إذن سيزيد قوة، كما تنطق بذلك حكمة أحد شعرائهم «جيته» الألماني!.

ولم يبق كافرا بهذا العالم الإسلامي، شاكا في وجوده وفي قوته، إلا ذلك الفتات الآدمي الذي خلفه الاستعمار الغربي، ممن يسمونهم (المثقفين). كل الحطام الذي استعمر الغرب ضميره وروحه وتفكيره. تلك المخلوقات المضحكة التي لا تؤمن بشيء لم يكتب عليه: Made in Europe (صنع في أوربا)!.

عما قليل سيرد لهذه المخلوقات المضحكة شيء (صنع في أوربا) يقول لهم: إن العالم الإسلامي حقيقة (مادية) واقعة.. عندئذ سيؤمنون بوجود العالم الإسلامي. وعندئذ سيتحمسون لإقناع الآخرين بهذه الحقيقة (المادية) الواقعة.. ومن يدري. فلعلهم يومئذ سيحاولون إقناعنا نحن أيضا بهذه الحقيقة!.

اللغة العربية في العالم الاسلامي

س ١٩/ ١٩٥١ ع ٩٦٥ ص ١٤٦٩

فرحت لذلك القرار الذي اتخذه المؤتمر الاسلامي في كراتشي بأن تكون اللغة العربية لغة دولية في العالم الإسلامي، تتفاهم بها الدول الإسلامية في مكاتباتها الرسمية، ويتفاهم بها المسلمون حيثما التقوا في مكان. .

إن هذا القرار خطوة قيمة في سبيل الوحدة الإسلامية التي أصبحت اليوم حقيقة واقعة، لا ينقصها إلا التنظيم العملي. وهذا القرار هو خطوة في سبيل هذا التنظيم العملي.

ولقد قلت لسعادة سفير الباكستان في مصر الحاج عبدالستار سيت في لقاء لنا في العام الماضي: إن باكستان لن تؤدي دورها الضخم الذي تملك أداءه للعالم الإسلامي إلا يوم أن توجد وحدة لغوية بينها وبين الأمة العربية المسلمة. وليس من الضروري في هذه المرحلة أن تتخذ باكستان اللغة العربية لغة رسمية لها؛ فإنه يكفي أن يعمم تعليم اللغة العربية كلغة ثانية؛ وبذلك يمكن التفاهم بهذه اللغة بين الحكومات والشعوب والأفراد. ويمكن لأهل باكستان أن يقرأوا الصحف والكتب العربية، كما يمكن للعرب أن يقرأوا شيئا مما يصدر في باكستان باللغة العربية.

ومثل هذا يقال عن أندونيسا، وعن إيران، وعن تركيا (ومعذرة عن ذكر تركيا في سياق الحديث عن العالم الإسلامي. . فأنا أعني الشعب التركي وهو بريء من جرائر حكومته وآثامها!).

وإنه ليسرني أن أعرف أن معهدا لتعليم اللغة العربية قد افتتح في باكستان، وإن كانت معلوماتي عنه لا تزال ناقصة. وأنا بسبيل استكمالها، وتقديم كل ما يمكنني تقديمه من الجهد في هذا السبيل.. وإن كنت أعرف مع الأسف أن وزارة المعارف المصرية لم تساهم إلى اليوم أية مساهمة في هذا الموضوع الخطير.

إن تعميم دراسة اللغة العربية في مدارس باكستان وأندونسيا كلغة ثانية تأخذ وضع اللغة الانجليزية في مدارسنا المصرية.. هو حدث تاريخي هام في تاريخ الشرق، وتاريخ العالم الإسلامي. بل ربما كان أخطر حدث في تاريخ الإسلام الحديث؛ لأن نتائجه في أوضاع الشرق، بل في أوضاع العالم ستتجاوز بعد، فترة وجيزة نتائج أي حدث عالمي في تاريخ العالم الحديث.

إن معناه إضافة مقوم قوى إلى مقومات الوحدة في العالم الإسلامي، مقوم وحدة اللغة والتفاهم إلى مقومات الوحدة الجغرافية والاقتصادية والعسكرية والدينية.. وهذا المقوم الجديد هو الذي يتيح الفرصة لتقارب مناهج التعليم، ومناهج التفكير، كما يتيح الفرصة لتبادل الأفكار والمؤلفات والأساتذة والطلاب.. وبتعبير مختصر لاستكمال عناصر الوحدة التي أصبحت اليوم ضرورة حياة بالقياس إلى تلك الكتلة الإسلامية كلها، لا مجرد رغبة نابعة من عقيدة المتدينين في هذه البلاد.

إن الموقف السياسي والعسكري لهذ الكتلة الإسلامية يحتم اليوم أن تقوم فيما بينها وحدة كاملة، لكي يكون لها وزن في المضمار الدولي، ولكي تستطيع تحقيق الأهداف المشتركة لجميع الشعوب المندمجة فيها. وعوامل هذه الوحدة كلها قائمة لا تحتاج إلى غير التنظيم، فيما عدا عامل اللغة والتفاهم. وهذا ما يجب توفيره عن هذا الطريق الذي اقترحته على سعادة سفير الباكستان في العام الماضي.

وما من شك أن وزارة المعارف المصرية تملك الشيء الكثير في هذا

المضمار. وما من شك أن تحقيق مثل هذا الهدف الضخم أكبر قيمة بما لا يقاس من إنشاء تلك المعاهد الثقافية في لندن ومدريد وطنجة والجزائر أيضا. . فأنا أعرف أن معهدنا الثقافي في لندن مثلا ما يزيد على أن يعلم اللغة العربية لبضعة عشر يهوديا معظمهم قد اشتغلوا فيما بعد جواسيس على العرب في حرب فلسطين، وبضعة عشر إنجليزيا ممن يعدون أنفسهم لخدمة الاستعمار الإنجليزي في الشرق العربي! وهذه المهمة تستغرق جهود رجل مصري مثقف كالدكتور عبدالعزيز عتيق. كم كانت إحدى كليات الجامعات المصرية في حاجة إليه هنا لاستكمال أساتذتها!.

ولو أنشىء معهد ثقافي مصري في باكستان ومثله في أندونسيا لاستطاع من غير شك أن يؤدي للثقافة الإسلامية، وللعالم الإسلامي من الخدمات أضعاف ما يؤدي معهد في لندن أو في مدريد، أو حتى في طنجة والجزائر، لأن انضمام كتلتين ضخمتين إلى نهر الثقافة العربية، واستكمال أسباب الوحدة بين العالم العربي وبقية العالم الإسلامي. . يساويان بلا شك شيئا كثيرا، لليوم والغد، وللسياسة والاقتصاد، وللأهداف القومية العليا في المستقبل القريب والمستقبل البعيد.

على أن إنشاء المعاهد الثقافية ليس إلا مثلا لما تملك وزارة المعارف المصرية النهوض به في باكستان وأندونسيا؛ فإنها من غير شك تملك إنشاء معاهد لتخريج معلمين للغة العربية في هذين البلدين. وستجد الكثيرين من أهل باكستان وأهل أندونسيا يلتحقون بهذه المعاهد لو أنشأتها هناك. وستجد من أهل البلاد من يصلحون أساتذة لهذه المعاهد بمعاونة بعض زملائهم من مصر والعالم العربي. . ووظيفة هذه المعاهد هي تخريج أفواج من المدرسين المستعدين لأن يقوموا بدورهم بتدريس اللغة العربية في مدارس بلادهم. فأنا أعرف أن عقبة عدم وجود الكفاية من المدرسين عقبة حقيقية في طريق تقرير اللغة العربية في مدارس الباكستان بالذات، أو مدارس بعض ولاياتها الراغبة منذ اليوم في تقرير اللغة العربية.

نعم إنني أعـرف أن لمعالي الدكتور طه حسين باشا آراء قديمة تضمنها كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر» من شأنها أن تجعل إهتمامه بربط مصر بأمم البحر الأبيض أشد من ربطها بالبلاد الشرقية كباكستان وأندونسيا؛ لأن الصلة التي تربطها بعقلية البحر الأبيض ـ على الرغم من اختلاف الأديان والمصالح القومية ـ أقوى من الصلة التي تربطها بعقلية هذا الشرق ولو اتحد الدين.

ولكن هذه الآراء قد كتبت منذ خمسة عشر عاما. وإني لأحسب أن أشياء كثيرة قد جدت في الأفق، وأن هذه الأشياء كفيلة بأن تبرز حقائق جديدة، وعناصر في الموقف جديدة، وأن هذا كله كفيل بتغيير رأي الدكتور طه باشا، لأن الحاجة الماسة إلى قيام كتلة إسلامية، وإلى وحدة العالم الإسلامي، ذات أثر حاسم في تقريب ما بين أجزائه، وفي استكمال أسباب الوحدة العقلية التي كان يرى أنها غير متحققة إلا في دول البحر الأبيض.

إن دول البحـر الأبيض اليوم تنقسم الى معسكرين متعاديين متباغضين: معسكر المستعمرين، ومعسكر الشعوب التي تطالب بحرياتها. وسيظل كلاهما ينكر الآخر. وستظل العداوة والبغضاء قائمة بينها أبدا؛ لأن مصالحهما متناقضة متعارضة.

وعلى الضد من ذلك موقف شعوب العالم الإسلامي كله. تلك الشعوب التي تجمعها المصلحة القومية، وتجمعها روابط أخرى قوية؛ روابط تاريخية وجغرافية واقتصادية ودينية. ولا يبقى سوى رابط اللغة الذي يوحد بين شطري العالم الإسلامي التوحيد النهائي الأخير.

وعلى أية حال، فإن إنشاء معهد لتعليم اللغة العربية لجماعة من المسلمين في باكستان أو في أندونسيا لن يكون أقل ثمرة من إنشاء معهد يعلم اللغة لبضعة عشر نفرا من اليهود أو من المستعمرين الإنجليز!.

إنني أهيب بوزارة المعارف المصرية أن تمنح هذه المسألة من العناية ما تستحقه؛ وإن كنت أحسب أنها مسألة تستحق عناية الدولة كلها. عناية جهازها

الديبلوماسي في الخارجية، وجهازها العلمي في وزارة المعارف، وجهازها المالي في وزارة المالية. كما أن أجهزتها الاقتصادية في وزارة التجارة ووزارة التموين ووزارة الاقتصاد الوطني ستجد حقولا خصبة وحقولا ضخمة لو شاءت أن تؤدي عملا ذا قيمة غير محدودة، عملا ذا أثر عميق في موقف العالم الدولي كله. وفي موقف قضايا الحرية في كل مكان.

إن قيام الكتلة الاسلامية على أصولها الصحيحة هو الضمانة الأخيرة الباقية للعالم اليوم، لوقايته من حرب ثالثة مدمرة. أو هو على الأقل الضمانة الوثيقة لتحرير شعوب العالم الإسلامي من الاستعمار الغاشم الظالم.

وهكذا تدرك وزراة المعارف أنها حين تنهض بهذه المهمة فإنها لا تؤدي عملا ثقافيا مجردا، إنما هي كذلك تؤدي واجبا ضخما في عالم السياسة القومية والدولية، وفي عالم الحرية، وفي عالم التاريخ..

نار.. ودم

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٦٨ ص ٦٩

الحمد لله الذي بدل قضية هذا الوادي من قضية محادثات ومفاوضات ذليلة مهينة.. إلى قضية نار ودم وكفاح أبي عزيز..

الحمد لله الذي بدل هذه القضية من قضية معاهدة أو محالفة أو دفاع مشترك.. إلى قضية عداء صريح جاهر للاستعمار وقراصنة الاستعمار..

الحمد لله الذي أخرج هذه القضية من أيدي نفر قليل من السياسيين والدبلوماسيين والمستوزرين والرأسماليين.. إلى أيدي الملايين من شعب الوادي، أصحاب البلد الحقيقيين!.

الحمد لله، الذي سخر روبرتسون وإرسكين وأكسهام، لكي يحرقوا مراكبهم مع هذا الشعب، ويركبوا رؤوسهم على هذا النحو، ويرتكبوا الحماقة التي أخرجتهم من أمريكا، وأخرجتهم من الهند، وستخرجهم بإذن الله قريبا من كل شبر من الأرض.. دنسته أقدام القراصنة النجسة..

اليوم قد قضي الأمر، وتأرثت الثارات والأحقاد بين هذا الشعب وبين القراصنة، فاللهم لا سلم بعد اليوم مع هؤلاء السفاكين، ولا معاهدة بعد اليوم مع الفجار، ولا تحالف بعد اليوم مع الأعداء.. ولا شيء إلا الكفاح الدامي، وإلا الدماء والنار، بيننا وبين الأوغاد.

اليوم قد قضي الأمر، وقطع الدم المهراق كل قنطرة وكل جسر، يمكن أن

تقام عليه صلة ما، بين الوادي وجلاديه.. فاللهم لا همسة ولا نأمة بعد اليوم تتحدث عن الصداقة، أو تتحدث عن التحالف. اللهم لا رجل ولا شبه رجل من أهل هذا الوادي يلوك شدقاه كلمة واحدة عن الجبهة الغربية، إلا أن تكون كلمة من نار ودم، وإلا أن تكون رسالة موجهة إلى معسكر القرصان.

إن الذي يلوك شدقاه بعد تلك المجازر الهمجية التي يقيمها الأوغاد لأهل البلاد.. الذي يلوك شدقاه كلمة واحدة من أية صلة، من أي نوع، تربطنا بمعكسر الهمج الغربيين، لهو رجل لا عرض له، ورجل لا كرامة له، ورجل لا نخوة له.. وحاشا أن يستمع هذا الشعب النبيل لمن لا أعراض لهم ولا نخوة ولا كرامة.

لقد دارت عجلة الزمن ـ وإنها لتدور سريعة عنيفة في هذه الأيام ـ دارت فطوت كل فرصة كانت متاحة لعباد الإنجليز أو لعباد الغرب على العموم.. لقد ذهبت الى الأبد كل محاولة لربطنا بمعسكر الغرب المتبربر. لقد انتهى كل شيء، فلا مجال لغير الرصاص والدماء، لا مجال لغير الثأر المقدس، لا مجال لغير الجهاد والكفاح.

أما من شاء أن يرتد إلى عهود المفاوضة والمسالمة والمهادنة والمحالفة.. من شاء أن يرتد الى تلك العهود التي طوتها عجلة الزمن السيارة. وفاتتها عجلة الحوادث التي لا تتوقف. من شاء شيئا من هذا، فليبحث له عن بلد غير هذا الوطن. فما عاد من هذا الوادي وأهله، من يملك شدقاه الدوران، ليتحدث عن شيء طواه الزمن وغشاه النسيان!.

لا صداقة بعد اليوم للانجليز. فليسمع أصدقاء الانجليز. ولا مهادنة بعد اليوم للاستعمار. فليسمع من يربطون وجودهم بوجود الاستعمار. مجرد الحديث عن الهدنة بيننا وبين الانجليز جريمة. مجرد التفكير في أن يضمنا ويضمهم معسكر واحد خيانة. مجرد المحاولة لإطفاء النار المؤججة بيننا وبينهم طعنة من الخلف للفدائيين والشهداء الأبرار.

فليخرج الانجليز من بلادنا، وليخرج معهم كل من لا تعجبه هذه الحالة. ليرحل عن هذا الوطن كل من يفكر في عقد صلة بيننا وبين الانجليز من جديد.. إن الشعب سيسقط اعتبار كل من يرفع رأسه ويحرك شدقه ليقول في هذا كلمة واحدة. إن الشعب سيسحق هذه المخلوقات الشائهة الذليلة، والتي لا يثير نخوتها عرض يهتك، أو دم يهرق، أو جريمة شنعاء، مما يرتكبه القراصنة كل يوم في ضفة القنال.

ولا يحسبن أحد أنه أقوى من هذا الشعب، ولا أكبر من هذا الشعب، ولا أرفع من هذا الشعب، ولا أعلى من هذا الشعب. ولا يحسبن أحد أنه من الدهاء بحيث يخدع هذا الشعب عن أهدافه الواضحة المرسومة، ولا أنه من الحيلة بحيث يصرف هذا الشعب عن ثاراته المقدسة، ولا من القوى بحيث يقف في وجه التيار.

إن الغرور وحده هو الذي يصور لفرد أو عشرات من الأفراد أو مئات.. أنهم قادرون على أن يحولوا الدماء ماء، والنار بردا وسلاما، وعلى أن يصلوا مرة أخرى بين الشعب وجلاديه، وعلى أن ينسوا هذا الشعب دماء أبنائه الأطهار، وقد كاد أن يكون في كل بيت ثأر، وفي كل قلب جرح.. هيهات هيهات! لقد فات الأوان!.

لقد سخر الله روبرتسون، وأرسكين، وأكسهام.. ومن إليهم.. سخرهم ليحطموا ما بقي من بناء الإمبراطورية التي حطمتها الشيخوخة.. سخرهم ليوقدوا نار الأحقاد المقدسة في قلوب الشعوب حول ذلك الحطام الفاني.. سخرهم ليخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين. ولن يقوم بناء سخر الله أهله ليهدموه. ولن يعمر بيت سلط الله سكانه ليخربوه.

ولقد كان الخوف أن يتروى القراصنة في معسكراتهم على ضفة القنال؛ وأن تهبط حرارة الشعب حين لا تجد لها وقودا يغذيها؛ ولكن الله غالب على أمره. وها هي ذي الأحداث تجبرهم إجبارا على الخروج من صياصيهم

المحصنة. وها هم أولاء يوسعون نطاق القرصنة، ويوسعون دائرة الجريمة. ها هم أولاء يصلون إلى التل الكبير. وغدا يسوقهم الله بأقدامهم إلى المجزرة حين ينتشرون في أراضي الشرقية الواسعة، ويقعون في فخاخ الفدائيين على مساحات واسعة. . فاللهم سقهم إلينا بأقدامهم، اللهم زدهم حماقة على حماقة! اللهم هيىء للفخاخ المنصوبة صيدا من أعدائك وأعداء الإنسانية، وأعداء هذا الوادي!.

وبعد فهنالك كلمة أخرى. . ومن كان له أذنان للسمع فليسمع. لقد خاض الشعب معركة التحرير وحده حتى اليوم. خاضها بالدماء والأرواح. وإن زهرة أبنائه ليتساقطون في ميدان الشرف غير هيابين. . فما هو دور السادة يا ترى؟ أجل ما هو دور السادة الذين يكدح هذا الشعب كله لهم، وينفق عصارة قلبه ودمه ليخرج لهم من الأرض ذهبا وفضة!.

إن الشعب لا يطلب من أولئك المترفين المترهلين السادرين في لذائذهم أن يؤدوا ضريبة الدم لهذا الوادي كما يؤديها الكادحون الذين لا يملكون في هذا الوادي شيئا! إنه لا يطلب إليهم أن يضحوا بدمائهم الغالية! ولا أن يموتوا كما يموت الشهداء!.

كلا! كلا! إن الأمر لأهون من هذا بكثير. إن هذا الشعب الطيب القلب، المتواضع القانع. . لا يطلب إلى السادة إلا ضريبة المال. لا يطلب إلا أن يساهموا بتزويد الفدائيين بالسلاح والمال. لا يطلب إلا قسطا مما ينفق عى موائد الخمر وسهرات الليل، وما يراق على أقدام الغواني من ثراء!.

وما يمكن أن يمضي الشعب في كفاحه، وأن يريق في كل يوم دماءه وأرواحه، وهؤلاء السادة سادرون فيما هم فيه!.

إن لكل شيء حداً. ومحال أن تسير الأمور على هذا النحو بلا نهاية. . فهي النصيحة المخلصة إذن نزجيها، قبل فوات الأوان!.

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بداية النهاية

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٧٠ ص ١٢٥

أيا كانت الظروف والأحوال، فإن الاستعمار الغربي قد بدأ نهايته. بدأها في كل مكان، وبخاصة في العالم العربي الإسلامي الذي يصطدم بالاستعمار اليوم في جبهات متفرقة، ولكنها كلها متصلة. . يصطدم به اصطداما ظاهرا واضحا في مصر، وفي تونس، وفي مراكش، وفي إيران، كما يصطدم به اصطداما خفيا في العراق وفي سورية، وحركة الجزائر ما تزال مستمرة، وفي هذه الأيام يقع اصطدام جديد على حدود اليمن. . وكلها حركة واحدة للخلاص. . وكلها تشير إلى النهاية المحتومة رغم جميع الظروف والأحوال.

ولقد كانت فرنسا تصطدم بالشعب الفرنسي وتسلط عليه الحديد والنار، في الوقت الذي تصطدم فيه انجلترا بشعب الوادي وتسلط عليه الحديد والنار. . . نفس الوسائل، ونفس الأهداف، ونفس العقلية: عقلية الاستعمار، وعقلية المكافحين ضد الاستعمار.

إنها لم تعد حركات وقتية متقطعة محلية، تخمدها هجمة هنا وهجمة هناك. . إن الشعوب بأسرها تندمج في هذه الحركات التحريرية. وبذلك تصبح هذه الحركات قوة تمثل اتجاه الزمن، وتشير إلى إرادة الله في الأرض، وتستمد الوقود من الشعوب لا من الأفراد. هيهات هيهات أن تقف القوة ضد اتجاه الزمن، وضد إرادة الله!.

ولقد كان الاستعمار يلجأ دائما الى الهيئات الحاكمة في كل بلد مستعمر،

فيستعين بها على الشعوب؛ ولكن الهيئات الحاكمة لم تعد تملك أن تقف في معزل عن حركة الشعوب.. وها نحن أولاء نرى مصداق هذا القول في مصر وفي تونس على السواء.

ففي مصر كانت حركة إلغاء المعاهدة تلبية مباشرة لضغط الشعب. وقد وقعت المراسيم الخاصة بهذا الإلغاء في ذات الليلة التي قدمتها الوزارة للتوقيع.. ولقد تغيرت الوزارة وجاءت وزارة سواها، فكان أول تصريح لرئيس الوزارة الجديدة هو السير في نفس الطريق التي رسمها الشعب، وإعلان الأهداف ذاتها بلا تلعثم ولا تردد! لأن إرادة الشعب الواضحة لا يمكن أن يتجاهلها متجاهل، مهما تغيرت الوزارات.

وكان الحال كذلك في تونس. فالوزارة هي التي تصطدم بالاستعمار هناك. مع الشعب خطوة بخطوة.. ورئيس الدولة الأعلى هو الذي يقف في وجه العاصفة، فيعرض قصره للحصار، ويعرض عرشه للزوال، ويعرض نفسه للهلاك.. ولكنها إرادة الشعب القاهرة، التي تمثل حركة الزمن، والتي تمثل إرادة الله والله غالب على أمره.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وما من شك أن النصر في معركة الحرية لطلاب الحرية سواء وقفت الهيئات الحاكمة مع الاستعمار أو ضد الاستعمار. ولكن وقوف هذه الهيئات الحاكمة في كل مكان بجانب الأهداف الشعبية سواءً أكان ذلك اختيارا أم اضطرارا، هو أمر له دلالته وله معناه.. ومعناه الواضح الصريح: أن حركة التحرير. وأن قوة الشعوب، قد بلغت المرحلة التي تجرف معها خصومها وأنصارها على السواء، والتي تتحكم في الموقف، وتملي على الهيئات الحاكمة ما تشاء.

ولو لم يكن إلا هذه الظاهرة وحدها لكفى بها دليلا على قرب النهاية، لتقلص ظل الاستعمار البغيض، الذي دام أكثر مما ينبغي، وعاش أكثر مما تقتضي طبيعته أن يعيش.. ولكن هذه ليست الظاهرة الوحيدة في معركة التحرير. فالظاهرة الأخرى في المعسكر الآخر هي ظاهرة الضيق والتبرم العنيف

بالحركات التحريرية، ظاهرة هياج الأعصاب «وفقدان الصبر»، والفزع والقلق والاضطراب.. ولهذه الظاهرة دلالتها على الضعف الذي ينشأ عنه الذعر والهلع.. فدولتا الاستعمار الغربي: إنجلترا وفرنسا كلتاهما تعاني حالة من الإفلاس المالي والضعف العسكري، تشير إلى بداية النهاية كذلك. وليست واحدة منهما أو كلتاهما بقادرة على خوض معركة طويلة الأمد مع الشعوب التي لا تفنى. لا مواردهما المالية ولا مواردهما العسكرية تسمح لهما بخوض مثل هذه المعركة، في أرض خارجية تفصلها عنهما مئات الأميال؛ لذلك تريدان أن تضربا حركات التحرير ضربة قاضية، سريعة، قبل أن ينكشف ضعفهما، لعل هذه الضربة أن تخلصهما من التكتل الشعبي الذي تصطدمان به في كل مكان.

ولكن هيهات هيهات! لقد مضى الزمن الذي كانت الحركات الشعبية فيه لا تزيد على أن تكون فورات وقتية، تطفئها ضربة قوية، أو انقلاب سياسي، أو مناورة دبلوماسية.. لقد استحالت الحركات الشعبية تصميما شعبيا لا يتزحزح - مهما تغيرت الأحوال - وإرادة واعية تستمد وقودها من رجل الشارع، لا من المفكرين والمتحمسين والزعماء.

ولا أحسب ان انجلترا أو فرنسا تشك لحظة في النهاية المحتومة، فإن تجارب البشرية كلها معروضة أمامهما؛ وهذه التجارب كلها تؤكد أنه ما من فكرة اعتنقها جمهور الشعب، حتى صارت فكرته الخاصة، أمكن أن تقف في طريقها قوة من القوى، في أي زمان أو مكان.. ولكن الاستعمار إنما يتشبث بمواقع أقدامه ليحصل على بعض الامتيازات الأخيرة في مقابل الجلاء. وحتى هذه الامتيازات قد أدركها الوعي الشعبي، واحتاط لها، وما عاد يسمح بشيء منها على أي شكل من الأشكال.

لقد أحرق الاستعمار مراكبه مع الشعوب، بما ارتكب معها من حماقات. وبخاصة في هذه الحركات الأخيرة. ولقد استحال الصراع بينه وبين الشعوب ثارات مقدسة، وأحقادا عميقة. فما عاد يمكن أن تستجيب الشعوب لأي صوت يدعوها إلى الارتباط بعجلة الاستعمار على أي وضع من الأوضاع.

وكل من يتصور أن الشعوب سترجع القهقرى عن موقفها الذي انتهت إليه، تحت أي ظرف، وتحت أية مناورة.. إنما يخطىء في فهم طبيعة الحركات الشعبية، وينسى عبر التاريخ وشواهده.. إن كل خطوة يكسبها الشعب لا يمكن أن يتخلى عنها، لأن حركة الشعب هي حركة الزمن. والزمن لا يرجع القهقرى، ولا يتحرك مرة إلى الوراء.

ولقد يخفت صوت الشعوب أحيانا، وتتوارى حركاتها.. ولكن هذا ليس إلا ستارا ظاهريا لحركات خفية إلى الأمام. حركات تتم في ضمير الشعب، وتنضج في أعماقه، ثم تبدو في صورة فورة جديدة، وقفزة واسعة، يخيل إلى بعض الناس أنها مفاجئة. وليست في حقيقتها إلا امتدادا طبيعيا لم تظهر خطواته، لأنها كانت تتم في صمت، في أثناء فترة الكمون.

إنها بداية النهاية، فعلى بركة الله فلتسر مصر، ولتسر تونس، وليسر كل بلد يشتبك اليوم في معركة التحرير الخالدة التي أوقدها الله..

فقاقيع

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٧٤ ص ٢٣٧

الذين يدعوننا إلى الخلاص والحرية والعدالة الاجتماعية باسم القومية الضيقة التي تحد بالبحر الأبيض شمالا، وبالبحر الأحمر شرقا، وبصحراء ليبيا غربا، وبخط الاستواء جنوبا. . أو دون ذلك.

والذين يدعوننا إلى الخلاص والحرية والعدالة الاجتماعية باسم الشيوعية أو غير الشيوعية من المذاهب المادية التي نشأت وعاشت في بيئات غريبة عنا، لا تربطنا بها صلة روحية ولا تاريخية. .

هؤلاء وهؤلاء يخطئون فهم طبيعة هذا الشعب، وقوة العوامل الكامنة في ضميره، والرواسب الشعورية التي تحركه، وطريقة تفكيره ونظرته إلى الحياة. .

لهذا يفشل هؤلاء وهؤلاء فشلا ذريعا، وتبدو حركاتهم كالفقاقيع التي تعلو وجه الماء فترة، ثم تفثأ وتتوارى!.

هذا الفشل منشؤه كما قلت: جهل هؤلاء وهؤلاء بطبيعة هذا الشعب، طريقة تفكيره ونظرته إلى الحياة. يضاف إليه عدم فهمهم لحقيقة موقف هذا الشعب في العالم، وللعوامل الدولية التي تجعل الشعوب تختار طريقا دون طريق.

إن دعوة القومية الضيقة، التي تنزوي داخل حدود صناعية أو تخوم جغرافية. . دعوة تنافي الاتجاه العالمي الى الاندماج في وحدات ضخمة، تمهيدا للحلم البشري الكبير. حلم الوحدة العالمية الكبرى. . وهي تخالف

كذلك فكرة الإسلام الذي تدين به غالبية هذا الشعب. . فالوطن الإسلامي هو كل أرض يظللها لواء الإسلام. ومن ثم فهو يزيح الحواجز الصناعية والتخوم الجغرافية، ويحل محلها فكرة، تندمج في ظلها كتلة بشرية ضخمة، تحاول دائما أن تضم إليها بقية البشر، تحقيقا للهدف الإسلامي الأكبر، هدف الوحدة العالمية الكبرى.

ومن هذا الاستعراض السريع للاتجاه العالمي اليوم؛ والاتجاه الاسلامي منذ مولد الإسلام، يتبين مدى نظرة الإسلام التقدمية في الماضي والحاضر على السواء. ويتكشف أن الفكرة الإسلامية كانت سابقة لتطورات الفكر البشري قرونا وقرونا. وما تزال فكرة قائدة هادية، ذات مجال فسيح في بناء مستقبل البشرية. . كما يتكشف مدى الضيق والانعزال والتأخر في دعوات القومية الضيقة التي عمت أوربا في القرون الماضية، وسرت إلينا عدواها في غيبة الروح الإسلامية الراقية السمحة التقدمية، وفتنت بما فيها من تعصب ضيق، بعض صغار العقول والنفوس، ملبية دسيسة الاستعمار في تمزيق أوصال المجتمع الإسلامي الضخم، والوطن الإسلامي الكبير، ليسهل على الاستعمار ازدراد أشلائه الممزقة باسم القوميات الضيقة الهزيلة، وتحت العنوانات الشتى المتفرقة!.

ومن هنا كانت تلك الفقاقيع التي تحمل شتى العنوانات في شتى أنحاء العالم الإسلامي. وكانت تلك الزعامات الصغيرة التي تهتف باسم القومية، وتدعو إلى العزلة عن مشكلات العالم الاسلامي، وتسخر ممن يدعون إلى وطنية الإسلام الضخمة، وإلى التكتل الإسلامي الكبير.

ولقد كانت تلك الزعامة البائسة التي قادت ثورة سنة ١٩١٩ في مصر مثلا من أمثلة ضيق الأفق، والانعزال عن الفكرة الإسلامية والهدى الاسلامي، والانعزال تبعا لذلك عن الاتجاه العالمي في التكتل، والنظرة التقدمية لمستقبل البشرية.

ومن هذا الضيق والانعزال عن الهدى الاسلامي، جاءت الكوارث كلها،

وطـال أمـد الصـراع مع الاستعمار، ووقع ذلك الانحلال الخلقي، والانهيار الاجتماعي، وذلك الفساد الذي تعانيه البلاد، ويفتت كيانها تفتيتا. .

لقد كانت تلك الزعامة فقاعة صغيرة، في زبد الوثبة المصرية الكبرى. ولكنها مع الأسف حولت تلك الوثبة كلها إلى زبد ذهب كله جفاء. .

وما تزال مصر، وما تزال الشعوب الاسلامية تصارع ذلك الخبث الذي دسه الاستعمار في تفكيرها. خبث القومية الضيقة الهزيلة، التي تخدم الاستعمار ولا تخـدم الشعـوب. . ما تزال تصارع ذلك التمزق في جسم الوطن الاسلامي الكبير، في ضوء الفكرة الاسلامية التي انبثقت هنا وهناك، وتتجمع تحت الراية الاسلامية الخالدة، أو تتنادى إلى هذه الراية الكلية الواحدة. التي تحول الوطن الاسلامي كله وحدة تتفق مع الاتجاه العالمي السائر إلى التكتل والاندماج، وحدات كبرى تجمع بينها نظم وأفكار، لا حدود جغرافية، ولا قوميات جنسية أو لغوية.

إنهم يفيئون شيئا فشيئا إلى النور الذي انبثق منذ أربعة عشر قرنا، سابقا لتفكير البشرية كلها، فلم تدركه إلا في القرن العشرين. وما يزال هذا النور سابقا لما وصلت إليه البشرية في التفكير.

فأما دعوة الشعوب الإسلامية إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب المادية الأخرى، فهي دعوة مضحكة تثير الهزء والاستخفاف بتلك الفقاقيع الآدمية التي تدعونا إليها؟.

إذن ما الذي يدعو شعوبا بأسرها، يتجاوز تعدادها ثلثمائة مليون مسلم، في شعاب هذه الأرض، إلى التخلي عن فكرة أو عقيدة عاشت في ظلها أربعة عشر قرنا؟. .

فكرة سبقت الشيوعية سبقا بعيدا في التفكير الإنساني المنظم لقيام وحدة عالمية، مقوماتها فكرة ونظام، لا حدود جغرافية، ولا أجناس بشرية، ولا ألوان ولا لغات. وبذلك كانت وما تزال فكرة تقدمية سابقة لقيادة البشرية كلها في

طريق المستقبل؛ حافلة بالإمكانيات العملية المنظمة لتحقيق هذه القيادة الرشيدة؟.

فكرة سبقت الشيوعية سبقا بعيدا ـ لا من ناحية الزمن وحده ولكن من ناحية طبيعة الفكرة وإمكانياتها ـ في تحقيق أساس صالح للوحدة العالمية، بريء من التعصب والقهر والكبت لأنها تسمح لكل عقيدة دينية أخرى أن تعيش في ظل هذه الوحدة، متمتعة بالحماية والرعاية والمشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، فلا تفرض نفسها على الناس، ولا تحرم مخالفيها حق الحياة والنشاط، كما تحرمهم الشيوعية؛ ولا تفرض عليهم دكتاتورية رجل ولا دكتاتورية نظام كما تفرض الشيوعية في القرن العشرين!.

وأخيرا فهي فكرة سابقة في تحقيق عدالة اجتماعية كاملة، لا تصطدم بالفطرة البشرية. ولا تقيد النشاط الفردي في ذات الوقت الذي تقف كل نشاط فردي دون المساس بالمصلحة العامة. وتجعل نتاجه كله ملكا للجماعة التي تعيش فيها.

إن دعوة شعوب تملك مثل هذه الفكرة إلى نبذها لاعتناق الشيوعية أو سواها تبدو دعوة مضحكة، لا يحاولها إنسان يحترم نفسه، إنما تصلح فقاعة هزيلة، ينادي بها بعض الشواذ، الذين يعانون عقدا نفسية مرضية، يجدون في الدعوة إلى الشيوعية تنفيساً عنها وراحة!.

إن الدعوة الإسلامية تكتسح وتجرف كل هذه الفقاقيع في هذه الأيام. تكتسح فقاقيع القومية الضيقة الهزيلة في العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه. وتكتسح فقاقيع المبادىء المادية على اختلاف مسمياتها.. وهذا الاكتساح هو الذي يتفق مع طبائع الأشياء. ويتفق مع طبيعة هذا الشعب وتفكيره. ويتفق في ذات الوقت مع الاتجاه العالمي المقبل: الاتجاه إلى تأليف كتل ضخمة تخضع لنظام وفكرة. في الطريق الى تحقيق الحلم البشري الكبير. حلم الوحدة الإنسانية الكبرى..

فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

الطريق إلى الكتلة الثالثة

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٧٦ ص ٢٩٣

يسألني الكثيرون منذ دعوت إلى قيام الكتلة الثالثة: ما الطريق إلى قيام الكتلة الثالثة؟ وحينما كنت أحاضر عن هذا الموضوع في دار اللجنة العليا لشباب الحزب الوطني منذ أسبوعين، استوقفني بعض الشباب بعد نهاية المحاضرة ليبدي لي مخاوفه أن تكون العقبات التي في الطريق أكثر من الإمكانيات.. ثم أرسل إلي بعضهم يسألني تفصيل ما أجملت في هذه المحاضرة.

من بين هذه الرسائل رسالة للشاب الأديب «أحمد محمد أبو بكر الطالب السوداني بمعهد القاهرة» وقد جاء فيها:

«.. إنه لمن حسن الطالع أن نستمع إلى محاضرتك القيمة بنادي اللجنة العليا للحزب الوطني وقد استطعنا أن نقف على أسباب تفرقة العالم الإسلامي، وأن نقف كذلك على حقيقة ما تضمره لنا كل من الكتلتين الشرقية والغربية من سوء. ولكننا مع ذلك كله لا نزال نطلب منك أن تبين لنا على صفحات الرسالة الغراء ما يستطيع المسلمون على ضوئه أن يوحدوا صفوفهم ويجمعوا كلمتهم لكي يكونوا كتلة ثالثة... الخ».

هذه الرسالة وأمثالها كثير تدل على استعداد معين عند الكثيرين من الشبان للاستماع إلى مثل هذه الفكرة والاقتناع بها، بل تدل على أكثر من هذا. تدل على اللهفة الحقيقية لتحقيق هذا التكتل الإسلامي الذي آن له الأوان.

ولقد كنت أعرف عندما دعوت هذه الدعوة أن العقبات في طريقها شتى. ولكني كنت أؤمن كذلك أنها دعوة طبيعية، تنبع قوتها من تلبيتها لطبائع الأشياء، ولحاجة العصر، ولاتجاه المستقبل. وأن دوافعها أكبر من معوقاتها، مهما بدت هذه المعوقات من الضخامة والمناعة.. إن كل دعوة تتفق مع طبائع الأشياء، وتنبع من حاجة العصر، وتسير مع اتجاه المستقبل، هي دعوة ناجحة غالبة مهما يقم في طريقها من عقبات.

هذا المعنى أحب أن أؤكده أولا لشبابنا المتلهف على تحقيق هذه الفكرة، المشفق في الوقت ذاته من ضخامة العقبات، ومن موحيات اليأس، ومن عقابيل الماضي.. ومتى ثبت في الضمائر إيمان معين بالفكرة، فكل شيء بعد ذلك هين، وكل عقدة حلها ميسور.

والذين عاشوا مثلي في ربع القرن الأخير، قد تلوح لهم بشائر الأمل أقوى وأضخم من الشباب اليافع الذي لم يشهد ذلك الماضي.. إن هذا الشباب بطبيعته عجول لأن الطاقة الكامنة في كيانه تريد لها متصرفا سريعا.. وهو ينظر فيرى عقبات جمة، ولكنه لا يعرف أن العقبات في الماضي كانت أضعاف ما هي اليوم، فتذاويت شيئا فشيئا، بحيث لا تقاس اليوم إلى ما كانت عليه منذ ربع قرن فقط. أما الذين عاصروا تلك الفترة الماضية مثلي، فيعلمون أننا قطعنا شوطا بعيدا جدا في ذلك الزمن الوجيز.

إن أقصى ما تلاقيه فكرة التكتل الإسلامي اليوم من سوء استقبال، هو أن يتشكك بعض الناس في إمكان تحقيقها في فترة قصيرة، ويروا الكثير من العقبات في طريقها، ويشفقوا من ضخامة هذه العقبات.. أما قبل ربع قرن فقط فقد كان التفكير - لا في قيام كتلة إسلامية ضخمة بل في قيام كتلة عربية صغيرة - مدعاة للسخرية، بل مدعاة للتشكك في عقول من ينادون بها، واعتبارهم جماعة ممن في عقولهم مس، فهم يعيشون في الماضي، ولا أمل فيهم لأنهم مخرفون!.

لا بل إن قيام «رابطة شرقية» لا إسلامية كان يلقى مثل هذا الهزء ومثل هذه السخرية إلى عهد قريب جد قريب. . فها هو ذا رجل واسع الأفق مثل الدكتور طه حسين باشا يؤلف كتابه: «مستقبل الثقافة» في سنة ١٩٣٦ فيسخر فيه من تلك الفكرة سخرية مريرة، ولا يكاد عجبه ينقضي من تلك الجماعة التي كانت تسمي نفسها «الرابطة الشرقية» لأن مصر قطعة من حوض البحر الأبيض المتوسط، ولا علاقة لها بذلك الشرق البعيد مسلما كان أو غير مسلم. . فالإسلام وغير الإسلام لا يملك أن يقيم رابطة بين مصر وهذ الشعوب!.

كان هذا منذ خمسة عشر عاما فقط. . فإذا نحن قسنا تلك الوثبة الفكرية والشعورية الهائلة التي تملي علينا اليوم أن نتحدث عن الكتلة الإسلامية، أو عن الكتلة الشرقية، فلا يسخر بنا أحد، ولا يضحك منا أحد. بل تنبعث ملايين القلوب تخفق للفكرة، وتنبعث عشرات الأقلام تكتب عنها في كل مكان. وتنبعث مئات الأكف وألوفها تصفق للخطباء. . ولا يتحدث متحدث إلا بالسؤال عن الطريق. . إذا تم هذا في خلال خمسة عشر عاما فقط فهو النصر إذن وهو التوفيق.

ولماذا؟ إن هذا النصر لا ينبع من بلاغة الأقلام التي تكتب، ولا من فصاحة الألسنة التي تخطب. . إنما ينبع أولا وقبل كل شيء من تلبية الفكرة لطبائع الأشياء، ومن مسايرتها لحاجة العصر، ومن تمشيها مع إرادة المستقبل. . وذلك هو الضمان الأكيد. .

ستسير الفكرة إذن في طريق التحقيق منذ اليوم، حتى ولو لم يدع إليها قلم متحمس أو لسان متدفق. ستسير لأن الشعوب الإسلامية مضطرة اضطرارا لأن تعمل على تحقيقها كوسيلة من وسائل الخلاص من الاستعمار، ولإنقاذ العالم من حرب ثالثة قريبة في ذات الأوان.

وستسير الفكرة لأنها تلبية للاتجاه العالمي للتكتل. لا باسم القوميات والجنسيات، بل باسم المبادىء والعقائد. والعالم كله يسير في هذا الاتجاه الآن

شرقا وغربا. فاتجاه المسلمين إذن إلى التكتل تحت عنوان فكرة ومبدأ هو الاتجاه الطبيعي للعالم كله، ومن ثم فهو الاتجاه الطبيعي في هذه الظروف.

إنني أعرف: أن الاستعمار سيقف في الطريق. وأعرف أن الكتلة الشرقية ستقف لنا في الطريق. وأعرف أن الحكام في كثير من أمم العالم الإسلامي سيقفون لنا في الطريق. ولكنني أعلم كذلك أن هذه القوى كلها مصطنعة، فهي لا تملك أن تقف طويلا أمام فكرة طبيعية، تستمد قوتها من طبائع الأشياء، ومن حاجة العصر، ومن نداء المستقبل في العالم كله، لا في بقعة منه محدودة.

ومن الظواهر العجيبة أن الفكرة التي تنبع من حاجة العصر واتجاه المستقبل يضطر خصومها - بحكم مصالحهم القريبة وتحت ضغط الضرورات الذاتية - إلى مساعدتها وتقويتها، كالذي يربي أسدا يعرف أنه سيفترسه في النهاية، ولكنه يضطر مع هذا إلى تربيته لأنه يتقي به نمرا فاغرا فاه!.

لقد كان الحلفاء هم الذين هزموا ألمانيا في الحرب العظمى الأولى. وكانوا هم الذين ساعدوها على النهوض، وساعدوا معها إيطاليا، وساعدوا معها اليابان أيضا.. لم يكن شيء من هذا حبا في عيون أحد من هؤلاء.. ولكنها كانت ضرورات المصلحة العاجلة لوقف التيار الشيوعي في العالم.

ثم حطموا هذه الدول الثلاث في الحرب العظمى الثانية، وفي سبيل تحطيمها اضطروا اضطرارا لتقوية روسيا ومساعدتها على الصمود في وجه الغول الجرماني.. وهم على يقين أن عدوهم الأول هو روسيا. ولكنهم ما كادوا يملكون أن يفعلوا غير هذا.. ثم ها هم أولاء مرة أخرى. وبعد التجربة العالمية الأولى. يمدون أيديهم مرغمين لإنهاض ألمانيا واليابان. وهم على يقين أن الطاقة الكامنة في هذين الشعبين لن تتركهم في راحة، ولكنهم لا يملكون أن يفعلوا غير هذا.. إن خط سير الحياة ليس في يد أحد من البشر مهما تكن قوته. فالحياة تسير، وطبائع الأشياء تملي خط سيرها. والقوى الكامنة الناهضة لا سبيل للقضاء عليها. لأنها قوة من قوى الحياة، وقوة الحياة من الله. ﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

إن فكرة الكتلة الإسلامية تسير في طريقها. وإني لأكاد أراها رأى العين حقيقة واقعة. فليؤمن شباب العالم الإسلامي بهذا.. والزمن كفيل باكتساح العقبات التي تبدو لهم ضخمة في الطريق.

ليؤمن شباب العالم الإسلامي كله أن الاتجاه إلى راية الاسلام هو العمل الوحيد الذي يخلصهم من براثن الاستعمار، ويخلصهم من كيد الشيوعية التي لا تكاد تطيق مسلما يدب على الأرض.

فإذا آمن الشباب بهذه الفكرة اندفع يضغط على ساسة بلاده، الذين يسيرهم الاستعمار في ركابه، ويملي عليهم رغبته في التكتل الإسلامي. ولتكن كلمة الشباب دائما: لا ارتباط بكتلة شرقية أو كتلة غربية. فهذه الأرض أرضنا. ونحن نريد أن نقف تحت راية الإسلام وحدها، محايدين، نجاهد فقط من يعتدي علينا، ونمد يدينا حينئذ إلى الكتلة التي تنصرنا على المعتدين.

وواجب على كل شاب واع أن ينشر هذه الفكرة حيثما وجد. الطالب في معهده، والموظف في مكتبه. والسياسي في محيطه. والعامل في مصنعه. والرجل في بيته وأولاده.. وعندما تصبح هذه الفكرة هي فكرة الشعب. فإن قوة ما على ظهر هذه الأرض لن تقف له في طريق..

لن أقول لهذا الشاب الأديب صاحب تلك الرسالة، ولا لأحد من إخوانه الذين كتبوا إلي كثيرا في هذا الموضوع شيئا عن الوسائل السياسية أو الدبلوماسية أو العسكرية.. إنني لا أؤمن بشيء من هذا كله. لست أؤمن إلا بالقلب الإنساني والعزيمة البشرية، إنني أؤمن بالعقيدة التي تزلزل الجبال، وتجرف الصخور. أؤمن بالوعي الشعبي الذي يفرض إرادته، أؤمن بتلك الملايين بعد الملايين في الرقعة الإسلامية الفسيحة.. وأؤمن بالغد وإشاراته. وأؤمن بعقرب الساعة الذي يشير الى هذا الاتجاه وحده.. وأؤمن قبل كل شيء بالله الذي نفخ الروح مرة أخرى في هذا العالم الإسلامي الذي حسب الكثيرون أنه قد مات. فإذا هو يتمطى وينبعث، ليؤدي دوره في الأرض من جديد.

الشعوب الاسلامية تزحف...

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٧٩ ص ٣٧٧

أشد ما أفلح فيه الاستعمار في بلاد العالم الإسلامي، هو خلق تلك الطائفة من «الببغاوات» التي تردد أسطورة فصل الدولة عن الدين، وإبعاد الدين عن الوطنية!.

لقد أمن الاستعمار واطمأن منذ أن أطلق هذه الأسطورة في أوساط المسلمين، وتركها تمزق وحدتهم، وتفرق كتلتهم، وتفقدهم الراية التي يفيئون إليها، فيحسون بتذاوب العنصريات وانمحاء الفوارق، والاندماج بعضهم في بعض، قوة واحدة تقف متكتلة في وجه الاستعمار.

ولكن إفلاح الاستعمار في هذه الدسيسة لم يكن ليستمر طويلا، فلقد انبعث روح الاسلام من جديد في كل مكان، تتفاوت قوة وضعفا حسب العوامل المحلية المختلفة في كل قطر من أقطار المسلمين. ومتى ما انبعثت روح الإسلام الحقيقة، فلا بد أن تصاحبها الدعوة إلى التكتل الاسلامي، فهذا التكتل جزء أصيل من العقيدة الإسلامية، ودفعة طبيعية من دفعات الإسلام، ولا محيص إن عاجلا او آجلا من أن تزحف الدعوات المتواكبة المتجاوبة، ليلتقي بعضها ببعض في صورة من الصور؛ ولا مفر من أن تنتهي إلى غايتها الطبيعية، فتبرز الكتلة الإسلامية، برغم المعوقات والصعاب، وبرغم الببغاوات التي خلقها الاستعمار في كل قطر، لتهتف بأسطورة الدولة والدين، والسياسة والدين، والوطنية والدين.

وما يقلق بال الاستعمار دعوة على ظهر الأرض كما تقلقه مثل هذه الدعوة، وما تقض مضجعه صيحة كهذه الصيحة، فالاستعمار لا يعيش اليوم إلا في الوطن الإسلامي. لقد تقلص ظله في كل مكان، فلم يبق إلا في الوطن الإسلامي. والدعوة الى التكتل الإسلامي معناها الدعوة إلى طرد الاستعمار من الركن الباقي له في هذه الأرض. والهتاف باسم الإسلام معناه الصراخ في وجه الاستعمار والطغيان. ومعناه التهديد المطلق للاستعمار والطغيان..

ودون هذا ويحرك الاستعمار أبواقه وببغاواته، ودون هذا ويبذر الاستعمار دسائسه ومؤامراته. ودون هذا وتنطلق صيحات الخطر في كل مكان، من خلط الدين بالسياسة، وخلط الوطنية بالدين!.

نشرت جريدة المصري منذ أسبوعين تعقيبا لجريدة بومباي كرونكل الهندية جاء فيه:

«بومباي في ١٤ لمراسل المصري - عقبت جريدة (بومباي كرونكل) على الدعوة التي تأتي من باكستان بضم جميع الدول الإسلامية في الشرقين الأدنى والأوسط بما فيها أفغانستان وباكستان في نوع من الاتحاد الإسلامي العام، فقالت: إن هذه الحركة فشلت لأن الدول التي يهمها الأمر تشعر بإحساس عميق ورغبة أكيدة في الاحتفاظ بذاتها، مفضلة ذلك على الموافقة على السير في طريق ثانوي تابعة لغيرها.

ومضت الجريدة تقول: وإن هذه الدول جميعا تحسب الخطر من خلط الوطنية بالدين، ولهذا السبب تتضح لنا الحقيقة البارزة في سياسات الشرق الأوسط من أن دولة رفضت فرادى وجماعات أن تسمح لرياستها الكائنة في القاهرة بأن تصطبغ بصبغة دينية، وأصرت على تسميتها بجامعة الدول العربية،. كما أنها كانت حكيمة برفضها فكرة الجامعة الإسلامية لأن نتائجها في غاية الخطورة حقا، فكل تكتل على أساس ديني كفيل بإثارة الحزازات الداخلية لاختلاف المشاعر الوطنية والعنصرية، وتنوع المصالح والآمال، أما في الخارج

فسوف تخلق رد فعل مفعما بالشك والعداء مع بقية إنحاء العالم، قد يفضي إلى نتائج ضارة بالجامعة الإسلامية ذاتها.

وقد أثنت الجريدة على سياسة تركيا العلمانية قائلة: إنها ذات قيمة كبرى لأنها تقدم دليلا لا ينقض على حكمة زعماء الهند الذين جعلوا بلادهم دولة علمانية، ومن جهة أخرى نرى أن تمسك تركيا بمثلها العليا العلمانية التي ارتضتها لنفسها، يعد ذا فائدة كبرى لدول الشرق الأوسط».

وما كان تعليق جريدة بومباي كرونكل ولن يكون إلا نموذجا من نماذج حركة التخويف التي يزاولها كل صاحب مصلحة في استعمار بضعة من الوطن الإسلامي. والهند تزاول لونا من الاعتداء على كشمير، فتلتقي مصلحتها مع مصلحة الاستعمار في عزل باكستان عن العالم الاسلامي، وفي تخويف العالم الاسلامي من نتائج الدعوة الباكستانية إلى التكتل الاسلامي.

إن إسطورة أن الدين شيء والوطنية أو السياسة شيء آخر، هي أسطورة نشأت في عوالم أخرى غير العالم الاسلامي. وإلا فالاسلام لا يعرف هذه التفرقة المصطنعة. الاسلام يعرف أنه عقيدة في الضمير وشريعة للحياة. شريعة للحياة بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدولية ليس هنالك شيء يقال له الدين وشيء آخر يقال له السياسة، وشيء ثالث يقال له الحكم، وشيء رابع يقال له الاقتصاد، وشيء خامس يقال له الاجتماع.

إن هذه التفرقة مضحكة في نظر الاسلام، ومضحكة في نظر المسلمين الذين يعرفون أبسط قواعد الدين.

إما أن يكون الانسان مسلما أو غير مسلم. فإما إن يكون مسلما فشريعة الاسلام هي التي تحكم حياته إذا تفرد في عباداته ومعاملاته، وتحكم حياة الجماعة التي يعيش فيها من ناحية الحكم وناحية الاقتصاد وناحية الاجتماع، وتحكم حياة الدولةالتي يخضع لها من ناحية علاقاتها الدولية، وصلاتها بالعالم الخارجي كله.. وإما أن يكون غير مسلم فيدع لأي قانون آخر غير الشريعة

الاسلامية أن تصرف حياته في كل هذه النواحي. . وليس هنالك حل وسط، فالاسلام لا يعرف أنصاف الحلول.

ولجريدة بومباي كرونكل أن تتحدث عن الخطر من خلط الوطنية بالدين؛ فالـدين يكـون خطرا حقـا على الحياة حينمـا يكون كالهندوكية التي تستبقي الملايين من البشر في مرتبة أقل من مرتبة الحيوان في صورة منبوذين، أو حينما يكون كاليهودية التي يعتقد اتباعها أنهم شعب الله المختار، وأن كل من عداهم من البشر لا حرمة له ولا حق في رعاية، وقالوا: «ليس علينا في الأميين سبيل» فلهم أن يسرقوا مال البشرية كلها، ولهم أن ينكلوا بالبشرية كلها، وضميرهم الديني مستريح!.

فأمـا حين يكون الدين هو الاسلام، فلا شيء من الخطر بل هو الخير للبشرية جميعا، خير العدالة الاجتماعية التي يكفلها هذا الدين كما لم يكفلها نظام آخر من النظم التي تعرفها البشرية. . وخير التضامن العالمي، والسلام الدولي، كما لم يكفله قانون دولي ولا منظمة جماعية.

لقد سبق الاسلام هيئة الأمم المتحدة بأربعة عشر قرنا في إيجاد معاهدات دولية للسلام يجتمع إليها أصحاب الديانات جميعا في عهده، بل تضم إليها بعض المشركين!.

ولقد سبق الاسلام الشيوعية بأربعة عشر قرنا في دعوته إلى الوطن الواحد الذي يقوم على نظام اجتماعي معين، وعلى فكرة إنسانية معينة، تذوب فيها القوميات والجنسيات جميعا.

ولكن الاستعمار يفزع ويرجف من هذا التكتل الاسلامي، كذلك تخشاه الكتلة الشيوعية بدورها، لأنه يقف في وجهها سدا.

فأما تركيا التي ضربتها جريدة بومباي كرونكل مثلا، فما أقدمت دولة على حماقة مؤذية كالتي أقدمت عليها تركيا. . لقد كانت في أضعف أيام الخلافة

الوهمية الاسمية يحسب لها حساب. فأما اليوم فقد انتهت إلى أن تصبح ذيلا صغيرا حقيرا للكتلة الغربية، ترتجف فرقا وفزعا من الكتلة الشرقية، فلا هي كسبت الكرامة، ولا هي كسبت السلامة!.

إن عجلة الزمن تسير، ولا بد أن تطحن تلك العقبات التي يقيمها الاستعمار أو تقيمها الشيوعية في وجه الكتلة الاسلامية. , وستذوب الأفكار المضادة، والشخصيات المضادة، والحكومات المضادة. وسيلتقي المسلمون يوما تحت راية الاسلام، لا مصري ولا سوري ولا لبناني ولا عراقي ولا حجازي ولا نجدي، ولا أردني ولا يمني ولا مراكشي ولا جزائري، ولا طرابلسي ولا إيراني، ولا تركي، ولا أفغانستاني ولا باكستاني ولا أندنوسي.. ولكن مسلمون، ومسلمون فقط. إن الشعوب الاسلامية تزحف، ولن تقف عقبة واحدة في الطريق، يوم يلتقي زحف هذه الشعوب.

غبار حول الكتلة الاسلامية!

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٨١ ص ٤٣٣

يجب أن يتوقع الدعاة إلى الكتلة الإسلامية غبارا كثيرا يثار حولهم، وحول الفكرة ذاتها، غبارا يثار من نواحي شتى: في الداخل وفي الخارج، بطرق مباشرة وغير مباشرة، تصريحاً وتلميحاً، من قريب ومن بعيد، عن طريق الأخبار والتعليقات والإشاعات والأراجيف، ومن طريق بعض السلطات وبعض العناصر وبعض الجماعات..

يجب أن يتوقعوا هذا كله منذ اليوم، لأن الدعوة إلى الكتلة الإسلامية مرادفة للدعوة إلى البعث الاسلامي. والبعث الإسلامي آت لا ريب فيه، بل قائم لا شك فيه؛ ولكن المعارضين والمناوئين لهذا البعث لن يستسلموا بسرعة، ولن يسلموا عن طواعية. إنهم سيقاومون هذا البعث إلى آخر لحظة، وسيستخدمون جميع الوسائل، ومن بين هذه الوسائل تخويف المسلمين أنفسهم من هذا البعث! أو إثارة مخاوفهم وشكوكهم حول الدعوة وحول الدعاة!.

إن البعث الإسلامي آت لا محالة، لأنه حركة طبيعية غير مصطنعة، حركة تجيء في أوانها، ولم يكن مستطاعا أن تجيء قبل هذه الأوان.. ولقد حاولها الكثيرون من قبل منذ أيام جمال الدين الأفغاني بل قبله، ولكنها لم تتم، لأنها في ذاك الوقت كانت دعوة رواد سابقين لزمانهم ولمقتضيات هذا الزمان. أما اليوم فهي دعوة في أوانها بعد أن تهيأت لها معظم الأسباب.

لقد انتهى العالم إلى كتلتين اثنتين قائمتين بالفعل، تتنازعان فيما بينهما

على أرض الكتلة الثالثة ومواردها. كذلك انتهى عهد النوم والخمود الذي كانت تعانيه الكتلة الثالثة، وقامت شعوبها بلا استثناء تتملص من براثن الاستعمار. ومهما تكن تلك البراثن من الشراسة والقوة، فإن تملص الفريسة وحده يكفي لإثبات البعث الجديد. .

ولقد آتت الحضارة الغربية أقصى ثمراتها. وبدا عليها الإفلاس. أو على الأقل أمارات الإفلاس. وبدأت البشرية تتلفت إلى منقذ ـ كما كانت تتلفت قبيل مولد الإسلام ـ والمذهب الشيوعي في الجانب الشرقي هو بدوره مذهب مادي كالحضارةالغربية، لا يختلف في طبيعته عن طبيعة الحضارة المادية الغربية. وهو مذهب تعسفي يصدم الفطرة البشرية ويعيش على كبتها وكبحها بقوة الحديد والنار. فهو مذهب ضد الطبيعة البشرية؛ فمن المحال أن تطمئن إليه الإنسانية. . لقد تندفع إليه فرارا من نار الاسغلال الرأسمالي والطغيان الاستعماري. . ولكنه مجرد اندفاع اضطراري؛ كالمستجير من الرمضاء بالنار كما يقولون في الأمثال!.

ويبقى النظام الاجتماعي الإسلامي وحده، يحمي البشرية من طغيان الاستغلال وطغيان الاستعمار، دون أن يكبت الفطرة البشرية، ويحكمها بالحديد والنار. .

وهذا ما يجعل البعث الإسلامي حركة كونية. حركة إنسانية. حركة طبيعية. . وهذا ما يجعله ضرورة لا لتخليص الرقعة الإسلامية وحدها من شر الإستعمار، ووقايتها في الوقت ذاته من شر الشيوعية، بل لتخليص البشرية كلها من المأزق الذي صارت إليه، ومن القلق الذي تعانيه، ومن الخواء الذي انتهت إليه حضارة الغرب بعد ثلثمائة عام!.

ولكن هذا كله ليس معناه أن حركة البعث الإسلامي ستلقى ترحيباً من الكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية، أو اسنادهما وعملائهما ودعاتهما في الوطن الإسلامي. . وإذن فسيثور غبار كثير. وقد بدت طلائعه من نواحى شتى. وفي صور شتى. وبوسائل شتى. .

أخذ بعضهم يثير الريب والشكوك، مدعياً أن الإنجليز أو الأمريكان هم الذين يخلقون حركة التكتل الإسلامية ليقفوا بها في وجه الشيوعية.

وفي ذات الوقت أخذوا يثيرون المخاوف من رد الفعل في العالم المسيحي أي الكتلة الغربية - إذا تكتل العالم الإسلامي.

وهكذا في وقت واحد، يكون العالم المسيحي هو الذي يخلق حركة التكتل الاسلامي، ويكون هو نفسه الذي يكره حركة التكتل الإسلامي!!.

ومرة يأتي التيار من جهة الهند، ومرة يجيء من ناحية لبنان، ومرة يجيء من فرنسا، ومرة ينبع من الأرض المصرية.. والصحافة المصرية المأجورة لأقلام المخابرات البريطانية والأمريكية تنفذ تعليمات هذه الأقلام.. وعملاء الشيوعية ينثرون الريب والشكوك في كل مكان..

كل هذا يجب أن يكون متوقعا. ويجب مع ذلك أن تسير الدعوة إلى الكتلة الإسلامية في طريقها لا تحفل بهذا الغبار. وأن تسير الاستعدادات العملية في طريقها بضغط الشعوب الإسلامية والعناصر الواعية فيها بصفة خاصة، فلا تترك للحكومات، كما تركت جامعة الدول العربية للأهواء!.

إنه لا خطر على حركة البعث الإسلامية أن يستغلها الاستعمار - كما حدث أحيانا لجامعة الدول العربية - لأن طبيعة الجامعة الإسلامية غير طبيعة الجامعة العربية.

إن الجامعة العربية حركة قومية عنصرية بعيدة عن الروح والضمير، وحركة الجامعة الإسلامية حركة عقيدة وبعث روحي شامل.. فإذا جاز لعملاء الاستعمار أن يوجهوا الجامعة العربية أو يعرقلوها، فإن الجامعة الإسلامية سوف تستعصي على التوجيه.

إن حركة التكتل الإسلامي لن تتم لأن بضعة حكام من كل دولة سيجتمعون ويتآمرون! بل إنها ستتم لأن حركة وعي إسلامي ستعمر القلوب والأرواح، ومتى

استيقظت الروح الإسلامية فهي بطبيعتها تأبى أن تسخر لأعدائها. إن الإسلام عقيدة استعلاء، فمن المحال أن تخضع أو تذل. إنها تقبل الخضوع يوم تكون هامدة خامدة، فأما حين تستيقظ فلا.

وإذن فلا خوف من استغلال هذه اليقظة لحساب الاستعمار والاستعمار يدرك هذا، ويثير الغبار حول الحركة الإسلامية، لأن تبلورها وبروزها هو النذير الأكبر على تقلص ظله البغيض.

هذه حقائق يجب أن تعرفها الشعوب الإسلامية، وأن تنفض عنها الغبار الذي يثيره أعداؤها من الجانبين، ويسخرون له أقلاماً وصحفاً وألسنة، تعيش في صميم الوطن الإسلامي!.

وبعض الذين نخب الاستعمار الغربي أفئدتهم، فأفئدتهم هواء، يرتجفون من الذعر أن تثير الدعوة الإسلامية ثائرة العالم الغربي والعالم الهندي!.. كأن هذا العالم أو ذاك قد سالم المسلمين في يوم من الأيام، أو أنه يسالمهم الآن!.

إن فظائع وشناعات ترتكب كل يوم ضد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. والأقليات الإسلامية في بعض البلاد تباد إبادة منظمة، وتضطهد بنفس الأساليب التي اتبعتها محاكم التفتيش الأسبانية أو أشد..

وعلى ذكر الأسبان ها نحن أولاء نراهم يقومون بدور السمسار للكتلة الغربية في العالم الإسلامي ونرى بعض رجالاتنا مع الأسف الشديد يقومون لهم بدور السماسرة كذلك!.

إن أسبانيا في هذه الأيام تخطب ود العالم الإسلامي. وهي في ذات الوقت تسوي حسابها مع أمريكا!.

ربما يقول بعضهم: ألا ترى؟ أليس هذا دليلا على أن قيام الكتلة الإسلامية هو من وحي السياسة الاستعمارية؟.

إنه حق يراد به باطل! يجب أن نفرق بين البواعث الطبيعية لقيام الكتلة الإسلامية، وبين محاولة الاستعمار أن يستغل هذه الحركة الطبيعية.

إن قيام الكتلة الإسلامية اليوم، على أساس النظام الاجتماعي الإسلامي، وعلى أساس تحكيم الشريعة الإسلامية في الحياة.. هو حركة طبيعية لا بد منها كما أسلفنا.. أما محاولة الاستعمار أن يستغل لحسابه هذه الكتلة الناشئة فهي محاولة مصطنعة يمكن القضاء عليها.

وإذن فلندع لقيام الكتلة الاسلامية، على أساس النظام الاجتماعي الاسلامي، لا على أساس اتفاقات دبلوماسية بين بعض السياسيين - على طريقة جامعة الدول العربية! - وليكن همنا أن ننشر حركة وعي إسلامي حقيقي بين الشعوب. وهذا هو الضمان لاستقلال هذه الكتلة عن الاستعمار، وقيامها على أساس مكافحة الاستعمار.

وحين يقوم العالم الاسلامي على أساس النظام الاجتماعي الاسلامي؛ فإنه سيكون في حصانة من الشيوعية، بل سيكون بدء تحطيم الكتلة الشيوعية، والنظام الشيوعي.

هذه حقيقة واضحة نحب أن ننفض عنها الغبار؛ ونعرضها ناصعة للأنظار والأفكار..

سـأم..

س ٢٠/ ١٩٥٢ع ٩٨٥ ص ٥٤٥

ذلك الذي تلمحه على وجوه الناس في هذه الأيام، وتلمسه في أحاديثهم في كل مكان..

سأم من كل شيء، ومن كل فكرة، ومن كل عمل، ومن كل أحد، ومن كل اتجاه..

السأم هو مزيج من ألم قد مات! ومن يأس من الأعمال والرجال، ومن «قرف» شامل، ومن استهتار.

يقلب الناس صفحات الصحف، ويمرون على العنوانات الضخمة بدون اكتراث، كأن لم يعد شيء يدعو إلى الاكتراث.

هذه الردود الذاهبة إلى لندن، الآيبة إلى القاهرة وبالعكس، إنها لا تعني أحدا. إن كل أحد يحس أنها ليست له، وليست من شأنه، وليست بشأنه، إنها أمور تعني أصحابها. تعني الذين يهمهم «قتل الوقت» هنا أو هناك!.

كل أحد في هذا الشعب يعرف أن هذه الردود الذاهبة إلى لندن، الآيبة إلى القاهرة وبالعكس، ليست هي التي تخرج الإنجليز من الوادي. كل أحد يعرف أنه وقت ضائع ذلك الذي يصرف فيها. وأن الانجليز يهمهم دائما أن يسوفوا انتظاراً لتحسن الظروف.

كل أحد في هذا الشعب يعرف أن الانجليز يعرفون، أن هناك عشرين مليونا

من البشر يعيشون خلف القضبان، وأن الذين يعيشون خلف القضبان لا حق لهم في الاستقلال!.

ولكن أحدا لا يقول شيئا عن هذه المسألة، ولا يهم أن يفتح فمه عنها بحديث، ما فائدة أن يتكلم؟ ما جدوى أن يقول؟..

سأم. سأم سأم تموت منه الكلمات في الشفاه.

والأزمة الاقتصادية، إن بوادرها في الأفق تلوح. بل إنها لتجتاح الوادي. كل شيء في الريف يهوي: القطن، الإيجارات، المعاملات، بينما تكاليف المعيشة على حالها، والغلاء آخذ بالخناق.

ولكن أحدا لا يهم أن يصرخ، ولا يهم أن يستغيث، ولا يهم أن يشير بعلاج.

لقد سئم الناس تكرار الصراخ وتكرار الاستغاثة وتكرار الكتابة حول النقائص والعيوب... كل كلام ذاهب كصرخة في واد، ليس لها من سميع.

لذلك لم يعد أحد يشكو. إنه ما فائدة الشكوى؟ ما جدوى الألم؟.

سأم. سأم. سأم تموت منه الكلمات في الشفاه.

وحكاية التطهير، لقد ألقى إليها الشعب سمعه في أول مرة. ثم سحب اللحاف على رأسه ونام!.

إن كل أحد يعرف أن الأمور فيما يختص بالشعب تسير كما كانت دائما تسير. مصالح الجماهير في دواوين الدولة لا يشعر بها أصحاب الدواوين.. ما من حاجة تقضى لأنها يجب أن تقضى؛ الموظفون في مكاتبهم لا للعمل، ولكن للانفاق على العمل! حتى المدرسون، ورثة الأنبياء، مربو الجيل، كل جهدهم اليوم للدروس الخصوصية، ومجانية التعليم أمست سخرية، بل كارثة على رؤوس الآباء. لقد كانوا يؤدون المصروفات المحدودة فيتعلم أبناؤهم. أما

اليوم فلا يتعلم إلا من يؤدي ضريبة الدروس الخصوصية. هنالك عصابات من «المربين»، عصابات تفرض ضرائب معينة على الآباء، وإلا فليستمتعوا هم وأبناؤهم بتعليم المجان!.

ولكن أحدا في الشعب لا يتألم ولا يصرخ، كما أنه لا يحفل بحكاية التطهير. إنه يعرف ما هنالك. فلا داعي إلى الكلام!.

سأم. سأم. سأم تموت منه الكلمات في الشفاه.

ومصر بلد مجنون والحمد لله، بلد يحاول أن يستنقذ من رمال الصحراء ومن ركام الأملاح أشبارا أو أمتارا من الأرض كل عام. وتنفق وزارة الاشغال، ومصلحة الأملاك، ووزارة الزراعة ما تنفق من جهد ومن مال في استنقاذ هذه الأشبار والأمتار من فم الصحراء، وردها إلى الخصوبة والعمار، ولكن هذا البلد نفسه يطمر مئات الأفدنة كل عام بالرمال والأحجار، مئات الأفدنة من أخصب بقاع هذا الوادي، يطمرها تحت الرمال والأحجار كي يحولها إلى مساكن! وهأنذا صباح مساء أبصر مئات من الرجال يكدون اليوم بطوله ليفرشوا مساحات من الأراضي الخصبة بين المعادي والبساتين على خط حلوان، يفرشونها بالرمال، ويطمرون ما عليها من زرع أخضر حي، يدفنونه بلا شفقة ولا رحمة، لتتحول هذه الأرض الخصبة إلى مساكن لشركة المعادي!.

ومن قبلها حدث مثل هذا في مدينة الأوقاف، وفي الدقي وفي طريق الهرم، لقد أكلت المباني هذه المساحات الشاسعة، بينما عشرات الألوف من الأفدنة، ومئات الملايين من الأمتار المربعة من الأراضي الرملية الجافة الجميلة الصالحة للسكنى بلا ردم ولا هدم تنتظر مشروعا واحدا يحيلها عمارا، مشروع كهربة خط حلوان..

ولكن مصر بلد مجنون والحمد لله. يجاهد جهاد المستميت لينقذ شبرا من عدم الصحراء، ويجاهد كذلك جهاد المستميت ليهب الصحراء فدانا يطمره بالرمال والأحجار.

أم إنني أنا المجنون؟ لأنني لا أفهم أن في مصر مصالح، وأن في مصر شركات؟.

ثم مالي لا أصمت كما يصمت الشعب في هذه الأيام؟ ألا أحس ذلك السأم الذي يرين على الوجوه؟ ألا أشعر بذلك الهم الجاثم على الصدور؟.

وفي هذا الوقت بالذات يطلع علينا الأستاذ أحمد العجمي في الرسالة بهتاف حار: أين الشعر أيها الشعراء؟.

الشعر! الشعر يا سيدي هتاف حياة، ودعوة حياة، وتعبير حياة.

الشعر طاقة فائضة تريد لها متنفسا، وحيوية دافقة تبتغي لها مسيلا.

الشعر تعبير أحرار يملكون التعبير، لا جمجمة عبيد أو أسرى خلف القضبان.

الشعر انتفاضة قلب، وتحليق روح. لا وسوسة السلاسل ولا جرجرة الأغلال.

انظر يا سيدي حولك! أنظر إلى ذلك الذي تلمحه في الوجوه، وتراه في السمات.

إنه مزيج من ألم قد مات، ومن يأس من الأعمال والرجال، من «قرف» شامل، ومن استهتار.

إنه السأم. السأم الذي تموت منه الكلمات في الشفاه!.

إن إلهكم لواحد . .

س ٢٠/ ١٩٥٢ ع ٩٨٧ ص ٦٠١

عجيب هذا القرآن! يقرؤه القارىء ويعيده، ويحفظه ويرتله، ويفسره ويفهمه، ويخيل إليه أنه قد استوعب معانيه، وأدرك مراميه، ويمر بالنصوص بعد هذا مرا عابرا، غير متوقع أن يجد فيها جديدا غير ما فهمه منها ووعاه.

وفجأة يتلو أو يستمع، فإذا انبثاقات جديدة عجيبة للكلمة وللآية تلتمع في الذهن والحس والقلب، لم تخطر من قبل أبدا؛ وإذا آفاق من التأملات والمشاعر والتأثرات تتفتح، لا يدري أين كانت مخبوءة في النص الواضح البسيط!

وهكذا يبدو أن رصيد هذا الكتاب العجيب الخالد لا يفنى ولا ينتهي، وأن معين الإلهام فيه لا يضمحل ولا يغيض، وأن الدنيا ستظل تكشف فيه آفاقا بعد آفاق، كلما استعدت طاقتها لتلقي ما فيه من إيحاءات: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾.

تلك الآية البسيطة القصيرة التي عنونت بها هذه الكلمة ﴿**إن إلهكم لواحد**﴾ . . كم من مرة تلوتها، وكم من مرة سمعتها، وكم من مرة ضممتها . . ولكنني أنتفض فجأة على لمسة منها لروحي وحسي ومشاعري جميعا. لمسة لم أعهدها من قبل فيها، على طول صحبتي للقرآن، وعلى طول عيشي في ظلال القرآن.

إن إلهكم لواحد . .

إنه مفرق الطريق في حياة البشرية . . إنه الانقلاب الأكبر في خط سيرها

الـطويل. . الانقـلاب من العبودية إلى الحرية، من الخوف إلى الأمن، من المهانة إلى الكرامة، من السيئة والضلال والفوضى، إلى الهدى والنور والنظام. إنه إعلان وجود الإنسان، الذي لا يستذل لإنسان مثله، كائناً من كان.

وإنني لأنظر إلى البشرية في تاريخها المتطاول، قبل أن توحد الإله، فأطلع على صحائف من الهوان، وعلى أودية من الحيرة، وعلى ألوان من القلق. . الأوهام تسحقها، والمخاوف ترهقها، والعبودية تطحنها. . وإن هي إلا جملة واحدة. جملة مشحونة بما يملأ صفحات وكتبا. بل بما يشغل أجيالا وقرونا. جملة واحـدة تغير وجه التاريخ، وطبيعة الحياة، وضمائر الملايين، وعلاقات الأفراد والجماعات؛ وتلغي كتاب البشرية كله لتخط صفحة خالدة في كتابها الجديد. .

إن إلهكم لواحد. .

هو وحده القادر، وهو وحده القاهر. . لو اجتمع أهل هذه الأرض على أن يضروا أحدا من خلقه بغير إرادة منه ما قدروا؛ ولو اجتمع أهل هذه الأرض على أن ينفعوا أحدا من خلقه بغير إرادة منه ما استطاعوا: **﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب﴾**.

إن إلهكم لواحد. .

لا تعنو الحياة إلا له، ولا تتوجه القلوب إلا إليه، ولا تنحني الهامات إلا لجبروته. فإذا عفرت له الجباه مرة فقد عزت أمام الجبابرة. وإذا ركع له الراكعون مرة فقد نصبوا هاماتهم أمام الطغاة، وإذا عبده العابدون فإن العزة لله ولرسوله والمؤمنين.

إن إلهكم لواحد. .

هو وحده والكل سواه نمال. هو وحده والكل دونه ضئال. هو وحده يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء: **﴿قل اللهم مالك الملك**

تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير. إنك على كل شيء قدير﴾.

إن إلهكم لواحد..

عقيدة ما أحوج المكافحين إليها.. تشد من عزائمهم، وتمنحهم القوة التي لا تصمد لها قوة، وتصلهم بالواحد الأحد الذي يجير ولا يجار عليه.

ما أحوجنا إلى هذه العقيدة - ونحن نجتاز امتحاناً عسيراً، سقطت فيه رجولات كثيرة. رجولات زائفة مموهة، خدعت الكثيرين. حتى إذا جاء دور الامتحان تهاوت تحت مطارقه، وتساقطت ذابلة ذليلة صفراء كأوراق الخريف.

ما أحوج الذين جبنوا بعد تشجع، وتخاذلوا بعد تماسك، وأحجموا بعد إقدام.. ما أحوجهم جميعا أن يتدبروا تلك الآية القصيرة، وأن تلمس قلوبهم جذوتها المقدسة، فيرتد الجبناء شجعاناً، والمتخاذلون أقوياء، والمحجمون أجرياء. ويستشعروا كرامة الإنسان التي تأبى ذل الإنسان.

ألا كم سقطت رجولات مزيفة في غمرة الامتحان.. سقط بعضها تحت مطارق الخوف، وبعضها تحت مطارق الطمع، وبعضها تحت مطارق الحرص، وبعضها تحت مطارق الجشع، وبعضها تحت مطارق الذل، وبعضها تحت مطارق الإرهاب.. وكلها.. كلها ما كان أحوجها إلى لمسة من ذلك الروح، تنفض عنها المخاوف والمطامع، وتطهرها من الحرص والجبن، فتتطلع إلى أعلى دون انحناء، وتعتز بالجبار القاهر فلا تعنو منها الجباه.

انتفضت كل هذه المعاني انتفاضة مفاجئة في نفسي، وأنا أمر مروراً عابراً بتلك الآية القصيرة الواضحة البسيطة.. فإذا جبابرة الأرض كلهم في عيني أقزام.. وإذا طغاة الأرض كلهم في حسي أوهام.. وارتسمت في نفسي بحروف من نور كلمة أخرى من ذلك القرآن:

﴿أأرباب متفرقون خير؟ أم الله الواحد القهار؟﴾.

لا بل الله الواحد القهار، الله أحني له الرأس مرة، ثم أنظر من عل إلى جميع الرؤوس. الله أسجد له مرة، ثم أنهض لأحتقر الجبارين. الله، تستمسك يدي بعروته، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.

بعض من يختانون أنفسهم، ويخونون الإنسانية كلها معهم، يراودوننا على أن نفقد هذا الإله بعدما وجدناه! يراودوننا على أن نجرد أنفسنا من هذه القوى الكبرى. يراودوننا على أن نواجه قوة الشر والظلم دون سلاح.

إنهم يختانون أنفسهم، وإنها لخيانة للبشرية كلها في كفاحها الطويل، كفاحها ضد الظلم والشر، كفاحها ضد الحرص والشجع، كفاحها ضد الهوى والشهوة، كفاحها ضد الضعف والترهل، كفاحها ضد العبودية التي استبدت من قبل بالإنسان.

إنها معركة طويلة الأمد، فما أحوج الإنسان فيها إلى إله، إله واحد لا معبود للناس سواه.

إلى النائمين في العالم الاسلامي

س ٢٠/ ١٩٥٢ ع ٩٩٣ ص ٧٦٩

نحن في مصر مشغولون لا نفيق؛ ليس لدينا وقت للتفكير فيما يدبره لنا اليهود بمعاونة العالم الصليبي. نحن مشغولون بالانقلابات الوزارية، مشغولون كذلك بالانتخابات: هل تكون بالقائمة أم بالوزن أم بالكيل؟ مشغولون بحكاية الاستثناءات، هل ترد لأصحابها أم لا ترد؟ ومن منهم ترد إليه استثناءاته ويزاد، ومن منهم يؤخذ منه ما معه..

وهي أمور ـ كما ترى ـ من الأهمية بحيث لا تترك وقتا ولا جهدا للتفكير في أي شيء آخر.

وفي هذا الوقت تقترب إسرائيل يوما بعد يوم من حدود سينا المصرية، المصرية اسما وإن كانت مصر لا تعرف عنها شيئا، لأن السياسة اليهودية الانجليزية عزلتها عن مصر طوال فترة الاحتلال، ولم يكن هذا العزل شيئا عارضا ولا أمرا غير مقصود، إنما كان وفقا لسياسة بعيدة الغور، تتفق مع أطماع اليهودية العالمية..

إن شبه جزيرة سينا يشتمل على أقدس مقدسات اليهود. فمن جانب الطور الأيمن نودي موسى، وعليه تلقى الألواح، وبه صخرة العهد، وسينا هي أرض التيه. لذلك كله ترف حول سينا أطماع اليهود التاريخية، ويربى أبناؤهم على عقيدة أن جزيرة سينا هي قلب مملكتهم الموعودة، وما فلسطين إلا جزءا صغيرا

من تلك المملكـة التي تضم سينا وفلسطين وشرق الأردن وقسما من سورية والعراق حتى الرافدين.

وعلى هذا الأساس هم يعملون منذ أجيال، وفي سنة ١٩٠٦ وفدت على مصر لجنة إنجليزية يهودية قضت في سينا خمس سنوات كاملة، تفحص عن كل شيء فيها، وتنقب عن المياه الجوفية والأراضي الصالحة للزراعة، والمعادن والطبيعة الجيولوجية بصفة عامة، والمناخ والطرق والأهمية الاستراتيجية، وعادت ومعها تقرير شامل يثبت أن سينا صالحة لإسكان مليون نفس وإعاشتهم.

وقد عنى الانجليز بعزل سينا عن كل نفوذ للحكومة المصرية، وكان محافظ سيناء «جارفس» الانجليزي هو حارس شبه الجزيرة أن تمتد إليها عين مصرية، وأفهموا المصريين أن هذه الصحراء لا أمل فيها ولا ضرورة للاهتمام بها، لأن المياه الجوفية فيها لا تصلح لخلق حياة مستقرة، وكان هذا كله لحساب اليهود الذي يسيرون دفة بريطانيا.

ومن المعروف أن جيش إسرائيل عندما تجاوز الحدود المصرية سنة ١٩٤٨، كان أول عمل لرجاله عندما وطئت أقدامهم رمال الصحراء بعد رفح أن ترجلوا جميعا، وقبلوا تراب الأرض، وأقاموا الصلاة، ثم تابعوا خطواتهم في الأرض المقدسة!.

أما اليوم فهم يقيمون على الحدود استحكامات قوية، ويسكنون في أرضها الفتيان الفدائيين بزوجاتهم وأولادهم، يقطعونهم الأرض، ويبنون لهم مساكنهم تحتها - لا فوقها - ويمدونهم بالمال ليستصلحوها.

وأمامهم ألوف الأميال المربعة في الشقة المصرية خلاء! فإذا أرادوا هم أن يزحفوا فسيزحفون من استحكاماتهم على الحدود ووراءهم العمار. وإذا أردنا نحن - حتى أن ندافع - وقفت جيوشنا ووراءها هذه الألوف من الأميال القاحلة الجرداء الخاوية من السكان.

لمـاذا؟ لأننـا نحن مشغولون. مشغولون بالانقلابات الوزارية. مشغولون بالانتخابات هل تكون بالقائمة أم بغير القائمة؟ مشغولون بالاستثناءات ومن ترد إليهم استثناءاتهم ومن لا ترد؛ مشغولون بهذه الأمور الكبار التي لا يجوز أن يلهينا عنها خطر اليهود أو غير اليهود، وما تكون سينا وهي صحراء جرداء إلى جانب كراسي الوزارة الفخمة ومقاعدها الوثيرة، وقاعاتها المكيفة الهواء!.

وفجأة ـ وفي هذه الظروف ـ تطلع علينا نغمة لا يدري مبعثها إلا الله، والراسخون في العلم من اليهود والصليبيين، نغمة تحديد النسل. لماذا؟ لأن مصر تضيق بسكانها، ولأن موارد الرزق لا تنمو بنسبة نمو السكان، ولأن الأرض الزراعية محدودة.

جميل! نحن معكم في أنه حين تعجز موارد البلد عن إعالة سكانه يجب أن يقف نمو هؤلاء السكان. ولكن حين تكون في موارد هذا البلد بقية فيجب أن يستمر سكانه في التزايد، لأن نمو السكان في هذه الحالة ضمانة من ضمانات البقاء أمام تكتل الأعداء. وضمانة من ضمانات القوة في المجال الدولي. لأن الأمم التي تريد أن يكون لها وزن في الكتلة الدولية تحاول كلها زيادة سكانها. وأمامنا ألمانيا وإيطاليا وروسيا واليابان. بل أمامنا إسرائيل الصغيرة وهي تحاول مضاعفة سكانها على الرغم من كل ما يشاع من الأزمة الاقتصادية الممسكة فيها بالخناق!.

فهل استنفذت مصر وسائلها لزيادة مرافقها؟ إن في مصر من الموارد والمرافق ما يكفي لإعاشة ضعف سكانها كما يقول بعض الخبراء، وأمامنا مثل واحد في سينا، فهي كافية لإعاشة مليون من الناس، لو وجدت من يعمرها ويرد إليها الحياة.

فلماذا يتجه التفكير أول ما يتجه إلى وقف نمو السكان؟.

ومرة أخرى نكرر، أننا لا نعارض ـ بل نحتم ـ وقف نمو السكان حين يثبت أن مرافق البلاد غير قابلة للنماء. أما حين يثبت أنها قابلة لأن تتضاعف، فإنه

يكون من الحمق، أو الاتجاه المريب، أن تثور مثل هذه النغمة. لأن معناها وقف نمو البلاد لا من ناحية تعدادها فحسب، ولكن كذلك من ناحية مرافقها. فضغط السكان قد ينبه الغافلين إلى محاولة الاستغلال الكامل لمرافق البلاد.

على أن حكاية تحديد النسل أو زيادته لا تخضع لحسن الحظ، لهذه الأفكار السطحية التي لا تحاول التعمق في دراسة الأمور. إن الحرص على زيادة النسل في الريف ضرورة اقتصادية وضرورة اجتماعية. ولا عبرة بالمدن لأنها على هامش حياة الوطن!.

إن الذي لا أولاد له في الريف يعيش في مستوى اقتصادي أقل من مستوى أبي الأولاد. كما أنه أقل هيبة وحصانة على الاعتداء! وهذه العوالم الاقتصادية والاجتماعية من القوة بحيث لا تستمع لنصائح السطحيين!.

ولن يتغير حكم هذه العوامل ويخف ضغطها إلا حين ينتشر التعليم، ويصبح هناك مورد آخر للرزق على العمل في الأرض، وقوة أخرى للحماية غير قوة العضلات! وعندئذ يستطيع الشعب كذلك أن يستعيض من قوة العدد قوة العقل، ليقف في وجوه أعدائه المحيطين به.

إن الفطرة تتصرف في هذا أحكم مما يتصرف السطحيون الذين يحسبون أنفسهم «مثقفين!» فإذا عز على حضراتهم أن يدرسوا الأمور دراسة حقيقية، فلا أقل من أن يدعوا الفطرة تعمل بحكمتها ويغنونا عن حكمتهم الذهبية، المستمدة من الدسائس اليهودية والصليبية!

وبعد فنعود إلى استصراخ النائمين في العالم الإسلامي ليصحوا على مطامع الصهيونيين في سيناء. فإن مصر مشغولة الآن، مشغولة بالانقلابات الوزارية. مشغولة بالانتخابات وهل تكون بالقائمة أو بالوزن والكيل.. مشغولة بالاستثناءات وغير الاستثناءات. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه. والأهم يقدم. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نقطة البدء

س ٢٠/١٩٥٢ ع ٩٩٥ ص ٨٢٥

لقيني الأستاذ الأديب الشاعر محمد فهمي وقد قرأ مقالي الأخير في الرسالة بعنوان: «إلى النائمين في العالم الإسلامي» فقال في شيء غير قليل من الحدة والضيق: لمن تكتبون هذا الكلام؟ وما قيمة توجيهه إلى شعوب كاملة من الأميين الذين لا يقرأون ما تكتبون؛ والقلة القليلة التي تقرأ لا تملك أن تتصل بكتلة الشعوب، لأنها شعوب جاهلة لا تدري شيئا مما حولها، ولا تستطيع شيئا حتى لو درت، لأن الحياة في هذا العصر تريد شعوبا متعلمة وإلا فالموت والذل للأميين.

واستمعت الى ثورته.. إن فيها كثيرا من الحق. وإن كان لهذا الحق بقية هي التي أردت أن أعرضها للناقد الثائر، لولا أنه لم يمهلني. لقد ارتفع صوته بالسخط، وأنا لا أريد أن أسترسل في مناقشة الساخطين الثائرين!.

نعم. نحن في حاجة إلى توجيه حملات ضخمة لنشر التعليم في العالم الإسلامي كله نشرا سريعا في خطوات جازمة حازمة، لا تسير بخطوات السلحفاة، نحن في حاجة إلى توجيه هذه الحملات لا إلى اليمن مثلا حيث يحارب التعليم كما تحارب المخدرات، أو أشد وأعنف، لأن المخدرات هناك لا تقاوم، ونبات (القات) المخدر يزرع في كل مكان، ويستعمل في كل مكان، ولا تفكر الدولة في مقاومته كما تفكر في مقاومة التعليم، ولا تطارده كما تطارد المتعلمين!.

ولا إلى الحجاز ونجد حيث لا تبلغ ميزانية التعليم كلها ربع ميزانية فرد،

ولا ينفق عليه عشر ما ينفق على السيارات والكماليات والعطور.

ولا إلى بلاد الشمال الإفريقي حيث يقف الاستعمار سدا في وجه الثقافة حتى لتعد الكتب والمجلات محظورات، تهرب داخل طرود سرية، خيفة أن تثير شبهات الجمارك والبريد!.

نحن في حاجة إلى توجيه تلك الحملات لا لمثل هذه الأصقاع في العالم الإسلامي، بل الى مصر التي تعد أكثر بلاد العالم الإسلامي تقدما من هذه الناحية، إذا استثنينا لبنان، ونسبة التعليم فيها أكثر ارتفاعا.

نعم في حاجة أن نوجه تلك الحملات إلى مصر التي تعطي وكلاء الوزارات والمديرين العامين بدل سيارات، يتراوح شهريا بين ثلاثين وأربعين جنيها ثم تخفض ميزانية التعليم إلى الثلث بحجة التقشف! مصر التي تبعثر معظم ما تملك من العملة الصعبة في شراء السيارات الفاخرة ثم لا تجد ما تشتري به مصانع أو آلات زراعية ميكانيكية أو آلات صناعية، أو حتى أدوات صحية، لأن ما لديها من العملة الصعبة محدود! مصر التي يتعطل ثلاثة أرباع سكانها عن العمل، لأن مرافق العمل فيها محدودة، ولا تملك توسيع مرافق العمل هذه، لأن ميزانيتها تحوي ملايين الجنيهات لشراء أثاث فاخر، وشراء يخوت فاخرة، وحضور ولائم ومؤتمرات ونزهات للمحظوظين!.

لقد قال لي محدثي الثائر: دعوا الاستعمار. لا تحاربوه الآن. نحن لا يهمنا أن يكون في أرضنا مليون من الجيوش الاستعمارية. إذا كان لدينا عشرة ملايين فقط من المواطنين المتعلمين. إن ألمانيا محتلة بالجيوش الروسية والأمريكية والإنجليزية والفرنسية، ولكن الجميع يترضونها، لأن الشعب الألماني شعب متعلم، لا يمكن أن تحكمه جيوش المستعمرين..

وقال: دعوا الكفاح الاجتماعي لتعديل الأوضاع الاقتصادية ـ وحتى الدستورية ـ فهذه الأوضاع التي تشكون منها ستعدل نفسها بنفسها يوم يستحيل الشعب المصري أو أي شعب عربي أو إسلامي شعب متعلم..

كنت أريد أن أفهم محدثي أن هذا كله صحيح، ولكن هنالك أشياء أخرى يجب أن تكون في الاعتبار. لولا أنه لم يترك لي فرصة للكلام؟.

نعم. إن الاستعمار لا يملك أن يعيش في بلد متعلم.. نعم إن الحرمان لا يمكن أن يدوم في شعب متعلم.. نعم إن الطغيان لا يمكن أن يقوم في وطن متعلم... نعم. كل هذا صحيح؛ ولكن بقي أن نعرف: من هو الشعب المتعلم؟ ومن هو الفرد المتعلم؟.

إنني أؤمن بقوة المعرفة. أؤمن بقوة الثقافة. ولكني أؤمن أكثر بقوة التربية..

إنني أنظر في تاريخ الاستعمار، فلا أكاد أجد له أسنادا إلا من المتعلمين.. كل الرجال الذين قدموا للاستعمار خدمات ضخمة. الذين مهدوا للاستعمار ومكنوا له. الذين كشفوا له عن عورات البلاد ومقاتلها. الذين تولوا عنه تحطيم معنويات الوطن وقواه الكامنة. الذين جعلوا أنفسهم ستارا لمساوىء الاستعمار ومخازيه.. كلهم.. كلهم كانوا من المتعلمين!.

كذلك كان الذين مهدوا للطغيان وأعانوه. استمرأوا سلطان الجبابرة وهم يؤدون ضريبة الذل والعبودية. الذين استغلوا النفوذ للاثراء على حساب الشعب. الذين أفسدوا ضمير الشعب بالمحسوبية والرشوة والسرقة والغش. الذين خانوا الوطن والأمانة والخلق والضمير.. كلهم كانوا كذلك من المتعلمين!.

نعم. إنه لو كانت الشعوب أو كثرتها من المتعلمين ما أمكن للسماسرة أن يسلموا البضاعة بهذا اليسر وهذه السهولة. هذا صحيح. ولكنه صحيح كذلك أن «الصنف» المتعلم الذي تخرجه المدارس في بلادنا اليوم، ليس هو الذي يقف في وجه التيار، وليس هو الذي يستعصي على السماسرة، بدليل أن كثرته يجرفها تيار العبودية والذل والفساد، دون أن ترفع رأسها، ودون أن تدافع عن كرامتها، بل عن إنسانيتها.. إن أنشودة «أكل العيش» هي النشيد القومي للجميع! وأكل العيش ممكن في ظلال الكرامة لو أرادها الجميع.

إن التعليم الذي نزاوله في مصر، ومعظم البلاد الإسلامية، تعليم فاشا، بل تعليم قاتل، إنه تعليم بلا تربية، بل تعليم يكافح التربية. إن المدارس والجامعات تخرج لهذه الأوطان فتاتا آدميا وحطاما بشريا. تخرج له عبيدا. نشيدهم القومي الخالد هو أنشودة «أكل العيش»!.

لست أنكر على الشباب المتعلم أن يطلب رزقه، فالحياة لا بد أن تعاش. والمال عصب الحياة. بل لست ألوم هذا الشباب المتعلم، فلو وجد هذا الشاب أجيالا من الأساتذة الصالحين، وتقاليد من النظم الصالحة، لكان أفضل شباب الأرض. ولكني أقرر الحقيقة المؤلمة، حقيقة أن معاهد التعليم في مصر كلها وفي معظم البلاد الإسلامية الأخرى.. لا تخرج رجالا أحراراً بقدر ما تخرج فتاتا آدميا وحطاما بشريا.. إنها معاهد خاوية من الروح.. وهذا مفرق الطريق.

إن نظم التعليم وخططه ومناهجه وكتبه.. وأخشى أن أقول أساتذته.. لا يمكن أن تخرج رجالا أحرارا مفكرين مستنيرين. إلا الشواذ الذين يكافحون الجهاز التعليمي كله ويخرجون من براثنه سالمين.

ولقد كان ذلك قائما قبل تلك الفوضى الأخيرة، التي سميت «مجانية التعليم».

إن التعليم كان يجب أن يكون بالمجان. وكل بلاد العالم المتحضر التعليم العام فيها بالمجان. ولكن المجانية شيء والفوضى شيء آخر. والذي حدث والذي تحقق هو الفوضى. أما المجانية فليس فيها قولان فقط، بل عدة أقاويل!.

لقد كان الآباء يدفعون عشرة جنيهات للمدرسة الابتدائية أو عشرين جنيها للمدرسة الثانوية، فتقوم عنهم بتعليم أبنائهم، ذلك التعليم الخاوي من المثل الخاوي من الروح.. فأصبحوا اليوم مكلفين ـ من استطاع ذلك منهم ـ أن يدفعوا للدروس الخصوصية عشرين أو ثلاثين أو خمسين جنيها ليحصلوا لأبنائهم على النجاح في الامتحانات، لا عن طريق التعليم الخاوي من المثل الخاوي من

الروح. بل عن طريق اطلاعهم على أسئلة الامتحان وتيسير الغش فيه!.

إنها الكارثة. الكارثة المضاعفة التي تربى على ما كنا فيه.

إن التعليم الذي نزاوله، والذي كنا نزاوله قبل حكاية المجانية الزائفة؛ ليس هو الذي يؤدي إلى كفاح الاستعمار، وكفاح الطغيان، وتعديل الأوضاع الاجتماعية المخلة بكرامة الانسان.

إن التعليم لكي يؤدي مهمته هذه يحتاج الى تعديله من أساسه.. ومما يؤلم النفس أن هذا التعديل لا يحتاج إلى مال غير الذي ننفقه. وقد لا يحتاج إلى رجال غير الذين يزاولون اليوم مهمة التعليم. ولكنه يحتاج فقط إلى إيمان بهذا التعديل الشامل، وإلى عقليات قليلة ناضجة تشرف على التنفيذ..

أم لعلني أمام عقدة العقد، وأنا أحسبها من الهين اليسير؟!.

ألم أحاول مرة أن أغير نظام دراسة اللغة العربية ليقام على أساس سليم عام ١٩٤٣ ففشلت. وكان الأمر يومها متروكا إلى سعادة المستشار الفني الدكتور طه حسين؟!.

ألم أحاول مرة أن أغير نظام دراسة التاريخ ليقام على أساس سليم عام ١٩٤٧ ففشلت وكان الأمر يومها متروكا إلى معالي وزير المعارف الدكتور عبد الرزاق السنهوري؟!.

ألم أحاول عشرين مرة ـ بعد عودتي من البعثة إلى أمريكا ـ أن أنشىء لوزارة المعارف أداة فنية صحيحة، تقيم نظام التعليم ومناهجه على أساس سليم، ففشلت في هذه المرات كلها فشلا ذريعا؛ لأن المراد هذه المرة كان إصلاحا في الصميم؟!.

لقد أفلح الاستعمار في تطعيم عقلية وزارة المعارف بالميكروب الثابت.. إنه يبدو دائما في صورة كبار موظفين!.

نعم يجب أن ينتشر التعليم؛ ولكن أي تعليم؟ يجب أن يقوم هذا التعليم على أسس ثقافية سليمة، وعلى أسس تربوية سليمة. نعم وينبغي أن تكون له مثل، وأن تكون به روح.

وإلى أن يقيض الله لوزارة المعارف رجالا يؤمنون بهذا ويقدرون في الوقت ذاته على مقاومة الميكروبات الاستعمارية الكامنة في وزارة المعارف، في صورة كبار موظفين!.

إلى أن يقيض الله لوزارة المعارف أولئك الرجال، فليس أمامنا لمكافحة سموم الأجهزة التعليمية الحاضرة إلا المحاضن الخاصة، التي تتلقف الشباب الضائع، والحطام المفتت، فتعيد صياغته في قوالب جديدة سليمة، وفي جو روحي نظيف. لترد هذا الشباب الضائع الحائر رجالا كراما على أنفسهم، كراما على أوطانهم، كراما على ربهم...

وهذا ما يحاوله.. الإخوان المسلمون..

صححوا أكاذيب التاريخ

س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠٠١ ص ٩٩٣

إن تلاميذنا وطلابنا لا يعرفون شيئاً حقيقياً عن الأحداث الجارية في وطنهم اليوم، بسبب أنهم لا يعـرفون شيئاً حقيقياً عن تاريخ بلادهم، ولا عن الأسباب والملابسات البعيدة، التي عنها نشأت الأحداث الجديدة.

لقد تآمر جماعة من المرتزقة ـ من مؤلفي كتب التاريخ المدرسية، مع العهود الظالمة الباغية التي أظلت مصر منذ عهد محمد علي، على كتابة تاريخ مزور، يطمس الحقائق ويشوهها، بل يقلب هذه الحقائق ويزورها. وبذلك بقيت طبيعة الفترة ما بين سنتي ١٨٠٠ ـ ١٩٥٠ مجهولة لدى جميع الأجيال التي خرجتها المدارس المصرية في ذلك العهد الطويل. والقليلون الذين اطلعوا على مراجع أجنبية لم تمتد إليها يد التزوير المصرية، لم يكونوا يملكون إذاعة الحقائق، لأن سيف الطغيان كان مصلتا على الرقاب!

لقد كان الأستاذ الكبير عبدالرحمن الرافعي هو أجرأ من كتبوا عن تاريخ هذه الفترة. ولكن هنالك حقيقتين يجب أن نعرفهما:

الحقيقة الأولى: أن الأستاذ الرافعي لم يكن يملك أن يقول كل شيء عن الحكام من أسرة محمد علي؛ لأن هنالك أشياء كان يعاقب عليها القانون لو قيلت. في أي تعبير وعلى أي شكل. ولم يكن يسمح بطبعها ونشرها في أي عهد من العهود.

وأذكر على سبيل المثال أن المؤرخ أحمد شفيق (باشا) كانت له مذكرات

من أواخر عهد إسماعيل إلى آخر عهد عباس الثاني. وكنت أشتغل معه في إعداد هذه المذكرات للنشر. وكانت تحتوي على شناعات ليست المخازي الأخيرة لفاروق إلا طرفا منها وامتدادا لها. ففي هذه الأسرة لوثة وشذوذ لا شك فيهما لمن يتتبع تاريخ أفرادها، وكنت أحاول أن أنشر شيئا من الحوادث الكثيرة الواردة بتلك المذكرات الخطية. ولكن القوانين التي سنها الملوثون لحماية أنفسهم وعروشهم كانت تحول بيني وبين هذا. لأن الرجل كان قد ائتمنني على مذكراته، ولم يكن من الأمانة أن أعرضه وهو شيخ كبير للاتهام والمحاكمة! ومرة واحدة حاولت أن أنشر في الجزء الخاص بعباس الثاني، بعض ما حوته المذكرات من وقائع، مما تسمح القوانين القائمة بنشره. ولكن عندما تم طبع هذا الجزء في مطبعة بنك مصر، وقبل توزيعه، اتصل الأمير محمد علي ـ وكان بعضهم قد أبلغه ـ بالمشرفين على المطبعة، كما اتصل بالسراى، وبالنائب العام، لوقف صدور هذا الجزء إلا بعد تعديله، وأجبر الرجل المؤرخ على تغيير صفحات كثيرة، واستغرق ذلك مني جهدا جديدا. وبذلك اختفت نهائيا تلك الحقائق والوقائع التي لا يعرفها إلا القليلون.

ولقد رجوت الرجل في أن يودع لدي الأصول الخطية لمذكراته، فقد يجيء اليوم الذي يمكن نشرها فيه، ووعدني بهذا، ثم بدا له خاطر أن يودعها في صناديق مقفلة تحفظ في دار الكتب المصرية وكان ذلك بمشورة الدكتور منصور فهمي مدير دار الكتب المصرية إذ ذاك. . ولكن المنية عاجلته قبل أن يفعل. وعلمت مع الأسف أن معظم هذه المخطوطات قد أعدمه أولاده. وأرجو ألا يكون ما بلغني صحيحا.

ولقد كان في وسعي أن أنقل لنفسي بعض هذه المخطوطات. ولكن وقف في وجهي أنني كنت أمينا عليها، وأن الرجل كان واثقا بأمانتي!.

والحقيقة الثانية أن الكتب المدرسية التي لا يقرأ معظم المتعلمين غيرها في تاريخ تلك الفترة، هي التي طبعت غالبية العقليات. وهي كتب مزورة كما قلت. ومع هذا فهي لا تزال مقررة في المدارس. وهذه مسألة خطيرة جدا.

لقد تركنا أجيالا من التلاميذ والطلاب في خلال مائة وخمسين عاما مضللة، لا تعرف شيئا حقيقيا عن أخطر مرحلة في تاريخ مصر الحديث، بل في تاريخ الشرق كله.

تركنا هذه الأجيال كلها تفهم أن محمد علي أوجد مصر الحديثة من العدم. ولم يكن هذا صحيحا؛ فمصر كانت قبل محمد علي أقوى بكثير في جوانب شتى. ويكفي أن نعرف أن الفرنسيين عندما استولوا على مصر خاضوا مع الشعب معارك كثيرة وفي كل مكان قبل أن تخضع مصر لهم، وظلت الثورات الشعبية تهددهم طوال مدة إقامتهم. وكان ذلك قبل استيلاء هذه الأسرة الملوثة الشاذة على مقاليد الحكم في البلاد. بينما الانجليز وجدوا الطريق أمامهم مفتوحة بعد نصف قرن فقط، ولم يجدوا مقاومة شعبية تذكر؛ لأن طغيان هذه الأسرة كان قد حطم كبرياء الشعب وروحه المعنوية في أوائل عهد توفيق!.

تركنا هذه الأجيال كلها تفهم أن تحطيم محمد علي للحركة الوهابية في الجزيرة العربية كان عملا عظيما. وهو في حقيقته كان جناية تاريخية على النهضة الاسلامية التي كان يمكن أن تبكر مائة عام عن موعدها، لو تركت هذه الحركة تمضي في طريقها، وتبلغ أهدافها في ذلك الحين.

تركنا هذه الأجيال كلها تفهم أن ثورة المهدي في السودان كانت عملا عدائيا بالنسبة لمصر، وأن مصر ردت هذا العمل العدائي وحطمت المهدي وثورته. والحقيقة أن ثورة المهدي في السودان كانت ضد الحكم الانجليزي في مصر وضد الحكام الخاضعين للاحتلال. وكان هدفها تطهير الوادي من الاحتلال الأجنبي وسيطرة الفكرة الإسلامية على الوادي كله. وكان القضاء عليها هو الخيانة الوطنية التي ارتكبتها حكومة مصر تحت ضغط الاحتلال؛ ثم ظلت هذه ثغرة بين شطري الوادي، كما أراد لها الاستعمار أن تكون!.

تركنا هذه الأجيال تفهم أن إسماعيل كان حاكما عظيما، وأنه أحد بناة الدولة العظام؛ وسترنا فضائحه التي لا تقاس إليها فضائح فاروق نفسه؛ وسترنا الكوارث

التي جرها على الوطن والشعب؛ وتركنا الآلام التي جرعها لشعب مصر في حياته وبعد مماته، وسميناه ساكن الجنان! وسميناه المغفور له! والله يعلم أين مثواه ومثوى آبائه الأولين!.

ولقد آن أن نصحح التاريخ الذي زوره المزورون على هذه الأجيال الكثيرة. آن أن نعرف من هو محمد علي على حقيقته. ما هو الشذوذ الكامن في شخصيته، والذي ورثه أبناءه بعده. وهو شذوذ واضح كتب عنه الكثيرون، ولكنه كان محظورا على الشباب أن يعرفوه!.

آن أن نعرف من هو إسماعيل على حقيقته. ما هو الشذوذ الكامن في شخصيته، والذي ورثه أبناءه من بعده. وهو شذوذ واضح، كتب عنه الكثيرون، ولكنه كان محظوراً على الشباب أن يعرفوه!.

نعم آن لنا أن نصحح كتابة التاريخ الذي تدرسه الأجيال المقبلة، وكفانا تزويرا وتضليلا، فعلى أساس هذا التزوير والتضليل قامت تلك القداسة المصطنعة لمحمد علي وأسرته. هذه الأسرة التي لم تبتل مصر بشر منها ومن حكمها في خلال مائة وثلاثين عاما.

نعم آن أن تتحرر الأجيال المقبلة من خرافة «الأسرة المحمدية العلوية» التي أوجدت مصر من العدم. ولم يبق إلا أن يقال: إنها هي التي حفرت مجرى النيل، وردمت الدلتا بالطمى، وخلقت وادي النيل!.

أخرسوا هذه الأصوات الدنسة

س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠٠٣ ص ١٠٤٩

محطة الإذاعة المصرية لم تشعر بعد بأن هناك ثورة في هذا البلد. وقد ظل إدراكها لمعنى الثورة محصورا في إضافة بعض إذاعات جديدة إلى البرنامج العادي، قائمة على جهد فردي بحت. لا على أساس انقلاب أساسي في عقلية الإذاعة!.

وهذا طبيعي. فإن العقلية المشرفة اليوم على المحطة هي ذاتها العقلية التي كانت تشرف عليها منذ نشأتها.

ومكلف الأشياء ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

إن الأصوات الدنسة التي ظلت تنثر على الشعب رجيعها خلال ربع قرن من الزمان هي ذاتها التي تصبها الإذاعة على هذا الشعب صبا، وتكثر من عرض أشرطتها المسجلة بحجة أن الجماهير تحب هذه الأصوات.

والجماهير تحبها نعم! كما أن هذه الجماهير تحب المخدرات! ولكن واجبنا اليوم هو حماية هذه الجماهير من الأصوات التي تحبها كما نحميها من المخدرات التي تحبها كذلك. واجبنا هو أن نصون ضمائر الناس وأخلاقهم من التميع والشهوات المريضة، ـ المعذرة للرجولة والأنوثة ـ التي ينفثها في أرواحهم مخلوقات شائهة بائسة كعبدالوهاب ومحمد فوزي وفريد الأطرش وعبدالعزيز محمود وليلى مراد ورجاء عبده وفايدة كامل وشهرزاد وأمثالهم!.

إن هذا الطابور المترهل الذي ظل يفتت صلابة هذا الشعب ويدنس رجولته وأنوثته، هو المسؤول عن نصف ما أصاب حياتنا الشعورية والقومية من تفكك وانحلال في الفترة الماضية.

إن فساد فاروق وحاشيته، ورجال الأحزاب ومن إليهم، لم يدخل إلى كل بيت، ولم يتسلل إلى كل نفس. أما أغاني هذا الطابور وأفلامه فقد دخلت إلى البيوت، وأفسدت الضمائر، وحولت هذا الشعب إلى شعب مترهل لا يقوى على دفع ظلم أو طغيان. وعبدالوهاب ينفث في روعه أن الدنيا سيجاره وكاس!.

إن هذه الأصوات بذاتها تكون جريمة وطنية، وجريمة إنسانية، بغض النظر عما تقول! فلقد تحول هي ذاتها إلى ميوعة مدنسة حتى ولو كانت تنشد نشيدا حماسيا!.

وهذا هو محمد عبدالوهاب يغني أخيرا «نشيد الحرية» للأستاذ كامل الشناوي. فماذا صنع به؟ لقد استحال في حنجرته رجيعاً ضارعاً، ووصل الى ضمير الشعب دعوة خانعة إلى تهويمة مخدرة! ومع أن تلحين النشيد من الناحية الموسيقية فيه جهد واضح، ولكن الكارثة كلها تكمن في طريقة الأداء الصوتية التي انطبعت بالشجن الضارع المترهل المحلول!.

وعبدالوهاب رأس مدرسة، والآخرون ليسوا خيراً منه بل هم شر. ولا سبيل لعلاج هذه المخلوقات الشائهة الزرية. لا سبيل لعلاجها إلا بأن تخرس هذه الأصوات الدنسة إلى الأبد، إذا أردنا أن نربي روح هذا الشعب تربية جديدة، وأن نبث فيه جياة جديدة. وما كنا بمستطيعين من قبل أن نصنع هذا، ولا أن نطالب بإخراس هذه الأصوات كلية ـ مهما كان الشعب يحبها ـ لأن العقلية العامة لم تكن تستسيغ هذا الطلب. وربما لا تستسيغه الآن كذلك. ولكن واجب الثورة يحتم عليها أن تفعله ـ مهما يكن فيه من اعتداء على حريات الأفراد ـ فواجب الثورة أن تحمي الناس من أنفسهم أحياناً. كما تحميهم من المخدرات. والمخدرات لا يمكن أن تفسد ضمير الشعب، وأن تفتت تماسكه، كما يفسدها

فلم واحد، أو أغنية واحدة من أغنيات هذا الطابور!.

ثم نعود إلى محطة الإذاعة فنجدها توالي برامجها القديمة بعقليتها القديمة - فيما عدا تعديلات طفيفة قائمة على جهود فردية بحتة - كأن شيئا ما لم يحدث في حياة هذا البلد.

لماذا؟ لأن الرجال الذين عاصروا مولد الإذاعة هم القائمون عليها حتى الآن. وأنا آسف حين أتعرض لأشخاص بأعيانهم. فالأشخاص لا يهمونني في شيء، لولا دلالة وجودهم على أن الثورة لم تصل بعد إلى محطة الإذاعة.

خذ مثلا لذلك رجالا، ردهم العهد الجديد إلى مراكز هامة في محطة الإذاعة، بينما هم عنوان على عهد لا ينبغي أن تظل له آثار في العهد الجديد.

كل من احتكوا بالإذاعة يعرفون كيف نال بعضهم رتبة «البكوية» في سن مبكرة وكيف صعدوا الدرجات المالية وثبا.

إن رتبة «البكوية» كان لها معناها، ولها أسبابها في مثل تلك العهود. ومع هذا فقد استطاع بعضهم أن يعود إلى الاذاعة، وأن يطلق أبواق الثناء عليه في كافة الصحف!.

لماذا؟ لمجرد أن المنافسة القائمة على الحظوة بالرضى الملكي السامي قد أبعدت قوما وقربت آخرين.

ولكن أحدا لم يسأل، ولم يعرف، فيم كان هذا الخلاف؟.

إنه لم يكن قطعا خلافا على مبدأ، ولا على حق من حقوق الشعب، ولا على خطة ولا على فساد. إنما كان خلافا على الحظوة بلثم الأعتاب الملكية الكريمة!.

ولم يقل أحد إن انتصار موظف على موظف في هذا السباق يجعل أحدهما شريفا والآخر مجرما. ولكن بعضهم قال هذا. وجاء بالمبعدين ليشرفوا على

محطة الإذاعة من جديد، في العهد الجديد!.

إنني آسف حين أضطر إلى لمس ذلك الموضوع الشخصي. ولكن عذري أنه عنوان على عهد يجب أن يزول.

إن محطة الإذاعة يجب أن تنفض نفضا من أقصاها إلى أقصاها. إنها في حاجة إلى تطهير من نوع خاص. فلم يبلغ الدنس في جهة من جهات الدولة ما بلغ في محطة الإذاعة. وإن جدرانها لو نطقت لأفصحت عن كثير، مما لا يجوز نشره في الصحف، لا لأن القانون يحرمه، بل لأن كرامة النفس البشرية تأبى الإفصاح عنه!.

ولا سبيل للتطهير والأشخاص الذين عاصروا مولد الإذاعة وسايروها باقون في مراكزهم بالمحطة. إن لهم صلات معينة بالوسط الإذاعي لا يمكنهم التخلص منها. وإن لهم سهرات معينة لا يمكنهم أن يتنازلوا عنها. وإن لهم ارتباطات معينة لا يمكنهم التنكر لها، ومهما حاول الوزير المختص أن ينقي جو الإذاعة من الشوائب فإنه سيظل عاجزا عن الوصول إلى تلك الملابسات التي تتدخل في عقود الإذاعة. وإلا اضطر إلى مراجعة ظروف كل إذاعة وهذا مستحيل!.

وإن عقلية الإذاعة يجب أن تتغير، فتنصرف إلى بناء أخلاق الشعب ومبادئه ومثله وأهدافه. وإلى بناء ثقافته وتفكيره وتعبيره، وإلى تعبئة قوى الشعب وعزيمته وأطماعه وأشواقه. وإلى دراسة مشكلاته وتوجيهه وجهة سليمة.

وهذا لا يكفي فيه تعديل البرامج، ولا تنحية فرد أو اثنين. إنما هو في حاجة إلى تنحية عقلية، وتنحية تاريخ.

ولا حاجة إلى المساس بالموظفين جميعا لتحقيق هذه الغاية. فالمهم هو تطهير الرؤوس المشرفة. الرؤوس الموجهة. الرؤوس التي عاصرت الفساد وسبحت بحمده وانغمست فيه.

إن الرؤوس وحدها هي المتعفنة في هذا الشعب. وقد سار الفساد من أعلى إلى أسفل، ولم ينتقل من أسفل إلى أعلى. وكذلك يمكن أن يسير الإصلاح في نفس الطريق.

نحن الشعب نريد

س ١٩٥٢/٢٠ ع ١٠٠٥ ص ١١٠٥

نحن الشعب ندرك اليوم أن فجراً جديداً قد طلع، وأن عهدا جديدا يظلل هذا الوادي؛ وندرك أن وثبة الجيش المباركة هي التي أطلعت ذلك الفجر، وبدأت هذا العهد، وأن هذه الوثبة المباركة ليست لحساب فرد أو هيئة أو حزب، وإنما هي لحسابنا نحن الشعب!.

نحن الشعب ندرك أن الذين قاموا بالثورة حملوا رؤوسهم على أكفهم، وساروا في ظلام دامس، في طريقهم الشوك، وفي قلوبهم الشعلة، وفي وجوههم الخطر. بينما كان كبراء هذا البلد في مصايفهم الناعمة بأوربا، يحف بهم النعيم، وتراودهم أخيلة الحكم، وتداعبهم أحلام الماضي!.

ونحن الشعب نريد أن نعمل مع الذين واجهوا الخطر في الظلام الدامس؛ وأن نتخلى عن الذين استمتعوا بالنعيم ونحن هنا في قبضة البؤس والظلم.. ذلك أننا نعرف أن الأبطال الذين كافحوا كانوا معنا، والكبراء الذين استمتعوا كانوا علينا!.

نحن الشعب ندرك أن الإقطاع قطر من عرقنا كؤوسا شهية للسكارى، وجمد من دمائنا يواقيت في نحور الغواني، وجعل من رفات آبائنا وأجدادنا سماداً للأرض الطيبة كي تزيد غلاتها لحسابه.. ونعرف أن محترفي الحكم وتجار السياسة قد انضموا إلى جلادينا الاقطاعيين، وأصبحوا منهم ذوي ملكيات واسعة، ولم ينضموا الينا نحن الكادحين في الأرض.. حتى قامت وثبة الجيش

الأخيرة.. هنا فقط قال حماة الوادي للجلادين: مكانكم! وهنا فقط ردت الأرض إلى ملاكها الحقيقيين.

ونحن الشعب نريد أن ننبذ محترفي الحكم وتجار السياسة الذين وقفوا في صفوف الإقطاع ولم يقفوا في صفوفنا. وأن نحمي ظهور حماة الوادي من دسائس الإقطاعيين وحلفائهم من محترفي الحكم وتجار السياسة!.

نحن الشعب ندرك أن الرأسمالية قد فتلت لنا حبال المشانق في صورة قوانين ولوائح. وسلطت علينا البوليس السياسي يطاردنا في المعامل والمصانع. وحرمت علينا تكوين النقابات وتكوين الاتحادات النقابية إلا بإذنها ورضاها، وإلا بجواسيسها وأذنابها.. ونعرف أن مستغلي النفوذ من الوزراء والمستوزرين قد باعوا أنفسهم لهذه الرأسمالية، مقابل صفقات رابحة، وعضويات في مجالس الشركات، وأذون استيراد وتصدير.. وأن الوثبة الجديدة وحدها هي التي مزقت البوليس السياسي، وقلمت أظافر الرأسمالية. وأطلقت للنقابات العمالية حرياتها، ومهدت لقيام اتحاد النقابات على أسس سليمة، واعترفت بشرعية هذا الاتحاد.

ونحن الشعب نريد أن نتخلص نهائيا من المستغلين الذين باعوا أنفسهم للرأسمالية. وأن نتكتل وراء الوثبة الجديدة التي خلصتنا من براثنها المخيفة.

نحن الشعب ندرك أن وزراء العهود الماضية كانوا ينتظرون إشارة صغيرة من مولاهم ليدوسوا الحريات، ويعطلوا الصحف، ويحطموا الأقلام، وأن البرلمانات كانت وراءهم توافق لهم على القوانين، وتعترف لهم بشرعية الطغيان، وتقفل باب المناقشة عندما يجبهها الحق.. ونعرف أن الثورة المقدسة هي التي قالت لمولاهم: تنازل قبل الساعة الثانية عشرة وارحل قبل الساعة السادسة. وهي التي أملت على التاريخ صفحة جديدة من العزة والكرامة، وطوت صفحة قديمة من الذل والصغار، وتركت حتى خصومها الكائدين لها، يثرثرون في صحافتهم، ويملأون الدنيا ضجيجا وعجيجا. لأنها تؤمن بالحرية حتى لأعدائها.

ونحن الشعب نريد أن نطوي صفحة هذا الماضي بملكه ووزرائه ومستوزريه، وزعمائه ومتزعميه. نريد أن نطوي هذه الصفحة المخزية، لنفتح الصفحة الجديدة التي أملتها الوثبة المقدسة على التاريخ. لأننا شعب له كرامة ويجب عليه أن يحمي هذه الكرامة.

نحن الشعب ندرك أن تجار السياسة استغلوا حماستنا الوطنية، وتطلعنا إلى الحرية والاستقلال، وحرصنا على أن نكون أمة لائقة بماضيها التاريخي، ليتجروا بها كلها في الأسواق الدولية والأسواق الداخلية. وأنهم لذلك أثروا على حسابنا ثراء فاحشا، ولو أنهم استغلوا تجاراً في أية سلعة ما أثروا مثل هذا الثراء الفاحش. وأنهم على استعداد أن يستغلوا حماستنا الوطنية من جديد، ليزيدوا بها ثراء على ثراء، وترفاً على ترف، وقصوراً على قصور. ونعرف أن الوثبة الجديدة وحدها هي الوثبة النظيفة. لأن رجالها لا يزالون يعيشون عيشة الشظف: يسهرون والناس نيام، ويعيشون على أخشن الطعام. ولا يعرفون مصايف مصر فضلاً على مصايف العالم ومغانيه.

ونحن الشعب نريد أن نقول للممثلين على مسرح الوطنية: أسدلوا الستار فقد سئمنا الرواية! أسدلوا الستار واذهبوا فإن فجرا جديدا قد طلع. وإن عهدا جديدا يظلل هذا الوادي.

عدونا الأول: الرجل الأبيض

س ٢٠/١٩٥٢ ع ١٠٠٩ ص ١٢١٧

في أمريكا يتحدثون عن «الرجل الأبيض» كما لو كانوا يتحدثون عن نصف إله. ويتحدثون عن «الملونين» من أمثالنا المصريين والعرب عامة كما لو كانوا يتحدثون عن نصف إنسان!.

فالذين يعتقدون أن الأمريكان يمكن أن يكونوا معنا ضد الاستعمار الأوربي هم قوم إما مغفلون أو مخادعون، يشتغلون طابورا خامسا للاستعمار الأمريكي المنتظر لبلاد الشرق الأوسط!.

إن مصالح الاستعمار الأمريكي قد تختلف أحيانا مع مصالح الاستعمار الأوربي. ولكن هذا ليس معناه أن يكونوا في صف استقلالنا وحريتنا. إنما معناه أن يحاولوا زحزحة أقدام الأوربيين ليضعوا هم أقدامهم فوق رقابنا. وفي الغالب هم يجدون حلا لخلافاتهم مع الاستعمار الأوربي على حسابنا.

إن الرجل الأبيض هو عدونا الأول. سواء كان في أوربا أو كان في أمريكا.. وهذا ما يجب أن نحسب حسابه. ونجعله حجر الزاوية في سياستنا الخارجية، وفي تربيتنا القومية كذلك.

إن أبناءنا في المدارس يجب أن تربى مشاعرهم وتفتح أذهانهم على مظالم الرجل الأبيض وحقارة الرجل الأبيض. وجشع الرجل الأبيض. ويجب أن تكون أهداف التربية عندنا هي التخلص من نفوذ الرجل الأبيض. لا سياسيا فحسب، ولا إقتصاديا فحسب، ولكن اجتماعيا وشعوريا وفكريا كذلك.

ولكن الـذي نفعله هو عكس هذا على خط مستقيم.. عندنا في وزارة المعارف عبيد للرجل الأبيض. عبيد يعبدون هذا الرجل كعبادة الله. بل إنهم ليلحدون في الله ولا يلحدون في أوربا أو أمريكا. سرا أو علانية!.

وعنـدنا في معاهد التربية التي تخرج المدرسين، فتؤثر بذلك في عقيدة أجيال بعد أجيال.. عندنا فتات آدمي ينظر إلى الرجل الأبيض نظرة التقديس، ويطبع مشاعر الطلبة الذين سيصبحون مدرسين بطابع الإعجاب والقداسة لأولئك المستعمـرين القـذرين، الذين يحتقروننا ويهينون كرامتنا، فنتلقى ذلك منهم بالشكر والثناء.

وهذه جناية قومية، وجناية إنسانية.. جناية قومية لأن الرجل الأبيض يستغلنا ويستغل أوطاننا استغلالا شنيعا، ومن واجبنا أن نعبىء أعصابنا ومشاعرنا ضده، لنسترد حقوقنا المسلوبة. وجناية إنسانية لأننا بتمجيدنا للأوربي والأمريكي إنما نمجـد مثـالا مشـوها للانسان، ونقيم تمثالا للجشع والطمع والسلب والنهب والاحتيال. ثم نضع تحت أقدامه أكاليل المدح والثناء!.

أمامي وأنا أكتب هذه الكلمة جريدة مصرية صباحية يتحدث كاتبها فيها عن مأساة تونس مع فرنسا فيقول مخاطبا لرئيس الدولة الفرنسية:

«أما إذا كان يقصد شق الطرق وإنشاء السكك الحديدية، وتشييد الأبنية وزيادة الرخاء الاقتصادي.. فلعله يعرف أن هذا كله تم لفائدة المستعمرين من الفرنسيين. أما أهل البلاد الأصليون فيعيشون كالغرباء. لا يزالون جهالا حفاة عراة. وقـد ساومت أمـريكـا على أرض مراكش، فأعطت أمريكا امتياز إقامة المطارات والاستحكامات الحربية على الشاطىء في مقابل أن تنصرها أمريكا، وتمهد لها السبيل لتنفيذ سياستها».

ولكن الكاتب يقول مع هذا عن فرنسا إنها «البلاد التي علمت الدنيا مبادىء الحرية والإخاء والمساواة»!.

وهذا هو الاستعمار الروحي، الذي يقيد مشاعرنا حتى ونحن ثائرون على الاستعمار السياسي!.

هذا هو الاستعمار الروحي الذي ينطق الكاتب بهذه الخرافة حتى وهو يستعرض تاريخ فرنسا الأسود، ومساومات أمريكا الاستغلالية.

هذا هو الاستعمار الذي بثته في أرواحنا المدرسة المصرية التي تنفذ أهداف الاستعمار إلى اللحظة الحاضرة. بل يقوم على رأسها وزير كان من عباد إنجلترا، ثم أضحى من عباد أمريكا ومعه معاهد تربية تتعبد أمريكا من دون الله في الأرض!.

هذا هو الاستعمار الذي بثه في أرواحنا كتاب خانوا أمانتهم للوطن، وخانوا أمانتهم للانسانية، فوقفوا أقلامهم طويلا على تمجيد فرنسا.. ومع ذلك فإن بعضنا لا يزال يهتف لهم، ويعدهم روادا للفكر في الشرق!.

إنني أفهم أن تهتف لهم فرنسا، أو أن تهتف لهم إنجلترا، أو أن تهتف لهم أمريكا.. أما أن نهتف لهم نحن العرب فهذا هو الهوان البشع، الذي لا يقدم عليه فرد وله كرامة!.

إن مكان هؤلاء اليوم كان ينبغي أن يكون مكان الجواسيس والخونة والطابور الخامس، لا مكان التمجيد والتقدير والاحترام.

كل رجل غمس قلمه ليمجد فرنسا أو يمجد انجلترا أو يمجد أمريكا.. هو رجل منخوب الروح، مستعمر القلب، لا يؤتمن على النهضة القومية، ولا يجوز أن يكون له مكان في حياة هذه البلاد بعد نهضتها.

إنني لا أكاد أتصور أن هناك إنساناً له مشاعر الإنسان، يرى «الرجل الأبيض» يدوس بأقدامه على أعناقنا في كل مكان ثم يجد نفسه قادرا على تمجيد هذا الرجل، أو حتى مصادقته. إنني أشك في آدمية هؤلاء الكتاب، وهؤلاء الوزراء، وهؤلاء الأساتذة. نعم أشك في آدميتهم لأن أول مميزات الإنسان أن يحس بكرامة الإنسان.

أنهم أن تكون هنالك ظروف اضطرارية تلجئنا إلى تبادل التمثيل السياسي والقنصلي، وإلى المبادلات التجارية والصلات الاقتصادية مع هؤلاء المستعمرين القذرين.. أما أن نتبادل العواطف والمشاعر، وأما أن نتحدث عن المآثر والمفاخر، وأما أن نفتح قلوبنا وصدورنا.. فدون هذا ويعجز خيالي عن تصور المهانة، وتصور المذلة، وتصور المسخ الشعوري الذي يصيب الفطرة البشرية، فيهوي بها إلى ذلك الدرك السحيق من الهوان.

من الذي يسمع عن وحشية الفرنسيين في الشمال الإفريقي ثم لا يمزق كل ما هو فرنسي، إن لم يكن بيديه وقدميه، فعلى الأقل بمشاعره وقلمه ولسانه؟.

• من الذي لا يحتقر أمريكا ويحتقر معها آدمية الأمريكان وهو يجد المعدات الأمريكية والدولارات الأمريكية تشد أزر الاستعمار الأوربي في كل مكان.. لقاء مساومات اقتصادية أو استراتيجية أو عسكرية؟.

من الذي يملك أن يقف على الحياد في معركة الحرية بين الاستعمار الغربي وبين البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها ثم لا يكتفي بموقف الحياد بل يمد يده بالمصافحة والمحالفة لهذا الاستعمار القذر، الذي تلعنه الأرض والسماء؟.

إن الاستعمار لا يغلبنا اليوم بالحديد والنار. ولكنه يغلبنا قبل كل شيء بالرجال الذين استعمرت أرواحهم وأفكارهم، يغلبنا بهذا السوس الذي تركه الاستعمار في وزارة المعارف، وفي الصحف، والكتب؛ يغلبنا بهذه الأقلام التي تغمس في مداد الذل والهوان الروحي لتكتب عن أمجاد فرنسا، وأمجاد بريطانيا، وأمجاد أمريكا.

ولن نستطيع التغلب على هذا الاستعمار، إلا إذا حطمناه في مشاعرنا، وحطمنا معه الأجهزة التي تسحق إيماننا بأنفسنا. هذه الأجهزة الممثلة في وزارة المعارف ومعاهد التربية، والأقلام الخائنة الممسوخة التي سبحت يوما وما تزال

تسبح بحمد فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا.

وأنا لا أطمع في الجيل الذي شاخ أن يصنع شيئا. هذا جيل قد انتهى. جيل منخوب مهما بدا كالطود الشامخ. جيل مزيف لأنه لا يؤمن بنفسه، ولا يأنف من تقبيل الأرجل التي تركل قومه ووطنه وإنسانيته أيضاً. جيل لا بأس أن تكرمه فرنسا، وأن تكرمه أمريكا؛ لأنه يعمل لحسابها ويؤدي لها خدمات، لا يؤديها جيش مسلح كامل.

كلا، لست أطمع في هذا الجيل الذي شاخ. إنما أنا أطمع في جيل الشباب المتحرر الذي يحترم رجولته، ويحترم قوميته، ويحترم إنسانيته..

أطمع في جيل الشباب أن يخرس كل صوت يرتفع في مدرسة أو معهد أو كلية بتمجيد الرجل الأبيض، الذي خان أمانة الإنسانية.

أطمع في جيل الشباب أن يحطم كل قلم ينغمس في مداد الذل والعار، ليمجدوا الرجل الأبيض الذي يدوس أعناقنا بحذائه.

أطمع في جيل الشباب أن يحتقر كل رجل يصادق الرجل الأبيض، طائعا مختارا، بدون ضرورة ملجئة تحتمها الأوضاع الدبلوماسية!.

ويوم ننفض الاستعمار على هذا النحو من أرواحنا وعقولنا..
يوم تغلى دماؤنا بالحقد المقدس على كل ما هو أوربي أو أمريكي..
يوم نسحق تحت أقدامنا كل من يربطنا بعجلة الاستعمار..
عندئذ فقط سننال استقلالنا كاملا؛ لأننا نلنا الاستقلال من داخلنا: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. ﴿سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**..

مبادىء العالم الحر!

س ٢١/١٩٥٣ ع ١٠١٨ ص ١٤

«العالم الحر» اسم يطلقه الاستعماريون في إنجلترا وفي فرنسا وفي امريكا على تلك الكتلة الاستعمارية التي تكافح ضد الزمن، وتقاتل ضد الإنسانية، وتقاوم ضد الحرية. ثم تطلق على نفسها في النهاية اسم «العالم الحر»!.

و «العالم الحر» مشغول في هذه الأيام بتمزيق إهاب «الحرية» في تونس ومراكش وفي كينيا وفي فيتنام.. وفي كتم أنفاس «الأحرار» في كل مكان؛ لأن رسالة العالم الحر هي أن يكون حرا في قتل الحرية حسبما يشاء!.

و «العالم الحر» يرتكب من الجرائم ما يقشعر له ضمير البشرية. وذلك رغبة في نقل مبادىء الحضارة الغربية إلى القارة المظلمة. وإذا كانت هذه القارة لا تريد أن تتحضر على يد البعثات التبشيرية فلتتحضر إذن بالسيف والمدفع والطيارة والدبابة؛ وهي أقدر ولا شك على نقل مبادىء الحضارة إلى الشعوب المتخلفة!.

و «العالم الحر» يشرد الشعوب من ديارها ـ على نحو ما فعل في فلسطين ـ وذلك رغبة منه في إيجاد «لاجئين» يتولى رعايتهم، والعطف عليهم، وإقامة الخيام لهم في العراء. فمبادىء العالم الحر تقتضي العطف على المشردين، الذين لا وطن لهم في هذه الأرض المعذبة!.

و «العالم الحر» يتساند ويتكاتف في هذه المهام الضخام. أليس الدولار هو الذي يشد من أزر فرنسا في تونس ومراكش وفيتنام، ويشد من أزر إنجلترا

في كينيا ومصر وفي كل مكان؛ ويشتري الصحف والأقلام والجماعات والجمعيات والرجال والنساء في هذه الأيام؟!.

وأنا لا أعيب على «العالم الحر» أن يمزق إهاب الحرية ويمثل بجثث الضحايا من الأحرار، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ في القرى الآمنة، ويرتكب الجرائم الوحشية التي يرتكبها بلا تحرج.. فإن هدفه السامي من وراء ذلك كله واضح ـ كما قلت ـ وهو نقل مبادىء الحضارة الغربية بطريقة عملية إلى الشعوب المتأخرة، التي لا يجوز أن تظل متأخرة!.

إنني لا أعيب على هذا «العالم الحر» حريته هذه. حرية وحوش الغابة في أن تصنع في الغابة ما يؤهلها له الظفر والناب. فمبادىء الحضارة الغربية هي هذه كما كانت وكما هي كائنة، وكما ستكون حتى يأذن الله لها بالفناء.

كلا! إنما أنا أتلفت إلى شعوبنا وحكوماتنا ومفكرينا وكتابنا وشعرائنا وجماعاتنا وجمعياتنا.. أتلفت إليهم لأرى هل سكتت الأبواق التي تهتف بحمد الحضارة الغربية؟ هل خرست الألسنة التي تتحدث عن الصداقة الأمريكية والصداقة الانجليزية والصداقة الفرنسية؟ هل انزوت الجماعات والجمعيات التي تحمل ألوية الصداقة مع «العالم الحر» وتشيد بجهوده في الخدمات الاجتماعية والتعليم الأساسي واليونسكو والنقطة الرابعة وسائر الوسائل الاستعمارية الحديثة التي تنخر في صخرة المقاومة الشعبية؟.

أتلفت لأرى هذه الأبواق لا تزال مفتوحة، ولأرى هذه الألسنة ما تزال طليقة، ولأرى هذه الجمعيات والجماعات ما تزال تتبجح وتعلن عن نفسها بلا حساب، وتنفق الأموال الضخمة في هذا الإعلان، والدولار من خلفها يمكن لها من العمل ويمكن لها من الإعلان!.

إن «العالم الحر» لا يحاربنا بالمدفع والدبابة إلا في فترات محدودة؛ ولكنه يحاربنا بالألسنة والأقلام، ويحاربنا بالمنشآت البريئة في مركز التعليم الأساسي، وفي هيئة اليونسكو، وفي النقطة الرابعة؛ ويحاربنا بتلك الجمعيات والجماعات

التي ينشئها وينفخ فيها ويسندها ويمكن لها في المراكز الحساسة في بلادنا. . وأخيرا فإنـه يحاربنا بأموال أقلام المخابرات التي تشتري الصحف والأقلام، وتشتري الهيئات والجماعات.

وواجبنا نحن أن نكافح، واجبنا أن نكافح الوسائل الاستعمارية الحديثة، ونكافح الهيئات والجماعات والمؤسسات التي تيسر العمل لهذه الوسائل: مهما كانت اسماؤها بريئة.

إن الاستعمار الروحي والفكري هوالاستعمار الخطير حقاً. فاستعمار الحديد والنار يثير المقاومة بطبيعته، ويؤرث الأحقاد القومية التي تقتلع الاستعمار من أساسه. أما الاستعمار الروحي والفكري فهو استعمار ناعم لين، مخدر، ينوم الشعوب، ويستل أحقادها التي يجب ان تتأجج، وتستحيل نارا وشواظا يحرق ويدمر الاستعمار وعملاءه في يوم من الأيام.

لقد قام بيننا في وقت من الأوقات رجل يسمى «أمين عثمان» يحمل لواء الصداقة الانجليزية في فجور وتبجح، ويؤسس جميعة نادي العلمين. كما قامت في ظله «جماعة إخوان الحرية». ولقد هرعت الشخصيات الكبيرة يومها إلى أمين عثمان وجمعيته. الشخصيات المستوزرة التي تشم رائحة الحكم من عشرات الأميال. . ولكن حاسة الشعب السليمة ظلت تنفر من الرجل وجماعته على الرغم من انضمام «الشخصيات الكبيرة» لأن الشعب يعرف قيمة هذه الشخصيات ودوافعها!.

واليوم يقوم رجل آخر بدور أمين عثمان. يقوم به في محيط آخر وتحت عنوان آخر. وتهرع الشخصيات الكبيرة ذاتها إلى الانضام إليه. . وما من شك في أن الأمة بحاستها السليمة ستظل في معزل عن هذه المحاولة الجديدة. . ولكن الاطمئنان إلى حاسة الأمة لا يجوز أن يقعد بالشباب الواعي عن التنبيه إلى هذا الخطر الجديد، وإلى التحذير من وسائله الناعمة وعنوانه البرىء.

إن الحرب المقدسة مع الاستعمار اليوم تقتضـي تخليص ضمائر الشعوب

اولا من الاستعمار الروحي والفكري، وتحطيم الأجهزة التي تقوم بعملية التخدير، والحذر من كل لسان ومن كل قلم، ومن كل جمعية أو جماعة كتهادن معسكرا من معسكرات الاستعمار، التي ترتبط جميعها بمصلحة واحدة، ومبادىء واحدة. مبادىء العالم الحر ومصالح العالم الحر!.

في الغرب يقوم «العالم الحر» وفي الشرق تقوم «الديمقراطيات الشعبية» ونصيب هذه الديمقراطيات من إسمها كنصيب العالم الحر من إسمه سواء بسواء!.

فالديمقراطيات الشعبية هي الديمقراطيات التي تحكم حكما ديكتاتوريا مباشرا؛ تحرسه الجاسوسية الرهيبة؛ ولا تسمح لفرد من الشعب فضلا على الشعب كله أن يفكر بحرية، ولا أن نعِكر في الحرية ذاتها بحال!.

وإذا كان للعالم الحر أجهزته وأقلامه وألسنته، فإن للديمقراطيات الشعبية أجهزتها وأقلامها وألسنتها.. وكلها تعمل في محيطنا العربي والاسلامي.. وكلها تستحق منا المكافحة كما نكافح الاستعمار. إلا أن الاستعمار يجثم على صدورنا اليوم ويخنق أنفاسنا بعنف. والواجب يقتضينا أن نوجه المقاومة الإيجابية للاستعمار، والمقاومة الفكرية للديمقراطيات الشعبية!.

والراية التي تجمعنا لنكافح.. هي وحدها راية الإسلام.

إن بعضنا يؤثرون أن يتجمعوا تحت الراية العربية.. وأنا لا أعارض في أن يكون هذا تجمعا وقتيا يهدف إلى تجمع أكبر منه، فليس هناك تعارض جدي بين القومية العربية والوطنية الاسلامية إذا نحن فهمنا القومية العربية على أنها خطوة في الطريق. إن أرض العرب كلها جزء من أرض الإسلام، فإذا نحن حررنا الأرض العربية فإننا نكون قد حررنا بضعة من جسم الوطن الإسلامي، نستعين بها على تحرير سائر الجسد الواحد الكبير.

والمهم أن نتجمع اليوم ونتساند كما يتساند العالم الحر ضدنا. فكل بلد

صغير لا يستطيع وحده أن يكافح عالما. والسياسة القصيرة النظر التي تريد أن تحصرنا في حدودنا الجغرافية المصطنعة هي سياسة حمقاء؛ فالعالم يسير نحو التكتل في الشرق والغرب سواء. ومن واجبنا أن نتكتل على الأقل تمشيا مع منطق العصر؛ إن لم يكن تمشيا مع منطق الإسلام.

والمجموعة الآسيوية الإفريقية تحاول أن تكون كتلة محايدة. ولا ضير من السير معها، وإن كنت أنا شخصيا لا أرى أن هنالك مقومات حقيقية ودائمة لقيامها. فهنالك تيارات مختلفة تتجاذبها. والمصالح التي تربط بينها اليوم مصالح مؤقتة. أما الكتلة التي يمكن أن تقوم على أسس حقيقية وعميقة ودائمة فهي الكتلة الإسلامية، وهي آتية لا ريب فيها على الرغم من جهود «العالم الحر» وجهود «الديمقرطيات الشعبية» فلنعجل بقيامها فهي سندنا الحقيقي الوحيد.

عدالة الأرض

ودم الشهيد حسن البنا

س ٢١/١٩٥٣ ع ١٠٢٣ ص ١٦١

قضية هذا الدم الزكي لا تزال بين يدي القضاء، فلا تعليق لي عليها في موضوعها ووقائعها؛ ولكنها تثير في النفس أشجانا، وتكشف في الوقت المناسب عن حقائق، وتوجه النظر إلى حقيقة عدالة الأرض، وترفع البصر إلى عدالة السماء، وتميز بين ما يصنعه البشر من القانون، وما يصنعه الله من الشريعة.. **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**.

إن ممثل الاتهام يقول:

«وبما أن الواقعة ـ كما أظهرها التحقيق ـ تتلخص في أن الأميرالاي محمود عبدالمجيد بيت النية على قتل المرشد العام لجماعة الإخوان الملسمين (المرحوم الشيخ حسن البنا) وإن لم يصل التحقيق إلى تحديد إن كان في ذلك متفقا عليه مع ولاة الأمور في الدولة ـ وقتئذ ـ أو أنه كان يعمل لهذا حتى يحظى بتقدير ولاة الأمور أولئك، لثقته في أنهم أهدروا دم المجني عليه، فبات تنفيذ قتله أمنية يتوقون إليها ويروجون لتحقيقها».

«وتنفيذا لما بيت الأميرالاي محمود عبدالمجيد النية عليه، استقدم إليه الأشخاص الذين يعرف فيهم الاستعداد الإجرامي لارتكاب هذه الجريمة، والذين وقع اختياره عليهم لتدبيرها وتنفيذها، وهم الصاغ حسين كامل، واليوزباشي عبده أرمانيوس، والأمباشي أحمد حسين جاد، ووكيل الباشجاويش محمد اسماعيل، والأمباشي حسين محمدين رضوان، والباشجاويش محمد محفوظ محمد، ومصطفى محمد أبو الليل ويوسف أبو غريب.. الخ».

وينتهي ممثل الاتهام إلى المطالبة برؤوس هؤلاء الذين حددتهم عريضة الاتهام: ويقف مكتوف اليدين أمام «ولاة الأمور أولئك الذين أهدروا دم المجني عليه» لأن قانون الأرض الذي بين يديه، لا يساعده ولا يساعد العدالة على الأخذ بتلابيبهم على الأقل بتهمة «إهدار دم المجني عليه» وهم المكلفون حماية هذا الدم البرىء.

والقضية بين يدي القضـاء فيمـا يختص بالمتهمين، فلا تعليق لي على موضوع الدعوى ولا حوادثها.. ولكن لنفرض أن المحكمة قد أجابت ممثل الاتهام إلى كل طلباته، وسلمت إليه رؤوس هؤلاء المتهمين.. فماذا تساوي تلك الرؤوس بالقياس إلى رأس حسن البنا؟ وماذا تساوي تلك الدماء بالقياس إلى ذلك الدم الزكي الذي أريق؟.

ألا ما أعجز عدالة الأرض حينئذ، وما أقصر يدها عن العدل في أضيق معانيه!.

إن أكبر الرؤوس في ذلك العهد الآثم، رؤوس «ولاة الأمور أولئك» كما يعبر عنهم ممثل الاتهام في احتقار. إن أكبر الرؤوس يوم ذلك مجتمعة لا تصلح أن تكون موطئا لقدم ذلك الشهيد الكريم. ولا تحقق ذلك القصاص العادل من ذلك العهد الفاجر وممثليه أجمعين.. فكيف ببضعة رؤوس صغيرة أكبرها رأس ذلك الأميرالاي الصغير؟.

هنا تبدو عدالة الأرض قاصرة. ويبدو تشريع الأرض هزيلا. ويبدو مشرعو الأرض أقزاما..

وهنا تبدو المسافة هائلة بين تشريع الله للبشرية وتشريع الإنسان.

ما جزاء ولي الأمر الذي يهدر دم الأبرياء الطاهر؟.

ماذا تقول عدالة الأرض في ذلك الاتهام الذي يذكره ممثل الاتهام على سبيل الجزم والتأكيد؟.

لعل الحصانة الكاذبة «لولاة الأمور أولئك» هي التي قيدت يد ممثل الاتهام،

فلم يستطع إليهم سبيلا!.

فأي زيف زيف تلك الدساتير التي تسبغ الحماية على المجرمين وترفعهم فوق العدالة وفوق القانون؟ وأي عجز في عدالة الأرض كلها وأي قصور؟.

إن عدالة الأرض هذه لتمنع محكمة النقض في مواطن كثيرة أن تحكم ببطلان الحكم الجائر إذا لم تجد سبيلا لقبول الطعن فيه شكلا، فإذا كانت الإجراءات الشكلية كلها صحيحة ومستوفاة، وقفت محكمة النقض عاجزة عن أن تنفذ الى الموضوع. ممنوعة من إحقاق الحق الذي تراه، مكتوفة عن رفع الظلم الذي تعتقده!.

وحتى حين تجد منفذا في الشكل فإنها تقف مكتوفة اليدين إذا لم تجد في التطبيق القانوني الموضوعي خطأ.. مهما يكن الحكم مع ذلك جائرا..

ولقد وقف المرحوم عبدالعزيز فهمي هذا الموقف في قضية البداري. لا يجد سبيلا الى دفع الظلم وتحقيق العدل إلا صرخة يبعثها من أعماق ضميره، صرخة في وجه قانون الأرض الذي يقف جامدا مكبلا بالإجراءات!.

وتخطىء المحكمة ذاتها ثم يتبين لها الخطأ بعد أن تصدر حكمها، فلا تملك حينئذ أن ترجع إلى الصواب.. لقد خرج الأمر من يدها بمجرد إصدار الحكم!.

ها ها! ها ها لعدالة الأرض التي ترى الحق واضحا ولكنها لا تملك الرجوع اليه، لأن الأمر خرج من يدها محافظة على الإجراءات!.

أما عدالة السماء فتقول: إن الرجوع الى الحق فضيلة. ولا تمنع القاضي الذي يصدر الحكم، ثم يتبين له خطؤه أن ينقض حكمه بنفسه، وأن يرتد إلى الحق، لأن الحق أولى بالاتباع.

وبالطبع لا تقف أمام محكمة أخرى أن ترد الحق إلى نصابه بمجرد أن يتبين الحق، غير مقيدة بهذه الشكليات التي يؤثرها قانون الأرض على العدالة،

ويصون إعتبارها ولو بإهدار دماء الأبرياء.

فأين عدالة الأرض من عدالة السماء؟!.

إننا حين نطلب للاسلام أن يحكم، وحين نطلب لشريعته أن تكون مصدر التشريع.. إنما نطالب بشريعة أرقى، وبإجراءات أدق، وبعدالة أكمل.

والجاهلون يقولون: أتريدوننا على أن نرتد إلى الوراء أربعة عشر قرنا؟!.

يا للغرور! يا للجهالة! إن قانونكم هو القاصر العاجز، وإن تشريعكم هو المتأخر الجامد..

إن شريعتنا التي ندعوكم إليها لا تغل يد القاضي عن العودة إلى الحق، في أي وقت وفي أي دور من أدوار المحاكمة.. حتى بعد الحكم، له أن يعود إلى الحق الذي يراه.

إن شريعتنا لا تقف جامدة مشلولة أمام الظلم الواقع والعدل الضائع، لأنها تريد المحافظة على كرامة الإجراءات دون كرامة العدل والحق والقضاء.

إن شريعتنا لا تقف عاجزة أمام ملك ولا رئيس جمهورية ولا رئيس وزارة ولا وزير ولا كبير.. فحيثما كانت جريمة فشريعتنا حاضرة لردع المجرم كائنا منصبه ما كان.

إن شريعتنا لا تسمي القاتل ولا المحرض على القتل صاحب جلالة، ولا تصون ذاته المقدسة، ولا تضعه فوق القانون.

إن شريعتنا لا تدع ولاة الأمور يهدرون دم الأبرياء، ثم يروحون ناجين لا تمتد إليهم يد القانون الشلاء العزلاء.

لهذا نحن ندعو إلى تحكيم شريعة الاسلام؛ لأنها شريعة أكثر تقدما، وأوسع أفقا، وأكثر مرونة.. ولأن قانونكم الأرضي قاصر جامد متخلف لا يلبي داعي الزمن؛ ولا يقتص لدماء الأبرياء!.

تساوقت هذه الخواطر في نفسي وأنا أطالع صحيفة الاتهام. وأنا أبصر بيد العدالة الأرضية قصيرة عاجزة شلاء. وأتطلع إلى عدالة السماء فأراها شاهقة سامقة متفوقة شماء.

وقلت: ألا يفتح الله على هذه البشرية فتخرج من مضيق الأرض الى فسحة السماء؟ ألا يكشف الله عن بصيرة هذا الناس فيبصروا النور الذي يتخبطون دونه في دياجير الظلام؟.

إن أشد ما يثير الضحك المر. رجال القانون عندنا، أولئك الذين يحسبون شرائعهم عصرية تقدمية، ويعدون شريعة الله قديمة ورجعية!.

إنهم لا يكلفون أنفسهم النظر في شرائعهم وشريعة الله. ليعلموا أن عقلية التشريع التي بين أيديهم جامدة قاصرة حين تقاس إلى الشريعة السمحة الحرة الدقيقة العادلة.

إنهم جهلاء ويحسبون أنفسهم من العلماء! إنهم جامدون ويحسبون أنفسهم متحررين **﴿وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض. قالوا: إنما نحن مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾**.

غفر الله لهم وهداهم إلى الحق. والحق منهم على قيد ذراع.

الفهرس

سيد قطب .. رؤية صادقة

- تنبأ سيد قطب في مقالاته السياسية والاجتماعية - التي نضعها بين يديك - بجملة من التحولات الحاسمة التي سيشهدها تاريخ البشرية ، والمؤيدة بنواميس الكون الثابتة .

- تنبأ بسقوط الشيوعية وافلاسها فكرا وواقعا ، وقد سقطت وأفلست فكرا وواقعا .

- ولفت الأنظار الى أن « العالم الحر » اسم يطلقه الاستعماريون في انجلترا وفي فرنسا وفي أمريكا على تلك الكتلة الاستعمارية التي تكافح ضد الزمن ، وتقاتل ضد الانسانية ، وتقاوم ضد الحرية ، ثم تطلق على نفسها في النهاية اسم « العالم الحر » .

- وها هي كتابات سيد قطب التي تنبع من رؤية صادقة ، تعيش مع الأمة العربية والاسلامية أزمتها الراهنة ، توضح الطريق لصد الهجمة الحاقدة الشرسة على كيان الأمة ووجودها ، ان كتاباته تقرر أنه لا حياة لمن (يقف على الحياد في معركة الحرية بين الاستعمار الغربي وبين البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها) .



دار الاسراء للنشر والتوزيع